سلسلة علوم البلاغة العربية (٣)

البلاغة في السنة النبوية

دراسة تحليلية في الحديث النبوي

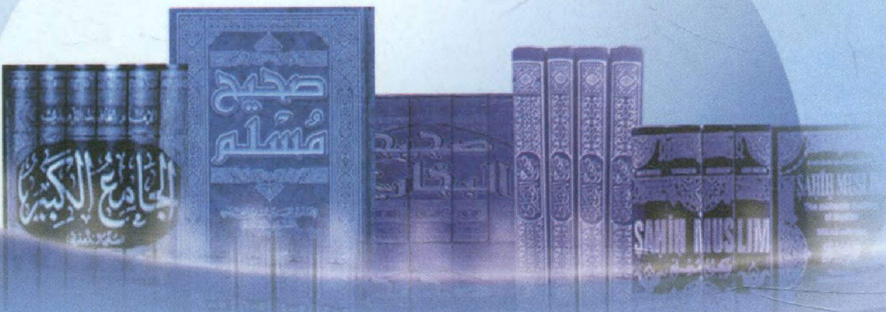

الدكتورة
عزّة محمد جدّوع
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
كلية الآداب ـ جامعة الملك فيصل

الطبعة الأولي
١٤٣٤هـ ٢٠١٣م
مكتبة الرشد

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

سلسلة علوم البلاغة العربية ٣

البلاغة
في
السنة النبوية

دراسة تحليلية في الحديث النبوي الشريف

الدكتورة
عزة محمد جدوع
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي
كلية الآداب - جامعة الملك فيصل

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

ح) مكتبة الرشد ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
جدوع، عزة محمد
البلاغة في السنة النبوية/عزة محمد جدوع - الرياض، ١٤٣٤هـ
ص ، سم
ردمك :٩-٩٣٦-١-٠٠-٩٩٦٠-٩٧٨
١-الحديث-بلاغة ٢- السنة النبوية أ.العنوان
ديوي ٢٣١.٩ ١٤٣٤/١٠٢١

ردمك :٩-٩٣٦-١-٠٠-٩٩٦٠-٩٧٨ رقم الإيداع ١٤٣٤/١٠٢١

الطبعة الأولى تاريخ : ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م
مكتبة الرشد - ناشرون
المملكة العربية السعودية - الرياض
الإدارة : مركز البستان - طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٢٥٩٠
ص . ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٦٠٤٨١٨ - فاكس ٤٦٠٢٤٩٧
Email: info@rushd.com.sa
Website : www.rushd.com.sa
للتواصل www.Info@rushd.com.sa

فروع المكتبة داخل المملكة

الرياض :المركز الرئيسي : الدائري الغربي - بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢
الرياض : فرع عثمان بن عفان هاتف ٢٢٥٣٠٥٢
الرياض : فرع الدائري الشرقي هاتف ٤٩٧١١٩٩ فاكس ٤٩٦١٥٩٩
فرع مكة المكرمة : شارع الطائف هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦
فرع المدينة المنورة : شارع أبي ذر الغفاري هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧
فرع جدة : مقابل ميدان الطائرة هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤
فرع القصيم : بريده - طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
فرع أبها : شارع الملك فيصل هاتف ٣٢١٧٣٠٧ فاكس ٢٢٤٢٤٠٢
فرع الدمام : شارع الخزان هاتف ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣
فرع حائل : هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦
فرع الإحساء : هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥
فرع : تبوك هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧

مكاتبنا بالخارج

القاهرة : مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥- موبايل ٠١١٦٢٨٦١٧٠
بيروت : بلر حسن موبايل ٠٣٥٥٤٣٥٣ تلفاكس ٠٥/٤٦٢٨٩٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

[البقرة]

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٧-٩
تمهيد	١١-١٩
تدوين الحديث النبوي	١١
مصطلح الحديث النبوي	١٤
الفصل الأول البلاغة في الحديث النبوي وجهود الباحثين في دراستها	٢١-٤٦
عوامل تفوق البلاغة النبوية	٢٣
الدراسات البلاغية في الحديث النبوي	٣٣
الفصل الثاني الخصائص الأسلوبية للحديث النبوي	٤٧-٨٧
مدخل	٤٩
الإيجاز والدقة (جوامع الكلم)	٥٠
سهولة اللفظ ووضوح الدلالة	٥٧
التكرار الأسلوبي	٦٨
الفصل الثالث الصورة الفنية في الحديث النبوي	٨٩-١٨٤
مدخل	٩١
التشبيه	٩٤
الاستعارة	١٣١
الكناية	١٥٠
المجاز المرسل	١٦٤
الصورة الإشارية	١٧٠

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الرابع التشكيل البديعي في الحديث النبوي	١٨٥-٢١٩
الإيقاع وإنتاج الدلالة	١٨٧
مستوى الإيقاع الصوتي	١٨٩
مستوى الإيقاع الداخلي	٢٠٥
الفصل الخامس فنون العرض في الحديث النبوي	٢٢١-٢٩٣
مدخل	٢٢٣
الحوار	٢٢٤
القصة	٢٤٤
الخطابة	٢٥٣
الرسالة	٢٧٩
مراجع الكتاب	٢٩٤-٣٠١

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ، وهادي العالمين ، وأفصح من نطق بلسان عربي مبين .. وبعد ،،

فإن الحديث النبوي الشريف يمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، والأساس الأول في تفصيل ما أجمله القرآن الكريم ، وقد نال عناية كبيرة، واهتمامًا واسعًا من الباحثين على مر العصور من حيث : مصطلحاته ، وأنواعه ، وإسناده، ورجاله ، وطبقات رواته ، وشرحه وتفسيره ، وغيرها من علوم الحديث التي تتصل بسنده ومتنه ، أو تتصل بسبب أو أكثر بالمجالات الفقهية والشرعية المستمدة منه .

أما الجانب البلاغي الذي يحفل به الحديث النبوي الشريف ، فلم ينل من عناية الباحثين واهتمامهم إلا بدراسات قليلة قياسًا إلى ما كُتب في علومه الأخرى ، بيد أن هذه الدراسات تمثل منارات مضيئة للباحثين بأفكارها وآرائها الثاقبة ، وقد أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب .

ومن ثم يحاول هذا الكتاب أن يبرز واضحًا ما تسهم به الظواهر البلاغية بأبعادها الإقناعية والتأثيرية ، ووظائفها التداولية في تحقيق غاية الحديث التبليغية والتمكينية للحقائق الدينية في نفوس المخاطبين ؛ وفي هذا الإطار اتجهت دراستنا إلى تحليل النص الحديثي ، بوصفه وحدة متكاملة تمثل أساس بناء المعنى ، متجاوزة في سبيل ذلك التعامل الجزئي على مستوى الجملة ، إلى مستوى النص بكامله وما

احتواه من العلاقات اللغوية ، وتشكيله الجمالي ، وما يقوم به من مزج بين الحقائق الدينية والعرض الأدبي .

وعلى هذا الأساس جاءت الدراسة التحليلية ؛ لتتناول الجمال الفني في النص الحديثي بألوانه المبدعة ، ودوره في تشكيل المعنى ضمن الصياغة الكلية للنص ، مستعينة في سبيل ذلك بالأساليب البلاغية ذات الطابع التراثي ، والاتجاهات النقدية الحديثة التي سلكت نهجًا جديدًا في تحليل النص تحليلاً يرتبط بسياق إنتاجه ؛ لكونه خطابًا تداوليًّا يرتبط بالاتصال اللغوي .

وبذلك حرص الكتاب على الجمع بين الدراسات التراثية والمعاصرة في تحليل النص الحديثي ؛ للكشف عن تشكيله الجمالي والإبداعي ، وإبراز مستوياته الأسلوبية ، وروابطه النصية التي حفظت له تماسكه ، وترابط عناصره شكليًّا ودلاليًّا .

وقد عني الكتاب بتحقيق الأهداف التعليمية والتربوية المنشودة من دراسة مقرر "البلاغة في السنة النبوية " ، كما راعى أن تأتي موضوعاته متوافقة مع مفردات هذا المقرر الذي يدرسه طلاب وطالبات أقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكليات التربية والآداب واللغة العربية بالجامعات العربية والإسلامية .

ونتيجة لذلك فقد توخَّى الكتاب الوضوح والتيسير ، وحسن العرض والترتيب في صياغة أفكاره ؛ ليأتي أسلوبه متناسبًا مع المستوى الفكري للدارسين والقرَّاء ، وبعيدًا عن الغموض أو التعقيد الذي يقف حائلاً دون فهم الأفكار والمضامين ، والوقوف على الأهداف المبتغاة .

أما الموضوعات التي تناولها الكتاب بالبحث والدراسة ، فانتظمت في تمهيد

وخمسة فصول مترابطة ومنسجمة ، تناول الفصل الأول منها البلاغة في الحديث النبوي وجهود الباحثين في دراستها، وعرض الفصل الثاني للخصائص الأسلوبية للحديث النبوي، وخُصص الفصل الثالث لبحث ألوان الصورة الفنية، وعُني الفصل الرابع ببيان أساليب التشكيل البديعي، أما الفصل الخامس، فاضطلع برصد السمات الجمالية والأسلوبية ، والروابط النصية لفنون العرض في الحديث النبوي .

وبعد .. فلعل هذا الكتاب يكون قد استكمل محاوره التي رُسمت له ، وأسهم في أن يضيء جانبًا من جوانب البيان النبوي الذي يمثل ذروة البلاغة العربية ، بما يفيد طلاب العلم في مجال الدراسات البلاغية التي يشكل النص الحديثي أحد ميادينها التطبيقية الرئيسة ؛ خدمةً للبيان النبوي الذي هو في حاجة ضرورية إلى مزيد من البحث البلاغي الذي يحاول الإفادة من معطيات المناهج المعاصرة وإجراءاتها المتعددة كالأسلوبية ، والنصية ، وغيرها من مناهج حاولت أن تضع أسسًا ومعايير دقيقة لتحليل النص الأدبي على المستويين : النظري والتطبيقي .

سائلةً المولى العلي القدير أن يكتب لهذا العمل القبول ، ويقبلنا في خدمة كتابه وسنة نبيه الهادي الأمين . والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

عزّة جدّوع

الأحساء : في يوم الجمعة

الموافق : ٨ من رمضان ١٤٣٣هـ

٢٧ من يوليو ٢٠١٢م

تمهيد

تدوين الحديث النبوي :

اتخذ الرسول ﷺ كُتّابًا للوحي يكتبون بين يديه ما أنزل عليه من القرآن ؛ لتدعم الكتابة الحفظ ، ويعضد التدوين ما أودعه الله في صدور الصحابة ﷺ ، فدونوه في الرِّقاع ، والعُسُب ، واللِخاف ، والأديم[1] ، ثم وضعه ﷺ مكتوبًا مجموعًا في بيته ، بيد أنه ﷺ لم يأمر الصحابة بتدوين الأحاديث في بادئ الأمر كالقرآن ، بل نهى عن ذلك ؛ ليتفرغوا للقرآن الكريم وحفظه شفاهة وكتابة ؛ خشية أن يختلط الحديث بالقرآن ؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالقرآن وأسلوبه .

وقد ثبت ذلك النهي في قوله ﷺ : " **لا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا إِلاَّ الْقُرْآنَ ، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ ، فَلْيَمْحُهُ** " .رواه مسلم .

وعندما شاع القرآن الكريم بين المسلمين ، وأصبح متمكنًا في صدورهم ، ولم ينشغلوا عنه بسواه ، وميزوه عن الحديث ، بحيث لم يختلط به ، سمح الرسول ﷺ لبعض الصحابة أن يكتبوا بعض الأحاديث .

ومما يؤيد هذا أنه ﷺ أذن بالكتابة لمن كان قارئًا ، كاتبًا يثق في ضبطه ، ولا يخشى عليه الخلط أو الخطأ في الكتابة ، كعبد الله بن عمرو بن العاص الذي رُوي عنه أنه قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ الشَّيْءَ أَفَأَكْتُبُهُ ؟ قَالَ : "**نَعَمْ**" . قلت : فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ قَالَ : " **نَعَمْ ، فَإِنِّي لا أَقُولُ فِيهِمَا إِلاَّ حَقًّا**" .أخرجه أحمد ، وكانت له صحيفة – أي نسخة أحاديث كثيرة – وكان يسميها الصادقة .

ويؤكد ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة أنه قال : "مَا مِنْ أَصْحَابِ

النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي ، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلا أَكْتُبُ ".

كما أباح النبي ﷺ لمن يصعب عليه من الصحابة حفظ الحديث أن يستعين بالكتابة ، وذلك فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة أنه قال : كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَجْلِسُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَسْمَعُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْحَدِيثَ فَيُعْجِبُهُ وَلا يَحْفَظُهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ الْحَدِيثَ فَيُعْجِبُنِي وَلا أَحْفَظُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " اسْتَعِنْ بِيَمِينِكَ " ، وأومأ بيده للخط .(٢)

وهناك أخبار كثيرة ذكرتها كتب الحديث تدل على أن النبي ﷺ أذن بكتابة الحديث ؛ مما يبرهن على أن المنع لم يكن قاطعًا ، ولم يكن عامًّا ، وكذلك الإباحة لم تكن عامة في أول الإسلام ، إذ عندما وجدت علة النهي منعت الكتابة ، وعندما زالت أبيحت ، وانتهى أمر الرسول ﷺ إلى إباحتها للأدلة التي ذكرتها كتب الحديث .(٣)

وفي عهد الخلفاء الراشدين استقر رأي أكثر الصحابة على إباحة كتابة الحديث، أما القلة منهم فرغبت عن ذلك ، وكان منهم الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي فكر في تدوين الحديث ، ولكنه استخار الله شهرًا ، ثم رأى ألا يدونه ؛ خوفًا من أن يهمل المسلمون كتاب الله الكريم ، ويهتموا بدراسة سواه .

أما في العصر الأموي ، فقد عزم عمر بن عبد العزيز على جمع الأحاديث وكتابتها؛ حتى لا يختلط الصحيح بالزائف ، ولا يضيع منها شيء بموت حُفَّاظها ؛ فكتب إلى عماله في الأمصار الإسلامية يأمرهم بذلك ، وكان مما كتب إلى أبي بكر بن حزم والي المدينة "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء "(٤)

كما أوصاه أن يكتب ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، والقاسم بن

محمد ابن أبي بكر ، كما أمر ابن شهاب الزهري وغيره بجمع الأحاديث [٥].

وبذلك انعقد الإجماع على كتابة الأحاديث ، فتتابع التدوين ؛ حيث ألف الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) كتابه "الموطأ" بالمدينة المنورة ، وظهرت مصنفات الحديث الأولى على يد ابن جريج البصري (ت:١٥٠هـ) بمكة ، والأوزاعي (٨٨-١٥٧هـ) بالشام ، وسفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ) بالكوفة ، وعبد الله بن المبارك (١١٨-١٨١هـ) بخراسان ، وعبدالله ابن وهب (١٢٥-١٩٧هـ) بمصر ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في السير على دربهم .

ثم عني العلماء بإفراد أحاديث النبي عليه السلام في مؤلفات خاصة ، فكان منها الأسانيد ، وهي كتب تورد الأحاديث خالية من الفتاوى ، وتأتي مرتبة على حسب رواتها من الصحابة ، فتذكر أحاديث أبي بكر على حده ، وأحاديث عمر وهكذا ، وكان من أشهر العلماء في تأليف الأسانيد : أبو داود الطيالسي (١٣٣-٢٠٤هـ) ، وابن راهويه (١٦١-٢٣٨هـ) شيخ الإمام البخاري ، وأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) ، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم.[٦]

كذلك ظهر في القرن الثالث كبار أئمة الحديث في الحفظ والرواية ، والتعديل والجرح ، ونهجوا نهج التأليف على الأبواب الفقهية كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها ، وكان منهم من التزم تخريج الحديث الصحيح فحسب في كتابه، وهما البخاري (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت٢٦١هـ) ، ومنهم من لم يلتزم الصحة ، فذكر في كتابه : الصحيح والحسن والضعيف ، وقد تفاوتت كتبهم في المنزلة ، وهم أصحاب السنن الأربعة : أبو داود (ت٢٧٥هـ) والترمذي (ت٢٧٩هـ) والنسائي (ت٣١٥هـ) وابن ماجه (ت٢٧٣هـ).

وبذلك كان القرن الثالث بعلمائه وأئمته الكبار هو العصر الذهبي لتدوين السنة ، وكل من جاء بعدهم سار على دربهم ، واقتفى أثرهم ، واعتمد على مؤلفاتهم .

ثم توالت بعد القرن الثالث المؤلفات التي عني فيها أصحابها بالاستدراك على ما فات علماء القرن الثالث في نقد الرجال، وتعليل الأحاديث، وتهذيب مؤلفاتهم وترتيبها، أو جمع ما تشتت منها في كتاب واحد، أو اختصار الأسانيد والمتون، أو تخريج أحاديث بعض كتب الفقه والتفسير والوعظ واللغة ونحوها.(٧)

مصطلح الحديث :

الحديث في اصطلاح المحدثين يرادف السُّنة، ويراد بهما كل ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أما الخبر عندهم فمرادف للحديث، ويطلقان على المرفوع إلى النبي ﷺ، وعلى الموقوف على الصحابة والتابعين، ولكن أكثر المحدثين يخصون الحديث بما جاء عن الرسول ﷺ، والخبر بما ورد عن غيره، فبينهما عموم وخصوص، إذ الخبر أعم من الحديث، وكل حديث خبر، وليس العكس(٨). وقد يسمي بعض المحدثين المرفوع والموقوف أثرًا، أما فقهاء خراسان فيسمون الموقوف أثرًا، والمرفوع خبرًا.

وتنهض دعائم الحديث على عنصرين رئيسين هما : السند والمتن، أما السند فهو سلسلة أسماء رواة الحديث الذين نقلوا الحديث بالتسلسل واحدًا عن واحد، وأما المتن فهو نص الحديث المروي، وهو غاية ما ينتهي إليه إسناد الكلام.

ويتناول علم الحديث موضوعين رئيسين : علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية، ويشتمل علم الحديث الخاص بالرواية على نقل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلْقية أو خُلُقية نقلًا دقيقًا محررًا، وقد قام بواجب هذا العلم الصحابة والتابعون، وأئمة الحديث، وذلك للوقوف على ما ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث؛ فيهتدى به.

أما علم الحديث الخاص بالدراية ، فهو علم بالأصول والقواعد التي يتوصل بها إلى معرفة الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، وأقسام كلٍّ ، وما يتصل بذلك من معرفة حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد ، وقد أطلق العلماء على هذا العلم اسم (علوم الحديث) و(مصطلح الحديث) و (أصول الحديث) وكلها أسماء لمسمى واحد ، وتناولوا تحتها أقسام الحديث ، وطرق التحمل والأداء ، والجرح والتعديل ، إلى غير ذلك من موضوعات تتصل بهذا العلم .

أما تقسيم الحديث من حيث القبول والرد ، فتوافق العلماء على تقسيمه ثلاثة أقسام : حديث صحيح ، وحديث حسن ، وحديث ضعيف .

الحديث الصحيح :

هو ما اتصل سنده بالرجال العدول الضابطين من أوله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة.

[الشذوذ معناه أن يخالف الراوي من هو أرجح منه . العلة : إرسال موصول ، أو وصل منقطع ، أو رفع موقوف]

وينقسم الحديث الصحيح قسمين : صحيح لذاته : وهو ما اشتمل على أعلى الصفات المذكورة في تعريف الصحيح ، أما الصحيح لغيره : فهو الذي لم تتوافر فيه أعلى صفات القبول ، فقوي بعامل خارجي عنه ، كأن يكون أحد رواته غير تام الضبط ، فإذا عضد هذا الحديث طريق آخر مثله ، أو حديث صحيح ، صار صحيحًا لغيره ، فالصحيح لغيره أصله حسن لذاته ، ثم ارتقى بتعدد الطرق إلى الصحيح لغيره .[٩]

واتفق أئمة الحديث على أن الأحاديث الصحاح هي ما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ثم ما انفرد به البخاري ، ثم مسلم ، ثم ما كان على شرطهما ، ولم يخرجاه

في صحيحيهما ، ثم على شرط البخاري ، ولم يخرجه في صحيحه ، ثم على شرط مسلم ، ولم يخرجه في صحيحه ، ثم صحيح أخرجه غيرهما ، وليس على شرطهما كالأحاديث التي أخرجها الإمام أحمد في مسنده ، وأصحاب السنن الأربعة ، وحكموا عليها بالصحة ، والأحاديث التي أخرجها ابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم في مستدركه .(١٠)

الحديث الحسن :

هو ما اتصل سنده براوٍ عدلٍ ، خفَّ ضبطه من غير شذوذ ولا علة ؛ وبذلك يكون الفرق بين الصحيح والحسن هو الضبط والإتقان ؛ فيشترط الضبط التام في الحديث الصحيح ، ويكتفى بأصل الضبط في الحسن .

والحديث الحسن نوعان : حسن لذاته ، وهو الذي توافرت فيه جميع الشروط المذكوره في تعريف الحديث الحسن .

أما الحديث الحسن لغيره ، فهو الحديث الذي لم تتوافر فيه شروط الحسن ، فأصله ضعيف عضده أمر خارجي عنه ،فارتقى إلى الحسن بذلك العاضد (١١)، حيث كان ضعفه بسبب وجود راوٍ في الإسناد مستور لم تتحقق أهليته ، غير مغفل، ولا كثير الخطأ في روايته ، ولا متهم بتعمّد الكذب ، ولا ينسب إلى مفسق آخر ، ولكن هذا الحديث روى من طرق أخرى ، فاعتضد بهذه الطرق وتأيّد بها ، وارتفع من الضعف إلى الحسن ، ولولا وجود هذا العاضد ، لاستمرت صفة الضعف فيه .(١٢)

ويشارك الحديث الحسن الحديث الصحيح في الاحتجاج والعمل به عند الفقهاء والمحدثين ، وإن كان مقصرًا عنه في الرتبة ، ودونه في القوة ، ولكن يقدم الصحيح عليه عند التعارض.(١٣)

ويعد الترمذي أول من قسم الأحاديث إلى صحيح وحسن وضعيف ، وهو الذي نوه بالحديث الحسن وأكثر من ذكره في "سننه" ، كما ورد الكثير منه في سنن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارقطني ، و"مسند" الإمام أحمد .

كذلك جمع الترمذي في "سننه" بين الحسن والصحة ، فيقول في كثير من الأحاديث : "حسن صحيح" ، وأجاب العلماء عن جمعه هذا بقولهم : إن ما قال فيه : " حسن صحيح " مما له أكثر من طريق ، قاله باعتبار إسنادين : أحدهما صحيح ، والآخر حسن ، وإذا كان ما قيل فيه "حسن صحيح " ليس له إلا طريق واحد ، فذلك نتيجة لاختلاف أنظار النقاد في الحكم عليه ، فمنهم من رآه من رتبة الصحيح ، ومنهم من رآه من رتبة الحسن ، وقد لا يترجح للناقد قول منهما ، أو يترجح أحدهما على الآخر ، وللأمانة العلمية كان يقول : إنه حسن عند قوم ، وصحيح عند آخرين ، فاختصر بقوله "حسن صحيح " من غير أن يذكر حرف التردد "أو" والأولى أن يقول : " حسن أو صحيح " .(١٤)

الحديث الضعيف :

هو الذي لم تجتمع فيه صفات الصحيح ولا الحسن ، وتكثر أنواعه لتصل لدى بعضهم إلى تسعة وأربعين نوعًا ، ونذكر منها : المرسل ، والمنقطع ، والمفصل ، والمُدَلَّس ، والمعلَّل والمضطرب ، والمنكر ، والمضعَّف ، والمتروك ، وغيرها مما عنيت به كتب الحديث ، وأوسعته شرحًا وبيانًا.(١٥)

واتفق العلماء على أنه لا يحتج بالحديث الضعيف في الأحكام ، ولكنهم اختلفوا في العمل به في فضائل الأعمال والمواعظ والقصص ، وفنون الترغيب والترهيب ، وسائر ما لا تَعلُّق له بالأحكام والشرائع ، فذهب بعضهم إلى جواز العمل به إذا توافرت له بعض الشروط ، في حين رأى بعض الأئمة الأعلام أنه لا يعمل به مطلقًا لا في الأحكام ، ولا في فضائل الأعمال .(١٦)

ويرى علماء الحديث أنه ينبغي لمن يذكر حديثًا ضعيفًا بغير إسناد ألا يرويه بصيغة الجزم؛ فلا يقول فيه : (قال رسول الله ﷺ ...) أو (أمر ...) أو (نهى ...)ونحو ذلك من صيغ الجزم ، بل يجب عليه أن يذكره بصيغة تدل على الشك في صحته ، كأن يقول : رُوي عن رسول الله ... أو ذُكر ... ، أو نُقل ... ، أو جاء ... ، أو فيما يُروى ... ، وشبه ذلك .(١٧)

الهوامش :

١. الرقاع : جمع رقعة ، وقد تكون من جلد أو ورق . العُسُب : جريد النخل ، بعد أن يكشفوا الخوص يكتبون في الطرف العريض . اللخاف : بكسر اللام ، جمع لخفة وهي : الحجارة الرقيقة . الأديم : الجلد . الأكتاف : جمع كتف ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . (ينظر : القرطبي ١/ ٥٠) .

٢. ينظر : تحفة الأحوذي ٣/ ٣٧٥ .

٣. ينظر : الوجيز ص١٣٥ .

٤. فتح الباري ١/ ٢٠٤ .

٥. ينظر : جامع بيان العلم ١/ ٧٦ .

٦. ينظر : الرسالة المستطرفة ص٤٦ .

٧. ينظر : د . محمد أبو شهبة : الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ، ط١ ، مكتبة السنة ، القاهرة ٢٠٠٦م ص٧٥:٧٦ .

٨. ينظر : جمال الدين القاسمي : قواعد التحديث ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٥م ص٣٦ .

٩. ينظر : السابق ص٥٦.

١٠. ينظر : الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ص٢٤٠ .

١١. ينظر : قواعد التحديث ص١٠٢ .

١٢. ينظر : د. محمد لطفي الصباغ : الحديث النبوي ، ط٨ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣م ص٢٣٩ .

١٣. ينظر : السيوطي : تدريب الراوي ، ط١ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، ١٩٥٩م ص٩١ .

١٤. ينظر : ابن حجر : شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٤م ص ٧٣-٧٥ ، وابن كثير : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، ط٢ ، تحقيق : أحمد شاكر ، مطبعة على صبيح ، القاهرة ١٩٥٢ م ص٤٦-٤٧ ، ود. محمد عجاج الخطيب : المختصر الوجيز في علوم الحديث ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٨ م ص١٤٦ .

١٥. ينظر : علوم الحديث ص ٣٧:٤٤ ، والحاكم : معرفة علوم الحديث ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٧ م ص٢٥ ، والباعث الحثيث ص٤٤ .

١٦. ينظر : الباعث الحثيث ص٩١ ، وقواعدالتحديث ص٩٩ ، وتدريب الراوي ص١٩٦ ،والملل والنحل ٢/ ٨٣ .

١٧. ينظر : علوم الحديث ص٩٤ ، وتدريب الراوي ص١٩٥:١٩٦ .

الفصل الأول

البلاغة في الحديث النبوي
وجهود الباحثين في دراستها

- عوامل تفوق البلاغة النبوية .
- الدراسات البلاغية في الحديث النبوي .

عوامل تفوق البلاغة النبوية

يمثل القرآن الكريم قمة البيان الإلهي المعجز، ثم يأتي الحديث النبوي في قمة البيان البشري ، فالبيان النبوي هو البيان التالي للبيان القرآني، إذ نزل القرآن الكريم على قلبه ﷺ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (الشعراء) ، وصقل به لسانه ، وصنعه ربه على عينه ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨) .

ووصفته السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : " كان خلقه القرآن " ، كما روى عن رجل قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ما أفصحك، ما رأينا الذي هو أعرب منك، فقال ﷺ : " **حق لي، فإنما أنزل القرآن عليَّ بلسان عربي مبين** " ، ولذلك جاء بيانه متصلًا بجلال خالقه ، مستلهمًا معاني قرآنه ، حاويًا لجوامع الكلم ، متفوقًا على ما عداه من ألوان البيان البشري ؛ ومن ثم كان دليلًا أساسًا من دلائل نبوته الطاهرة .

ولا شك فإن النص النبوي ببلاغته العالية وفنه الرفيع ، وما يحمل من مقومات فكرية سامية ، قد أمد الأمة الإسلامية على مر العصور بمعين فياض لا ينفد من حقائق الدين ، ومقتضياته العقلية ، والتشريعية والخلقية ، كما أنه يمثل لها أدبًا إصلاحيًّا يستمد إرشاداته وتوجيهاته من السماء ، وعلى الجملة كان البيان النبوي هو البلاغ والوحي الذي يدعو إلى تفهم كتاب الله العظيم " القرآن الكريم" .

وثمة عوامل أثرت في تكوين البيان النبوي وأهلته أن يتسنم مكانة سامقة تعلو على ما سواها من البيان البشري ، ومن أهمها :

الفطرة النقية :

تعد الطبيعة النقية الصافية التي فطره الله عليها من الأسباب التي أهلت البلاغة النبوية عن جدارة واستحقاق ؛ لأن تكون على قمة البيان البشري بلا منازع ، فقد وهب ﷻ صفوة خلقه ﷺ فطرة نقية ، وبديهة حاضرة ، وقلبًا واعيًا ، وبصرًا نافذًا ، وذهنًا متوقدًا ، ولسانًا فصيحًا ، مما لم يبلغه سواه من الخلق أجمعين ، وذلك لإبلاغ رسالته الناس كافة .

وقد أسهمت هذه الفطرة النقية ، والإعداد الإلهي في أن يستوعب عليه السلام ألفاظ اللغة وتراكيبها ، فكان – كما يقول الرافعي – كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا ، وأسدَّهم لفظًا ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب ، ولو عرف لكانوا نقلوه ، وتحدثوا به ، واستفاض فيهم .

فقد كان ﷺ في اللغة القرشية التي هي أفصح اللغات وألينها ، بالمنزلة التي لا يدافَع عليها ، ولا ينافَس فيها ، وكان من ذلك في أقصى النهاية ، وإنما فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها مع صفاء الحس ، ونفاذ البصيرة ، واستقامة الأمر كله ، بحيث يصرِّف اللغة تصريفًا ، ويديرها على أوضاعها ، ويشقق منها في أساليبها ومفرداتها ما لا يكون لهم إلا القليل منه ". (١)

النشأة اللغوية الخالصة :

ومما يمد للرسول ﷺ من أسباب الفصاحة والبلاغة والإبداع ، أنه قد تجمعت فيه خصائص البلاغة بالفطرة ، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، إذ نشأ عليه السلام نشأة لغوية في بيئة عربية نقية خالصة ، تعبق بألوان الفصاحة والبيان التي صقلت موهبته الفذة المتفردة من بني البشر ؛ ليتمكن لسانه من الأداء

المحكم عما يلهم خاطره ، ويجيش بنفسه من المعاني .

فقد ولد ونشأ في بني هاشم من قريش ، وهي أفصح القبائل لسانًا ، وأخلصها منطقًا ، وأنصعها بيانًا ، وأعذبها بلاغةً ، وأخواله من بني زهر ، ورضاعه في بني سعد ابن بكر ، وزواجه من بني أسد ، ومهاجرته إلى يثرب حيث الأوس والخزرج ، وهذه القبائل أخلص القبائل لسانًا ، وأعذبها لهجةً ؛ ونتيجة لذلك قال عليه السلام :" أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر " .

ووسط هذه البيئة العربية الخالصة نشأ محمد ﷺ نشأ يافعة في ربوع الفصاحة ، وميادين البلاغة ، بقوة فطرته ، وتمكنها من صفاء النفس ، ونفاذ البصيرة ، واستقامة الأمر ، وقد تقلب محمد ﷺ في هؤلاء القوم التي كانت الفصاحة – كما يقول الرافعي – أكبر أمرهم ، والكلام سيد عملهم ، ولو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به ، ولأقاموه في وزنه ، ثم لجعلوا من ذلك سببًا لنقض دعوته والإنكار عليه ، غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها ، وأشرف مذاهبها ، ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم ، ولا يتعلقون به ، ولا يطيقونه . (٢)

ولذلك قال القاضي عياض عن فصاحته عليه السلام وبلاغته :" وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله " . (٣)

وفي هذا الصدد يصف العقاد أسلوب البلاغة النبوية بقوله : " فليس أقرب من هذا الأسلوب في إبلاغ الغرض منه ، لا كلفة ولا غموض ولا إغراب ، والغريب بل ندرته في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ، فمحمد القرشي الناشئ في بني سعد ، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبلية نائية الأطراف ، ولم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ". (٤)

لذلك تكاملت فصاحة محمد عليه السلام ، فكان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في موضوع كلامه ، فكان أعرب العرب ، وخير من وصفه بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت :" ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل يحفظه من يجلس إليه " ... فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا هو دليل على أنه قد أوتي حقا جوامع الكلم ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.(٥)

ويخلص العقاد إلى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبداع قبل كل سمة أخرى ، بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها لأنها أصل شامل لما تعرف من سمات هي منها بمثابة الفروع . (٦)

أما تأثيره عليه السلام في اللغة بإلهامه النافذ ، وبيانه الناصع ، فقد أورد العلماء نماذج من فصاحته ﷺ وجوامع كلمه ، وحكمه المأثورة ، منها : " **حَمِيَ الْوَطِيس**"، و" **مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ** "، و" **لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**" ، و"**السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ**" ، و" **أَفْضَلُ الصَّدَقَة جَهْدُ الْمُقِلِّ** " ، و" **حُبُّك لِلشَّيْءِ**

يُعْمِي وَيُصِمُّ "، و" الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"، و" كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" إلى غير ذلك من الكلمات التي لم يُسبق إليها ﷺ .

المنحة الإلهية:

أما المنحة الإلهية التي خصه بها ﷺ، دون العالمين ، فتتمثل في جوامع الكلم ، إذ منحه ربه الفطرة النقية ، والبديهة الحاضرة ، واللسان الفصيح ؛ مما ساعده على تصريف الكلام ، وأعانه على كمال الفصاحة والبيان ؛ فتمكن ﷺ من أفانين البلاغة ما بهر به قومه ، وهم أصحاب اللسن ، وأرباب البيان ، وهؤلاء القوم وصف الجاحظ بلاغتهم بقوله:

"وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه – العربي – إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حتى حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة ،أو عند صراع حرب ، فما هو إلا أن يصرف وجهه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ،وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد . "(٧)

ولذلك لم يكن في العرب قاطبة – كما يقول الرافعي – من جمع الله فيه هذه الصفات ، وأعطاه الخالص منها ، وخصه بحملها ، وأسلس له مآخذها ، وأخلص

له أسبابها كالنبي ﷺ ، فهو اصطنعه لوحيه ، ونصبه لبيانه ، وخصه بكتابه ، واصطفاه لرسالته ؛ وماذا عسى أن يكون وراء ذلك في باب الإلهام وجمام الطبيعة ، وصفاء الحاسة ، وثقوب الذهن ، واجتماع النفس ، وقوة الفطرة ، ووثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض . (٨)

فالبلاغة النبوية بهذا التفرد والخصوصية في استعمال اللغة ترجع إلى المنحة الإلهية والرعاية الروحية التي تتمثل في جوامع الكلم ؛ لتكون علمًا لرسالته ، لذلك يقرر عليه السلام " **أُوتيتُ جوامع الكلم** " وفي رواية أخرى : " **بُعثتُ بجوامع الكلم** " ، مما يدل على أن هذه البلاغة منحة وهبة خصه الله بها ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (النساء: ١١٣) .

ومن ثم جاءت بلاغة الرسول ﷺ - كما يقرر الزيات - من صنع الله ، "وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه ، وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده "(٩)

ألهم ﷻ رسوله اللغة وأساليبها ، وأفهمه أسرارها ، فنفذ عليه السلام في اللغة وأعماقها وضعًا وتركيبًا ، وامتلك ناصيتها ، وأحاط بمراميها وأبعادها ، وبلغ من ذلك كله إلى الصميم ، فكان عليه السلام أفصح العرب لسانًا ، وأوضحهم بيانًا ، وأعذبهم نطقًا ، وأبينهم لهجة ، وأقومهم حجة ، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب . (١٠)

وبذلك جاء كلامه ﷺ في أعلى مكانة من البيان البشري ، لا يسبقه سوى كلام رب العالمين المعجز ، فهو يستمده من الوحي الذي أوحى إليه ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ (النجم) .

وتلك البلاغة النبوية من صنع الله وعنايته قد تجلت بوضوح كبير ، في منطقه عليه السلام بصحيح المعاني ، وسليم المباني ، حيث يصف هند بن أبي هالة منطقه عليه السلام حينما سأله الحسن بن علي رضي الله عنهما عن منطق الرسول ﷺ ، بقوله:

" كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلًا لا فضول فيه ولا تقصير . دمثا ليس بالجافي ولا المهين ، يُعظم النعمة ، وإن دقت ، لا يذم شيئا ، لم يكن يذم ذوقًا ولا يمدحه ، لا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها، وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه ابتسام ، ويفتر عن مثل حب الغمام..." .[11]

وقد أثارت تلك البلاغة النبوية العالية إعجاب أصحابه ، والتفتوا إليها في إعجاب وإكبار ، حتى نرى الصديق يسأل عن سر هذه البلاغة المتفردة ، حين قال: يارسول الله قد طفت العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك – أي علمك – ؟ فقال ﷺ : **" أدبني ربي فأحسن تأديبي "** ، إنه ﷺ رسول الله المكلف بتبليغ الرسالة ، ولا ينطق إلا عن حكمة ، ووحي يوحى .

والتفت البلاغيون إلى تلك المنحة الإلهية لبلاغته عليه السلام ، وكان في

مقدمتهم رائد البلاغيين الجاحظ الذي وصف بلاغة الرسول وحللها تحليلا دقيقا في بيان متدفق تناقله العلماء جيلًا بعد جيل ، يقول :

"وأنا أذكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ ، وهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكليف ، وكان كما قال الله ﷻ قل يا محمد : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (سورة ص : ٨٦).

"فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أصدق لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ". (١٢)

كما يذكر الخطابي أنه عليه السلام " أمده الله بجوامع الكلم التي جعلها ردءًا لنبوته ، وعلمًا لرسالته ، لينتظم في القليل منها علم كثير ؛ فيسهل على السامعين حفظه ، ولا يؤودهم حمله ". (١٣)

وفي السياق نفسه ، يقول الزمخشري : " ... ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته خصه وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة ، وأوفر سلام". (١٤)

الهدي القرآني :

ولا جدال فقد كان للقرآن الكريم ببيانه وبلاغته أثره العظيم في البيان النبوي ، حيث اختصه ربه بالقرآن الكريم ، فكان خير موجه له ، إذ ملأ حياته ، وشغل عقله وقلبه، وأورثه الحكمة والحجة والبيان ، فكانت معاني محمد في إرشاداته ربانية ، وكانت ألفاظه معرضًا رائعًا لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه ، فإن أثره عليه عظيم جليل.(١٥)

ويتجلى أثر القرآن الكريم بأسلوبه ومعانيه في البلاغة النبوية في مواضع متعددة في أقوال الرسول ﷺ ، نذكر منها على سبيل التمثيل قوله عليه السلام :" **إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ صِدِّيقًا . وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**"، حيث تأثر عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة) .

وكذلك قوله عليه السلام :" **لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا** " وهو متأثر بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (الطلاق) .

وهذا المعنى متأثر أيضا بقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الفرقان) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران) .

وعلى هذا النهج كان تأثره ﷺ بالبيان القرآني وهديه في أسلوبه ومعانيه ، بيد أن ثمة فرقًا واضحًا بين البيانين ، بين الإعجاز الإلهي ، وبين الحديث النبوي الذي

أوتي جوامع الكلم من البيان التعبيري البشري على الطريقة المألوفة بين العرب ؛ ولذلك يرى الباقلاني أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي ، ومن ثم فإن بين الكلامين بونًا بعيدًا ، وأمرًا مديدًا ، وميدانًا واسعًا ، ومكانًا شاسعًا .(١٦)

وفي ذلك يقول الرافعي :" على أن أعجب شيء أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة إلى مثلها مما في القرآن رأيت الفرق بينهما في ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه ﷺ في تلك الحال مما يطمع في مثله ، وأحسست أن بينك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقًا البتة ". (١٧)

تلك هي العوامل التي كان لها أثرها الواضح في تكوين بلاغة الرسول ﷺ ، وهي – كما يقرر الرافعي – البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

ألفاظ النبوة يعمرها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه ، ويصقلها لسانٌ نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهي إن لم تكن من الوحي ، ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل ، فقد كانت هي من دليله ، مُحكمة الفصول ، حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول ، حتى ليس فيها كلمة مفضولة . وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلبٍ يتكلم ، وإنما هي في سُموها وإجادتها مظهرٌ من خواطره ﷺ " (١٨) .

الدراسات البلاغية في الحديث النبوي

تمثل السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم ، وهي كل ما صدر من رسولنا ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، وجاءت لتبين ما في القرآن ، ففصَّلت مجمله ، أو وضحت مُشكِلَه ، أو قيدت مطلقه ، أو خصصت عامه ؛ ومن ثم احتلت السنة المكانة العليا من بين ألوان البيان وفنون التعبير بعد القرآن الكريم .

ونتيجة لذلك نالت دراسة السنة النبوية عناية العلماء المسلمين ، وشغلت مكانة متقدمة من جهودهم الطيبة المثمرة ، فجاءت مباشرة بعد جهودهم الحثيثة في مجال الدراسات القرآنية ، إذ حظي الحديث الشريف بدراسات كثيرة في مجالات علمية متعددة، منها : الرواية والتدوين والتوثيق ، والشرح والتفسير لمضامينه ، واستخلاص الأحكام الفقهية والشرعية ، والقيم الأخلاقية وغيرها من مجالات أحس المسلمون بحاجاتهم الرئيسة ، لفهم دينهم ، ومعرفة أحكامه ، بناء على نظرتهم للحديث بوصفه مفسرًا للقرآن ، وموضحًا له ؛ ومن ثم لم يكن غريبًا أن يسارع العلماء المسلمون إلى العناية بالسنة الطاهرة تلك العناية .

المؤلفات البلاغية التراثية في الحديث النبوي :

ولم تقف جهود العلماء أمام ما أشرنا إليه من وجوه العناية بدراسة الحديث ، بل توجهت عنايتهم أيضًا إلى مجاله من ناحية الدراسات اللغوية ، وإن اقتصرت هذه الدراسات على الاهتمام بغريب الحديث وشرحه وتصنيفه بما يزيد على خمسين مؤلفا ، ومن أشهرها: غريب الحديث لابن قتيبة ، وغريب الحديث لابن الجوزي، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، وغيرها من كتب غريب الحديث.

كما اهتمت بعض الدراسات اللغوية بإعراب الحديث النبوي ، مثل : إعراب الحديث النبوي للعكبري ، وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ، وإعراب الحديث للسيوطي .

أما الجهود اللغوية التي تبحث مجال البلاغة في الحديث النبوي، فلم تحظ من الدارسين إلا بجهود قليلة ، حيث لم تتجه دراسة البلاغة في الحديث إلى دراسة مستقلة متخصصة تقوم على البحوث المستفيضة التي تبرز الخصائص البلاغية التي امتاز بها الحديث النبوي ، وإنما كانت هذه الجهود تقوم على اختيار الشواهد من الحديث النبوي التي تتضمن كثيرًا من الفنون البلاغية التي استخرجها العلماء ؛ وعرضوا لها بالشرح والتحليل في دراساتهم البلاغية والنقدية، أو كانت هذه الجهود عبارة عن إشارات وتعليقات أو تحليلات بلاغية موزعة هنا وهناك في مواطن متفرقة في الكتب التي ألفها أصحابها في علوم الحديث المختلفة ، مثل : السير والمغازي ، والشروح والتفاسير ، وغيرها من دراسات في مجالات الحديث المتنوعة ، ويرجع السبب في ذلك لما كان يشغل اهتمام المسلمين في الفترة الأولى من عهد الدعوة ، وهو الجانب التشريعي والفقهي .

ومن ثم حظي الحديث الشريف بدراسات كثيرة في مجال العلوم الشرعية والفقهية ، أما الدراسات التي تناولته من الجانب البلاغي فجاءت قليلة معدودة ؛ لذا كان الفرق كبيرًا بين ما كتب من دراسات وبحوث في الجانب التشريعي والفقهي ، أو ما كتب في علوم الحديث بأنواعها المختلفة ، وبين ما ألف في البلاغة النبوية .

ولعل الجاحظ كان من العلماء الأول الذين عنوا بدراسة البيان النبوي في كتابه "البيان والتبيين" وفي رسائله ، حيث تعمق في تفسير الخصائص الفنية

للبيان النبوي، وما امتاز به من سمات الألفاظ والجمل، وأثرها في النفوس؛ مما جعل بيانه ﷺ درجة تالية بعد القرآن الكريم.

أما عبارات الجاحظ في هذا المضمار، فقد جاءت متدفقة بالبسط والتحليل والتمثيل، وتنبئ عن ذوق وافتتان، فكان الجاحظ يرى أن إدراك الرسول ﷺ يتسع لكل شيء دون الشعر، فلو شاء لكان أنسب وأوفق وأنطق ممن سواه، ولكنه صرف عن ذلك لا لتكون أميته دليلًا على رسالته الإلهية، بل لاهتمامه بما هو أولى وأجدر، أما الشعر فقد نفي عنه كيلا يتوهم أحد أن ما جاء به من القرآن يشبه بعض ألوان الشعر.(١٩)

ويعد الشريف الرضي العالم والأديب والشاعر (٣٥٩هـ - ٤٠٦ هـ) أشهر مؤلف كتب في البلاغة النبوية في تلك الفترة المتقدمة، إذ ألف كتابا متخصصا في هذا المجال، وهو "المجازات النبوية" تناول فيه البيان النبوي تناولا بلاغيا امتزجت فيه الفكرة العلمية بالروح الأدبية، وجمع فيه ثلاثمائة وواحدًا وستين حديثًا نبويًا من أوابده وجوامع كلمه عليه السلام، وبين ما فيها من الألوان البلاغية البديعة، وأسرار اللغة اللطيفة، ونبه إلى السر البلاغي في إيثار التعبير بالمجاز على التعبير بالحقيقة، وذكر ما يؤديه المجاز من دلالات وفوائد في تحقيق الغرض المقصود من استخدامه، وبذلك جاءت دراسته تجلية لجانب مهم من جوانب دراسة البيان النبوي في البحث البلاغي.

وقد ذكر في مقدمة كتابه السبب الذي دفعه إلى تأليفه، وهو رغبة الناس إليه في تأليف كتاب يتحدث فيه عن دقائق التعبير في الحديث الشريف، يكون على غرار كتابيه السابقين " حقائق التنزيل ودقائق التأويل "، و " تلخيص البيان عن مجازات القرآن "، يقول:

" فإني عرفت ما شافهتني من استحسانك الخبيئة التي أطلعتها ، والدفينة التي أثرتها من كتابي الموسوم (بتلخيص البيان عن مجازات القرآن) وإني سلكت من ذلك حجة لم تسلك ، وطرقت بابًا لم يطرق ، وما رغبت فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ، إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ولمع البيان الغريبة ، وأسرار اللغة اللطيفة ،يعظم النفع باستنباط معادنها واستخراج كوامنها وإطلاعها من أكمتها وأكنانها ، وتجريدها من خللها وأجفانها " .(٢٠)

ويدل محتوى الكتاب على براعة مؤلفه في الكشف عن الأسرار البلاغية في أحاديث الرسول ﷺ ، وأنه يتمتع بعلم واسع ، وذوق رفيع ، وبصيرة نافذة ، وذكاء متوقد ، وقدرة بارعة في سبر أغوار البيان النبوي ، إذ لم يكتف – كما يقول محمود مصطفى – بإيراد هذه الآثار سردًا لا تعقيب معه ، بل إنه جلا محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها ، ولقد جاء هذا الشرح فائدة كبرى للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال متنقلًا من تحقيق لغوي، إلى تطبيق على علم البلاغة ، إلى سياق الشاهد من كلام العرب .

وأما ما يجنيه القارئ من الحذق والتوسع في الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة في نظر البليغ ، فذلك ما يتجلى في هذا الشرح ، وأجدى ما يجديه المؤلف على الناظر في كتابه ، فإنه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها وتفضيل الفاضل منها ، والحكم على راجحها ومرجوحها ، ويخرج من كل ذلك بملكة صناع هي عدة الأديب في ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه .(٢١)

ونذكر مثالًا من دراسته ؛ لنقف على ملامح منهجه الذي سار عليه في دراسته للمجاز ، يقول الشريف : " وقوله ﷺ – في كلام – " **ولا تسلط عليهم عدوًّا من**

سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم " . وهذه استعارة والمراد بالبيضة هاهنا مجتمع أمته ﷺ وموضع سلطانهم ، ومستقر دعوتهم ، وشبه ذلك بالبيضة لاجتماعها ، وتلاحق أجزائها ، واستناد ظاهرها إلى باطنها ، وامتناع باطنها بظاهرها .

وقد يجوز أن يكون المراد بالبيضة هاهنا المغفر الذي هو من أداة الحرب ، فكأنه ﷺ شبه مكان اجتماعهم ، ومظنة اتفاقهم والتئامهم ببيضة الحديد التي تحصن الدارع ، وترد القوارع ، وكان شيخنا أبو الفتح النحوي رحمه الله يقول : قولهم فيها الجماء الغفير ، يريدون به البيضة التي هي المغفر ، وسموها جماء لملاستها ، كأنهم بهذا الكلام يصفون قومًا بالقوة والاجتماع والكثرة والاحتشاد ، فشبهوا قوتهم بالحديد الذي هو النهاية في الشدة ، وشبهوا كثرتهم في أن بعضهم ليستر بعضًا بالمغفر الذي هو غطاء لما تحته من شعر " . (٢٢)

وننتقل إلى أبي هلال العسكري (ت ٣٥٩ هـ) ، لنرى مظاهر عنايته البلاغية بالبيان النبوي في كتابه " الصناعتين " ، فعرض بالبسط والتوضيح والاستشهاد لطائفة من الأحاديث النبوية في الإيجاز ، والاستعارة ، والازدواج ، والمطابقة ، والتجنيس ، والإرداف ، والتوابع ، والمماثلة .

وقد تناول في كتابه نحو أربعين نصًا نبويًا ما بين حديث ، وخطبة ، ورسالة ، وذلك في معرض حديثه عن خصائص الكلام الفصيح ، حيث يقول :" وشهدت قومًا يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحًا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة ، كقول النبي ﷺ : " **إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ؛ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ ؛ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى** " . (٢٣)

ومن شواهده على التجنيس من البيان النبوي ما ساقه من قوله ﷺ :" **عُصَيَّةُ، عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا** " وثمة شواهد أخرى

كثيرة من فنون البلاغة النبوية تناولها أبو هلال العسكري بالتوضيح والتحليل في كتابه "الصناعتين" .

وهناك عناية بلاغية بالأدب النبوي من العالم الفذ عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، إذ تناول الحديث الشريف للاستشهاد والتمثيل والموازنة ، مبينًا أثره في البيان والأدب ، وإن كانت جهوده في ميدان بلاغة الحديث لم تبرز الخصائص الفنية العامة التي يتميز بها النص الحديثي.

ومن مظاهر تلك العناية البلاغية بأدب الرسول ، شواهده على السجع من قول النبي ﷺ: " لا تزالُ أُمَّتِي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مَغْنَمًا، والصدقةَ مَغْرَمًا " ، وقوله ﷺ :" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ** " .

يقول عبد القاهر : " فأنت لا ترى في هذا القول من كلام النبي ﷺ وما جرى مجراه لفظًا اجتلب من أجل السجع ، وترك ماهو أحق بالمعنى منه ، وأبر به ، وأهدى إلى مذهبه". [٢٤]

ومما أورده في تعرضه لبعض الأحاديث من الوجهة البيانية قوله :" ومثال الأصل الثاني ، وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ، ثم وجه الشبه عقلي قول النبي ﷺ : " **إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ** " .

الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى ، وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك. ولا ما يسمى طبعًا كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ، ولا شيء من هذا النبات بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء ، وبين تلك النابتة

على الدمنة ، وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الأصل ". (٢٥)

وذكر الحديث مرة أخرى في قيمة التشبيه وتأثيره في قوة المعنى ، فيقول : " ... وكذا قوله ﷺ : " **إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ** " معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين ، ولكن الشبه الحاصل عن مجموعهما ، وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل... " (٢٦)

ومن بين تلك الجهود ما قام به ابن الأثير (ت ٦٣٨ هـ) من عناية فائقة بالأدب النبوي ، فقد كان من أكثر البلاغيين القدامى اهتمامًا بأحاديث الرسول ﷺ في كتابه " المثل السائر " وهو اهتمام ينبئ عن تقديره وإكباره لها ، بحيث لا يكاد فصل من فصوله يخلو من استشهاد نبوي يقرن بالاستشهاد بكتاب الله ، وقد دل في اختياره هذا على سعة التتبع، وسلامة الطبع ، وحسن الاهتداء إلى المراد من المعاني الدقيقة في أحاديثه عليه السلام. (٢٧)

وقد أفاض ابن الأثير في الاستشهاد والتمثيل بأحاديث الرسول في أبواب الإيجاز والتشبيه والكناية والسجع ، فكان من أكثر المتقدمين تمثيلًا واقتباسًا من البيان النبوي ، وتبدو هذه العناية والاهتمام بالسنة في قوله :" وكنت جرَّدت من الأخبار النبوية كتابًا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال ، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على خاطري وناظري ما يزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظًا لا يشذ عني منه شيء " . (٢٨)

وأشار ابن الأثير إلى أهمية الاقتباس من البيان النبوي ومحاكاته في رفع مستوى الكتابة الأدبية لدى الكتاب ، وأورد أمثلة كثيرة من إنشائه اقتبسها من

الأدب النبوي ، ولكنه لم يدع – في الوقت نفسه – إلى أن تكون الكتابة قائمة على مجرد الاقتباس الذي يؤدي إلى تضاؤل وتواري شخصية الكاتب الأدبية ، بل نراه يرسم الطريق لكيفية الاقتباس وتوظيفه في الكتابة .

وقد احتاط في هذا الأمر أشد الاحتياط وذلك في قوله : " ولا أريد بهذه الطريقة أن يكون الكاتب مرتبطًا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية، والشعر ، بحيث إنه لا ينشئ كتابًا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش عن دفائنه ، وقلبه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية". (٢٩)

ومن نماذج دراسته للأحاديث في كتابه من الوجهة البلاغية ، قوله :" ... أما ما يأتي على الحكم المجاز فقوله ﷺ يوم حنين : " **الآن حمي الوطيس** " وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ .ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا : (استعرت الحرب) لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه " **حمي الوطيس** ". والفرق بينهما أن الوطيس هو التنُّور ، وهو موطن الوقود ومجتمع النَّار ، وذلك يخيِّل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميّها وتوقدها ، وهذا لا يوجد في قولنا (استعرت الحرب) أو ما جرى مجراه". (٣٠)

كما اهتم الزمخشري صاحب البيان الرفيع بوجوه البلاغة النبوية في أثناء شرحه لغريب الحديث في كتابه " الفائق في غريب الحديث " ، إذ بين فيه ألوانًا من التشبيه والاستعارة والكناية ، والمجاز وألوانًا من البديع ، ومما ذكره في مقدمة كتابه قوله : "ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مخضه ، وألقى زبدته

على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرِّجْل ، وما من مصقع يناهزه ، إلا رجع فارغ السَّجْل ، وما قُرِن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهم ، ولا وقع في كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوَضَحَ في نُقْبِة الأَدْهَم . " [٣١]

ومن المؤلفات التي اهتمت بإبراز شواهد البلاغة النبوية في الحديث الشريف من شروح الحديث وتفسيره كتاب " عمدة القاري " للإمام بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ) ، وهو يقع في عشرين مجلدًا ، ويعد من أكثر الكتب التي تخصصت في شرح الحديث وتفسيره ، وفيه عني أيضًا بجوانب اللغة والإعراب ، وبيان المعاني والبيان ، وهو ما عده من مكونات كلام العرب ، يقول : " ... أما أقواله فهو الكلام العربي ، فمن لم يعرف الكلام العربي بجهاته فهو بمعزل عن هذا العلم ، وهي كونه حقيقةً ومجازًا وكنايةً وصريحًا وعامًّا وخاصًّا ومطلقًا ومقيدًا ومحذوفًا ومضمرًا ومنطوقًا ومفهومًا واقتضاءً وإشارةً وعبارةً ودلالةً وتنبيهًا وإيماءً ونحو ذلك ، مع كونه على قانون العربية الذي بينه النحاة بتفاصيله ، وعلى قواعد استعمال العرب وهو المعبر عنه بعلم اللغة " . [٣٢]

ومن تلك الجهود أيضًا ما نجده من عناية كبيرة في إثراء الدرس البلاغي إلى جانب ما قامت به أساساً في شرح الحديث وتوثيقه سندًا ومتنًا ، كالذي نلحظه في كتاب " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " للعسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) الذي وضح فيه طريقته في دراسة أحاديث البخاري من حيث تناول الحديث ومناسبته ، وضبط ما يشكل من ألفاظه ، مع إيضاح معاني الألفاظ اللغوية ، والمعنى الإجمالي ، وبيان ملامحه البلاغية .

ومن النماذج التي أوردها في كتابه عن حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ

قال :" **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حلاوة الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله وَمَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْه** ".

قال ابن حجر : قوله ﷺ " **حلاوة الْإِيمَانِ** " فيه استعارة تخييلية ، شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو وأثبت له لازم ذلك الشيء ، وأضافه إليه . وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح ؛ لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرًّا ، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه ، وكلما نقصت الصحة شيئًا ما نقص ذوقه بقدر ذلك ، فكانت هذه الاستعارة من أوضح ما يقوي استدلال المصنف على الزيادة والنقص " . [٣٣]

الدراسات البلاغية المعاصرة في الحديث النبوي :

لم تتوقف دراسة البلاغة في الحديث النبوي في عصرنا الحاضر ، بل ظفرت بجهود علمية كانت امتدادًا لجهود العلماء السابقين ، غير أن هذه الدراسات والبحوث لم تكن لتغطي هذا الميدان الثري بالأسرار الجمالية للأدب النبوي الذي لا يعلو عليه إلا كتاب الله ﷻ بلاغة وفصاحة وأسلوبًا ، ومن ثم لم تحظ دراسة البيان النبوي بالجهود التي تستحقها من الباحثين المعاصرين بالقياس إلى جهودهم العلمية التي قاموا بها في مجال السيرة النبوية وعلوم الحديث .

ولا شك أن البيان النبوي يمثل المعجزة النبوية الأولى لصاحب الدعوة عليه السلام ، إذ تسنم دورًا رائدًا في سبيل نجاح الدعوة وانتشارها ، الأمر الذي كان يجب أن يحفز علماء البلاغة والباحثين ؛ ليسارعوا إلى القيام بدراسات وبحوث بلاغية متخصصة ومعمقة في الأدب النبوي ، بحيث لا تقل كمًّا وكيفًا عما كتبه مؤرخو السيرة النبوية من مجلدات في عصرنا الحاضر .

وعلى الرغم من هذا فهناك دراسات معاصرة نهضت بالبحث في جوانب البلاغة في الحديث النبوي ، وجاءت – على قلتها – في بحوث متخصصة مستقلة ، حاولت أن تدرس الخصائص الفنية والألوان البيانية في الحديث النبوي ، بيد أنها لم تصل إلى ما كتب في البلاغة في القرآن الكريم من حيث التنوع والشمول .

أما أهم المؤلفات البلاغية للنص النبوي ، فمنها : " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " للرافعي الذي تناول في سبعين صفحة منه عوامل بلاغة الرسول وفصاحته عليه السلام ، وتأثيره في اللغة العربية ، ثم كتابه " وحي القلم " وفيه كتب فصلا تحليليًّا عن الأدب النبوي ، وإلى جانب ذلك هناك كتاب "وحي الرسالة " للزيات ، و " عبقرية محمد " للعقاد ، وفيه فصل بعنوان " البليغ " .

ومن الدراسات البلاغية المتخصصة " الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية " للدكتور عز الدين السيد ، وهو من الدراسات الرائدة في هذا المجال ، و " التصوير الفني في الحديث النبوي " للدكتور محمد الصباغ ، و" البيان النبوي " للدكتور محمد رجب البيومي ، و " أضواء على البلاغة النبوية " للدكتور إبراهيم الجعلي ، و " الخصائص الفنية في الأدب النبوي " للدكتور محمد بن سعد الديل ، و " الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف " للدكتور أحمد ياسوف ، وهو من الدراسات المعمقة المتفردة ، و " أساليب القصر في أحاديث الصحيحين ودلالاتها البلاغية " للدكتور عامر الثبيتي ، وغيرها من دراسات بلاغية.

وعلى الرغم مما نهض به هؤلاء الباحثون المعاصرون من جهود طيبة في مجال الدراسات البلاغية للأدب النبوي ، فإن ثمة جوانب عديدة مازالت بكرًا في هذا الميدان الخصيب تنتظر من يميط اللثام عن مكنوناتها وأسرارها الجمالية ، ويكشف عن الخصائص الفنية التي امتاز بها ذلك اللون البياني الرفيع ، وذلك من خلال

دراسات علمية متخصصة ، تركـز في تناولها عـلى الجوانـب التطبيقيـة التحليليـة للبلاغة في الحديث النبوي؛ حتى تؤتي ثمارها الحقة من هذا المنهل العذب الـصافي ، الذي قال عنه شوقي :

فما عرف البلاغة ذو بيان   إذا لم يتخذك له كتابا

الهوامـش :

١. الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ط١ ، مؤسسة المختار ، القاهرة ٢٠٠٣م ص٢١٩.

٢. السابق ص ٢٨٦.

٣. القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٣م ١١/ ٤.

٤. العقاد : عبقرية محمد ، دار نهضة مصر ، القاهرة (د.ت) ص١٠٠.

٥. السابق ص٢٩.

٦. السابق ص٩٥.

٧. الجاحظ : البيان والتبيين ، ط٥، تحقيق : عبد السلام هارون ، الخانجي ،القاهرة ١٩٨٥م ٣/ ٢٥.

٨. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٨٥.

٩. أحمد حسن الزيات : وحي الرسالة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٥م ٣/ ٨١.

١٠. ابن الأثير : النهاية في الغريب والأثر ، ط١ ، تحقيق : طه أحمد الزاوي ، ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٣م ١/ ٤.

١١. ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٩م ٥/ ٢٠.

١٢. البيان والتبيين ٣/ ١٥.

١٣. الخطابي : غريب الحديث ، تحقيق : عبد الكريم الغرباوي ، مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٩٨٥ص٦٤.

١٤. الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ، ط١ ، تحقيق : محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٥م ١/ ١١.

١٥. ينظر : د. محمد رجب البيومي : البيان النبوي ، دار الوفاء ، القاهرة ٢٠٠٢م ص٧٣:٧٤.

١٦. ينظر : الباقلاني : إعجاز القرآن ،ط٥ ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٧م ص ١٨٨:١٨٩..

١٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٧٩.

١٨. السابق ص٢٨٤.

١٩. ينظر : البيان والتبيين ٣/ ٣٣٢ .

٢٠. الشريف الرضي : المجازات النبوية : تحقيق : محمود مصطفى ، البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٧م ص ١٩ .

٢١. السابق ص٥ .

٢٢. السابق ص١٦٨:١٦٩ .

٢٣. أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ط١ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢م ص ١٤ .

٢٤. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ط١، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٩١م ص ٨ .

٢٥. السابق ص٥١ .

٢٦. السابق ص٢٣٨ .

٢٧. ينظر : البيان النبوي ص٣٣٧ .

٢٨. ابن الأثير : المثل السائر ، ط١، تحقيق : أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م ١/ ١٩١ .

٢٩. السابق ١/ ٧٨ .

٣٠. السابق ١/ ٩٣.

٣١. الفائق في غريب الحديث ١/ ١١ .

٣٢. البدر العيني : عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) ١/ ١١ .

٣٣. فتح الباري ١/ ٥٦ .

الفصل الثاني

الخصائص الأسلوبية للحديث النبوي

- مدخل.
- الإيجاز والدقة (جوامع الكلم).
- سهولة اللفظ ووضوح الدلالة.
- التكرار الأسلوبي.

مدخل :

جاء البيان النبوي آية في الفصاحة والبلاغة ، وقمة في الإبداع والبيان ، إذ إنه أبلغ قول صدر عن بشر من رسول بليغ يتصل سموه الروحي بالملأ الأعلى ، فأفاض بتأييده وتوفيقه ذلك البيان على عقله وقلبه ولسانه عليه السلام ؛ فجاء تاليًا لإعجاز القرآن الكريم ، وساميًا على كلام البشر من أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان .

وقد امتاز هذا البيان النبوي بخصائص وسمات أسلوبية ذات أشكال شتى ، وألوان متعددة في البناء التعبيري ، وتجلى فيها الثراء الإبداعي الذي تميز بالتفرد والخصوصية في التناسق والجمال والجلال ، وفي الألفاظ القوية المعبرة عن المضمون ، وما يفيض من دلالاته المتنوعة في وضوح لا لبس فيه ، ولا غموض ، وفي جدة أفكاره وعمقها ، مع انسجامها وتسلسلها ، إلى جانب ما فيه من دقة وصف ، وروعة تصوير ، وفي إبداعه الموسيقي الأخاذ ، فضلا عن إيجازه المحكم ، وبعده عن التكلف والتصنع والإغراب .

وهو في كل هذا يتوجه إلى الغرض الذي يرمي إليه وينشده ، محققا التأثير الحي الخلّاق والمطلوب في جمهور المتلقين ، وهنا تتناغم الرسالة بطرفيها : المرسِل والمستقبل .

أما الخصائص الأسلوبية للنص الحديثي التي تمثل الصورة التطبيقية للبيان النبوي بسمو بلاغته ، وروعة تعبيره ، وعمق معانيه ، فمن أبرزها :

الإيجاز والدقة (جوامع الكلم) :

الإيجاز في البلاغة العربية من أدق موضوعاتها مسلكًا ، وأعلاها مرتبة ، وأدعاها لإعمال الفكر والروية ؛ ولذا يقال : البلاغة الإيجاز ، ويقصد بالإيجاز : أداء المعنى المراد من الكلام بأقل الألفاظ ، مع تحقيق الفائدة ، أو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، وذلك يخضع لطبيعة المواقف ، وضروراتها ، ومتطلباتها ، ومن يوجه إليه الحديث فيها (المستقبل).

ويعد الإيجاز من أبرز خصائص البيان النبوي ، حيث أوتي عليه السلام الكلم الجوامع للمعاني ، فبلغ في ذلك الكمال في البيان البشري ، إذ قل كلامه ، وخرج قصدًا في ألفاظه ، محيطًا بمعانيه ،فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاهُ " .

فلم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ من اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه وإبانته، وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف ، فكان عليه السلام في ذلك متفردًا دون الفصحاء والبلغاء من العرب .

ولعل تعبير الإيجاز والدقة ، أو ما يسمى " جوامع الكلم " كما جاء في وصف هند ابن أبي هالة لمنطقه عليه السلام " ويتكلم بجوامع الكلم فضلًا لا فضول فيه ولا تقصير " ، وهو ما جعل العقاد يرى أن جوامع الكلم تعني أن الإبلاغ كان أقوى في كلام النبي ﷺ ، حيث تمثل في اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات ، ولذلك يذهب العقاد إلى أن الأسلوب النبوي هو أسلوب عصري ، لأنه أسلوب الفطرة المستقيمة والسجية العفوية التي توجد في كل زمان ومكان ، وهو أسلوب عصري يقتدي به المعاصرون في زمننا هذا وكل زمان . [1]

وقد فطن الزيات إلى روعة هذا الإيجاز في البيان النبوي ، فقال : " والإيجاز هو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ؛ لأن الإيجاز قوة في التعبير ، وامتلاء في اللفظ ، وشدة في التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل ، وقوة الروح ، وقوة الشعور ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه ". (٢)

وهناك روايات كثيرة عنه ﷺ تدعو إلى الإيجاز في القول ، وتحث على اتباع سبيل ذلك عموما ، ومنها أنه ﷺ سمع رجلا يدعو لآخر بقوله :" كفاك الله ما أهمك " فقال ﷺ : " هذه بلاغة " إلى غير ذلك من روايات تدلل على أنه ﷺ يؤثر الإيجاز والقصد في القول ، وهو ما امتازت به بلاغته عليه السلام حتى كأن الكلام -كما يقول الرافعي - لا يعدو فيها [أي بلاغة] حركة النفس ، وكأن الجملة تخلق في منطقه ﷺ خلقًا سويًّا ، وهذا ناشئ عن إلهام من الله لرسوله .(٣)

فلا جدال أن يختصه ربه بأروع بيان وأنصعه ، إذ إنه صاحب دعوة إنسانية تقوم على الإبلاغ ، فمن الضروري أن تتميز بالوضوح والإيجاز الدقيق ، والبعد عن التكلف والغموض والتعقيد ، كي لا يكون هناك خلل أو نقل للقول على غير ما يراد ، حتى لا يختلف الناس في فهمه ؛ ومن هنا كان الرسول ﷺ حسن الترتيل ، سهل العبارة ، لا يتكلم في غير حاجة ، فجاء بيانه من جوامع الكلم .

من أجل هذا كله كان يكره عليه السلام الإطالة في الكلام بما يجاوز مقدار القصد به، حيث روي أن رجلا تكلم عنده فأطال ، فقال له النبي ﷺ : **كم دون لسانك من حجاب ؟** فقال : شفتاي وأسناني ، فقال ﷺ : **إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ الِانْبِعَاقَ فِي الْكَلَامِ ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ** . والانبعاق أي **التَّوَسُّعَ فِيهِ وَالتَّكَثُّرَ مِنْهُ**.

وقد روي عنه ﷺ أنه كان يكره الثرثرة ويحاربها ، إذ يراها مضرة للبلاغة في

القول ، حيث قال في حديثه : " **إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُون** " .

أما في مجال التطبيق على جوامع الكلم فثمة كثير من الأمثلة والنماذج التي يزخر بها البيان النبوي ، وتتجلى فيها سمة الإيجاز ، وهذه الخصيصة دعت الباحثين إلى الوقوف طويلا أمام بلاغتها العالية ، ودلالاتها التركيبية العميقة ، مما يدعو إلى دراستها دراسة عميقة مستقلة ، لسبر أغوارها ، واستكناه جمالها .

ومن أمثلة الأحاديث النبوية الموجزة ، قوله ﷺ :" **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**" رواه البخاري .

ومعنى الحديث – كما ذكر ابن الأثير – أنك إذا لم تستح من العيب ، ولم تخش العار بما تفعله ، فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنًا كان أو قبيحًا .

ولفظ الحديث – حينئذ – أمر معناه التوبيخ والتهديد لمن لا يترك ما نهى الله عنه لا إباحة أن يصنع ما شاء . وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء . فإذا انخلع منه كان كله كالمأمور بارتكاب كل ضلالة ، وتعاطي كل سيئة . (٤)

وجاء البيان النبوي في الحديث من جوامع الكلم ، إذ احتوت ألفاظه القليلة على معانٍ كثيرة وغاياتٍ عديدة ، وهو ما يعد من أهم أسس البلاغة ، حيث عرض الحديث الفكرة التي تحوي كثيرًا من المبادئ والمعاني الإنسانية من خلال قالب أسلوب الشرط الذي يقوم على إحكام النص ودقته ، لما يختص به من تعلق المقدمة بالنتيجة ؛ وما يمثله من عناصر الحبك الدلالي في النص ، كما جاءت "الفاء" رابطًا لفظيًا يدعم التماسك النصي ، ويقوي السبك والالتحام بين عناصره .

كما تعاضد الضمير مع أسلوب الشرط في تحقيق الترابط النصي ، حيث يعد الضمير المخاطب العائد إلى الإنسان ، هو المحور الرابط في النص ، ويتمثل في الألفاظ : (تستح) و(اصنع) و(شئت) ، وهو يمثل إحالة على ما هو خارج اللغة : أي إحالة عنصر لغوي إحالي ، وهو هنا ضمير المخاطب على عنصر إشاري غير لغوي ، موجود في المقام الخارجي ، وهو الإنسان ، حيث يرتبط فهم مرجعية الضمير أو العنصر الإحالي بتحديد العنصر الإشاري غير اللغوي الذي يعود إليه في الخارج .

فالمستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي ، ويفعل الخير ، فالحياء كله خير ؛ لأنه من الإيمان ، وأنه من ضاع حياؤه ، فقد ضاع إيمانه ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وترغب في أن تفعل ما تهواه ، حتى لو كان مخالفًا للدين والمبادئ والأخلاق الإنسانية ، بيد أن حياء الإنسان هو الذي يمنعها من فعل المحرمات والمعاصي التي تؤثر تأثيرًا سيئًا على حياة الناس.

ومن ثم يبين لنا الحديث الشريف في كلماته الجامعة الموجزة الدقيقة أهمية الحياء في مواجهة النفس ، وفي حياة الفرد والمجتمع ، كما يدل على مدى حرص الرسول ﷺ أن يرسم لأمته الطريق القويم والأمثل الذي يجب أن تسلكه في كافة أعمالها ، وكان ﷺ في ذلك المثل والنموذج ، إذ روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : " كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ الشَّيْءَ رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ كَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ " . رواه البخاري (من العذراء في خدرها : أي من البكر حال اختلائها بزوجها الذي لم تعرفه من قبل) .

ومن أمثلة الإيجاز أيضا ، قوله ﷺ :" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

إن هذا الحديث الشريف بعباراته الجامعة الموجزة ، وشمول معناه ، وعمق أثره لمن جوامع الكلم ، ومن الحكمة النبوية الصادقة ، إذ يبين فيه الرسول ﷺ دعامة رئيسة من دعائم الإيمان التي يجب أن يطبقها الإنسان في واقع حياته العملية ، وهو الحرص على الأخوة الإنسانية الحانية وتأكيدها .

إذ يجب على الإنسان المؤمن الذي يتصف بالإيمان الحقيقي أن يحب لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه من خير الدين والدنيا ، وشرف الأولى والآخرة ، ويشاركه في ذلك ، ويدعو إليه، كما يبغض - في الوقت ذاته - لأخيه ، ما يبغض لنفسه من الشر ، وينهاه عنه .

وبذلك يثمر الإيمان الحقيقي محبة الآخرين ، ومحبة الخير لهم ، وكره الشر لهم ، ومن ثم ينتقل الإنسان بإيمانه القوي من دائرة الخصوصية والأثرة إلى دائرة العموم والإيثار ؛ فيحيا في مجتمعه حياة ملؤها المحبة والتعاون مع الناس كافة ، وذلك هو الرقي الخلقي ، والسلوك الحضاري ، والتطبيق العملي للإيمان الذي يدعو إليه ديننا الحنيف عبر القرون والأزمان .

وهكذا يبدو جليًّا في الحديث حرص الرسول ﷺ في حث أمته على التزام الخصال الحميدة ، والسلوك القويم ، والرقي الخلقي قولًا وعملًا ، وترك الخصال المذمومة ، والتنفير منها ، تلك الخصال التي تقدح في إنسانية الإنسان ، وتنال من كرامته ، ويأتي ذلك كله في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومثل الضمير أهمية بالغة في تماسك النص وانسجامه ، ويتمثل الضمير الغائب المستتر في الفعل المكرر مرتين : (يحب) ، والغائب المتصل في (أخيه) و (نفسه) ، حيث يتميز الضمير الغائب بالغياب عن الدائرة الخطابية ، والقدرة على إسناد أشياء معينة في تحقيق نصية النص ، ببناء شبكة العلاقات التي تربط بين أجزاء النص ربطًا محكمًا يتحد فيه البناء .

كما قامت الإحالة التكرارية بدورها في ترابط النص ، حتى تكررت جملة (يحب) مرتين ، وقد حقق هذا التكرار إضافة إلى الترابط النصي ، التأكيد والحسم في الموقف بالدعوة إلى محبة الآخرين ، وبذلك يزيد التكرار من تماسك النص ، بتكرار وحدة من وحدات بنائه بإعادتها ثانيًا ؛ لتأكيد دلالتها .

وكذلك من وسائل الترابط الدلالية في النص الربط المنطقي بين السبب والنتيجة ، وهي علاقة دلالية جمعت أطراف النص على أساس من السببية لوجود علة بين هذين الطرفين ، لإفادة التماسك بينهما ، حيث ربط الإيمان الحقيقي بمحبة الإنسان لأخيه ، وبذلك جاء الربط بين عنصري الحديث ربطًا منطقيًّا معتمدًا على ملفوظ يجمعهما هو "حتى" ، بهدف تقديم الدعم الدلالي للبنية العليا للنص ، إذ تعطي معقولية لكيفية تتابع قضية النص وفكرته الأساسية ، وتسمها بسمة المنطقية .

وبذلك جاء الحديث الشريف غاية في البيان والبلاغة ، وتجلى فيه على أروع ما يكون جمال التعبير ، وحسن النسق الموسيقي ، وقلة الألفاظ ودقتها مع شمولها لكافة علاقات الإنسان مع ربه ، ومع نفسه ، ومع الناس ، وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء) .

وهناك نماذج من أحاديثه ﷺ الموجزة الجامعة لكثير من المعاني الجليلة ، وقد أكثر العلماء من الاستشهاد بها ، ومنها :

- " قُلْ آمَنْتُ بِالله ، ثُمَّ اسْتَقِمْ "
- " دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ" .
- " إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" .

- " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاق" .
- " إِنَّ الجُنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ " .
- " اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" .
- " العلماء ورثة الأنبياء " .
- " الإحسان أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ" .
- " إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا " .
- " حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ" .
- " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ" .
- " الدِّينَ النَّصِيحَةُ " . قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : " للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ " .
- " الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ" .

وعلى هذا النحو من صاحب اللسان المبين ، والمنطق المستقيم ، والحكمة البالغة ، والكلمة الصادقة ، جاء إيجازه البلاغي في الأحاديث الشريفة بألفاظه القليلة ودلالاتها العميقة والدقيقة والشاملة ، ومن أولى منه ﷺ بالبلاغة والفصاحة ، وأحق بالإيجاز ، وقد أوتي جوامع الكلم ؟

سهولة اللفظ ووضوح الدلالة :

يتميز البيان النبوي بعبارات متوازنة موجزة سهلة واضحة بعيدة عن الغموض ، خالية من التعقيد ، بريئة من المبالغة ، تؤدي المعاني أداء كاملًا وصادقًا في الدلالة، ولا تخرج عن مقتضى المضمون ، دون لغو ولا فضول ، ويختار عليه السلام لكل غرض وحكم ، أسلوبًا معينًا يلائم فيه حال المخاطب سواء كان من العامة أو الخاصة ، فالمهمة الرئيسة للرسالة المحمدية هي الإبلاغ والتبليغ ، والنفاذ والتعمق في القلوب ، والاستحواذ على شغافها .

وكانت البلاغة النبوية نموذجًا لأساليب البلاغة العربية قوة ووضوحًا وصدقًا، وبعداً عن التكلف والإغراب ، حيث كان ﷺ يكره التقعر والإغراب ، ويؤثر الوضوح والسهولة في التعبير ؛ مما يدل على حرصه عليه السلام على أن يتكلم بالكلام الواضح لسامعيه ، وهذا هو الطابع العام للأحاديث النبوية الشريفة.

وقد بين العقاد أهمية خصيصة الوضوح في نشر رسالة محمد ﷺ التي كانت سمتها الغالبة الإبلاغ ، كما كان عليه السلام أشد حرصًا على أن يتكلم بالكلام الواضح لسامعيه ، يقول :" إن محمدًا العربي الناشئ في بني سعد ، العالم بلهجات القبائل لم يكن في كلامه غريب يجهله سامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ؛ لأنه يريد إبلاغ رسالته مباشرة دون حاجز لفظي أو معنوي ... ويروى عنه ﷺ أنه كان يعيد الكلام ثلاثا ، ليقطع الشك أو يزيل الغموض " . (٥)

وتمثل خصيصة السهولة والوضوح سمة عامة تتميز بها أساليب الأحاديث النبوية التي تخاطب العامة والخاصة ، وشاهدًا من الشواهد المطردة والظاهرة التي تناول فيها الرسول ﷺ الموضوعات ، وعرضها بأيسر الطرق وأوضحها ؛ لتناسب حال المتلقين .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ** " . رواه مسلم.

وجاءت معاني الحديث ودلالاته واضحة جلية من خلال الألفاظ والتراكيب السهلة التي لم تتجاوز أسلوب الحقيقة في الإفصاح عن المعاني السامية التي اشتمل عليها الحديث ، والخالية من الألفاظ الغريبة ، والمجردة من المجازات البلاغية .

ويتبين من الحديث أن أعمال الإنسان التي تصدر عن جوارحه تكون نابعة من نية مقدرة بها ، وموزونة بميزانها ، بحيث تكون درجة كل عمل يعمله الإنسان تكون من درجة النية الباعثة عليه ، فالناس يتفاوتون في عزائمهم ورغباتهم ومقاصدهم ، وعليه يكون لكل إنسان جزاء ما نواه .

ولذا فإن الهجرة من الناس ليست بدرجة واحدة عند الله ﷻ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، أي يقصد بها خدمة الدين ، وإعلاء كلمة رب العالمين ، من خلال تعليم كتابه وسنة رسوله ، والعمل بهما ، وإقامة سلطانهما ، فهجرته إليهما ؛ أي هذه هي الهجرة الحقة التي يستحق عليه الأجر والثواب ، وذلك هو الإنسان الذي يسلك في حياته مسلكاً سليماً ، ويتخذ لنفسه منهجًا قويًا يترسم فيه سبل الهدى وطريق الحق ؛ ومن ثم يكون قد أصاب الجادة ، وأظل نفسه بالسعادة .

أما من كانت هجرته لغرض دنيوي يبتغيه ، وليس في عمله قصد القربة إلى الله ، فليس له ثواب ، وإنما له ما نواه فحسب ؛ ومن ثم تحبب إلينا معاني الحديث الرغبة في معالي الأمور ، وتحثنا على الإخلاص في الطاعات ، وتحضنا على خدمة

الدين ، وتبين أن الأعمال ليست بمظهرها ، بل بالباعث عليها ، وله أثر كبير في انحطاطها أو علوها ، وعقابها أو ثوابها .(٦)

وسلك الرسول ﷺ في بيان تلك المعاني السامية الشريفة مسلكًا واضحًا في اختيار الألفاظ والتراكيب المعبرة والدالة ، فجاء قوله ﷺ : " **إنما الأعمال بالنيات** " أسلوب قصر وحصر يفيد توضيح المعنى المراد ، وهو أن الأعمال لا تصح ولا تقبل عند الله ﷻ إلا بالنيات ، وهذه النية قد تكون حسنة ، وهذا ما يؤجر عليه الإنسان ، وقد تكون سيئة ، و هذا مما يؤخذ عليه الإنسان ، وكأنه ﷺ بذلك يطلب من كل مسلم أن يحدد المنهج ، ويتذكر عواقب سلوكه التي تترتب على العمل الذي يرغب في ممارسته والقيام به.

ولذلك يكمن في سياق الكلام جانب تحذيري يمكن استنباطه واستخلاصه إلى جانب الحث والتنبيه ، فالزجر عن السوء والردع عن التخبط في غمرات الغي تمثيل لغرض التحذير المتضمن في السياق .(٧)

وآثر الحديث استخدام " الأعمال " لأهميتها في حياة الإنسان ، ولم يستخدم " الأفعال " ؛ لأن العمل يختلف عن الفعل ، من حيث المدة الزمنية ، فعامل الزمن ممتد في كلمة العمل ، إذ يحتاج إتقان العمل إلى مدة زمنية أطول من الفعل ، فضلا عن دلالتها على الحركة والحيوية .

كما تفيد كلمة " الأعمال " الاختصاص بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات ، وهي تشمل أقواله وأفعاله ، وما يخطر بباله ، سواء كانت حسية : كالصلاة ، والجهاد ، والحج وغيرها ، وكذلك أعمال الخير أو الشر بكافة أنواعها ، أو كانت معنوية : كالحب والبغض في الله ، والكره والحسد ، والحقد والنميمة وغيرها من أعمال معنوية.

وهذه الأعمال وغيرها تحتاج إلى النية وهي القصد والإرادة المتوجهة إلى الفعل ؛ إرضاء لله تعالى ، وامتثالاً لحكمه ، وإرضاء لرسوله ، واقتداء بسنته ؛ لأن الأصح في تحديد مراد الأعمال إنما هو ما يقوم على الاختيار المحض ، فالأعمال واقعة بالنيات ، حيث النية هي المعول الأساس في أداء الأعمال ، وبذلك يكون الإخبار عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل ، وهو سبب عمله ووجوده ، ويكون قوله ﷺ بعد ذلك : " وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى " إخبار عن حكم الشرع وهو أن حظ العامل من عمله نيته ، فإن كانت صالحة فعمله صالح ، وله أجره ، وإن كانت فاسدة فعليه وزره [٨] ، أي إن صلاح الأعمال وفسادها بحسب صلاح النية وفسادها .

ولهذا اختيرت كلمة " الأعمال" وليس (الأفعال) ، وجاء التركيب " الأعمال بالنيات " مقابلا فيه الجمع " الأعمال " بالجمع " النيات " والمراد هو أن يكون كل عمل بنيته ؛ فالنية تتعدد بتعدد الأعمال ، والباء التي في " بالنيات " للمصاحبة أو للسببية ، أي كأن النية سبب في حدوث العمل ، أو أنها جزء منه .

وجاء اختياره للفظ " امرئ " بدلا من (إنسان) ؛ لأنه مأخوذ من المروءة ، وهو الكرم ، وقد استعملها القرآن : ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور: ٢١) ، وكان تكرار " إنما " وهي من وسائل الترابط النصي التي حققت إلى جانب التماسك النصي ، تأكيد أن الجزاء من جنس العمل ، وجاءت (ما) الموصولة في " ما نوى " لتسهم في التماسك النصي ، وهي إحالة قبلية للمرء ، وتختصر العنصر المحال إليه ، كما تحفظ المحتوى مستمرًّا في المخزون الفعَّال دون الحاجة إلى التصريح به مرة أخرى ، ومن ثم تتحقق الاستمرارية في النص ، كذلك يدل هذا العنصر الإحالي على العموم والشمول ؛ أي تقع المحاسبة على الأعمال قليلها وكثيرها ، خيرها وشرها .

وهناك في النص من عناصر الحبك الدلالي علاقة السببية المتمثلة في قوله ﷺ "مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ" ، فتكون النتيجة " فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ " ، حيث جاء الشرط والجزاء متحدين ؛ ليدل على عظم الأجر والجزاء الذي لا مثيل له ، ودون تحديد له ؛ حتى تذهب فيه النفس كل مذهب ، إذ إن هذه الهجرة تمثل الغاية المثلى والغرض الأسمى الذي تتشوف إليه نفوس المؤمنين ، فهو نهاية المطلب في الدنيا والآخرة .

أما الجواب فلم يأتِ محدداً في قوله ﷺ : " **وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**" ليدل على العموم ؛ لأن أمور الدنيا لا يمكن حصرها ، وقامت الإحالة التكرارية هنا بدورها في التماسك النصي ، فضلًا عن التأكيد والحسم بالنسبة لهدف الهجرة قبولًا ورفضًا .

أما ذكر " المرأة " بعد " الدنيا " فهو من ذكر الخاص بعد العام ، ويفيد الاهتمام بالتنبيه على أن قيمة التوجه إليها قليلة ؛ فهي هجرة إلى غير نفع دائم ، وفيه تحذير من فتنة النساء ، وما يترتب عليها من ضرر شديد . (٩)

وشكلت الإحالة الضميرية معنى النص وأبرزته ، وربطت بين أجزائه ربطًا محكمًا يتحد فيه البناء شكليًّا ودلاليًّا ، وبلغ عدد الضمائر أحد عشر ضميرًا للغائب ، منها تسعة تعود إلى الجملة النواة في النص ، بوصف المحال إليه (المرء) يمثل العنصر الفاعل والمركز الرئيس في النص ، وجاء ت في الألفاظ (نوى) و(هجرته) و(فهجرته) و(هجرته) و(يصيبها) و(ينكحها) و(فهجرته) و(هاجر) و(إليه) ومنها ضميران يعودان إلى لفظ الجلالة (الله) في لفظ (رسوله) المكرر مرتين.

ومن هنا جاءت محاور الحديث وأبعاده واضحة الدلالة مع التنوع والشمول ، إلى جانب اللطافة والجدة ، إذ تناولت شؤون الدنيا والدين معا دون أن تقتصر

على جانب واحد منها ؛ مما جعل الإمام الشافعي يقول عن غزارة معاني الحديث وشمولها وتنوعها : " هذا الحديث ثلث العلم " ويدخل في سبعين بابا من أبوب الفقه. (١٠)

ومن أمثلة السهولة والوضوح أيضا ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما ، فقال : **يَا غُلامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تِجَاهَكَ ، وإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعت عَلَى أَنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَه الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**" . رواه الترمذي .

فالرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف يوجه عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – توجيهًا تربويًا ، فيه الهداية والإرشاد والنصح في قضايا كبرى من قضايا العقيدة الإسلامية ، وهما على ظهر الدابة السائرة بهما إلى غايتهما في الطريق .

وقد صاغ النبي ﷺ هذه القضايا صياغة بلاغية مختارة تجمع بين سهولة الألفاظ والتراكيب ووضوح المعاني والدلالات ، حيث الأسلوب في الحديث هو الأسلوب التربوي للأجيال الصاعدة الذي يهتم ببيان الحقائق لهم في جمل قصار يركز عليها ؛ لتتمكن من عقولهم وقلوبهم ؛ حتى ينشأوا عليها ، ويفيدوا منها ، ويعملوا بها على امتداد حياتهم ؛ مما يدل على إنسانية الرسول ﷺ وأنه قدوة للمربين في الرعاية والتوجيه ؛ فلا يترك فرصة أو مناسبة من المناسبات إلا استثمرها في التعليم والتربية في أقواله ، وأعماله ، وأخلاقه ، وتقريراته ، سواء في إقامته أو سفره.

وتجلى في الحديث الشريف حرص الرسول ﷺ على الاهتمام بتربية الشباب على الإيمان القوي بالله ، إذ يبدأ توجيهه العظيم بالدعوة إلى حفظ الله ، بأن يرعى

المخلوق حقوق الخالق عليه، فيؤدي فرائضه، وينفذ أوامره، ويترك نواهيه، بحيث يراقب الله سبحانه ويخشاه في كل عمل يعمله، أو نية ينويها، وفي كل حركة وسكنة من حركات حياته وسكناتها، فيحفظ نفسه من الوقوع في المعاصي.

فإذا فعل ذلك، فإن الله يكافئه ويلبي طلباته، ويحقق رغباته، فيحفظه ويرعاه في الدنيا والآخرة، وييسر له أموره، ويمنحه المعونة، ويقيل عثراته، ويلطف به، ويقويه على تخطي الصعاب، ويخرجه من كل كرب وضيق سواء في حياته أو في قبره بعد وفاته، أو في حسابه يوم البعث وغير ذلك من الحفظ الرباني الذي يناله في كل أحواله، وفي كافة أموره؛ بسبب حفظه لربه في أوامره ونواهيه.

ومن لوازم الإيمان ومظاهره في سلوك المؤمن أن يكرم نفسه عن سؤال غير الله، فإذا أراد مساعدة في أمر من أموره، فلا يطلبها إلا من الله وحده، ولا يسأل معه أحدا، وإذا أراد العون، فلا يستعين إلا بالله وحده، فهو خير معين له، إذ بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وفي هذا توجيه من الرسول ﷺ لعفة النفس وترفعها والإكرام لها عن سؤال الناس أو الاستعانة بهم على سبيل التفضل منهم على صاحبها، والإحسان منهم إليه؛ لأن الترفع عن سؤال الناس أو الاستعانة بهم أكرم للمرء، وأفضل له، وأكثر ثقة بالله، وتعلقا بعونه وتأييده، واللجوء إليه، والتوكل عليه، أما إذا كان السؤال أو الاستعانة على سبيل اتخاذ الوسائل والأسباب الإنسانية بكرامة النفس وعفتها، فهو مأمور به شرعًا.

ولأجل هذا يجب على المرء أن يعلم يقينا أن كل شيء في هذا الكون لا يحدث إلا بعلم الله، وبإرادته وقدرته، وأن ما يصيب الإنسان في حياته من نفع أو ضر، فهو من تقدير الله وتدبيره، ولا ينفع أحد بشيء، ولا يضر أحد بشيء لم يقضه الله وبقدره، فلو أراد الناس جميعًا أن يقدموا لك نفعًا أو أرادوا أن يضروك بشيء، فلن يستطيعوا أن يفعلوا إلا إذا كان ذلك مقدرًا عند الله بك أو عليك؛ لأنه لا

يملك أحد تغيير علم الله بما تم به قضاؤه وقدره ، وأن المعلوم المكتوب سيقع حتما بدون تغيير فيه ، ولا تبديل ؛ ابتغاء جلب نفع لأحد أو دفع ضرر عن أحد ؛ فعليك أن تأخذ بالأسباب والسعي والعمل مع الثقة في الله ، وهو يفعل ما يشاء ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وبرزت معاني الحديث الشريف في أسلوب بياني مختار من ألفاظ وتراكيب ذات قيم جمالية وتعبيرية أسهمت في تشكيل المعنى ضمن الصياغة الكلية للجملة والنص وإنتاج دلالته ؛ مما يكشف عن الإبداع البلاغي للحديث الشريف ، ومن هذه المواطن الجمالية : " يَا غُلامُ " نداء بحرف النداء " يا " للبعيد ، مع أن المنادى شديد القرب منه ، فهو يركب خلفه على الدابة ، وذلك لينبهه إلى عظم هذه المعاني التي نودي من أجلها ، فيشتد شوقه إليها ، ويلقى سمعه ، فتقع في نفسه ، وتقر بداخلها ، فيكمل نفعها .(١١)

ويزداد التشويق بقوله " إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ " أسلوب مؤكد بإن والجملة الإسمية ، وهو يدل على الاهتمام والعناية به ، وجاءت " كلمات " جمع قلة علامة على أنها قليلة في ألفاظها سهلة في حفظها ، ونكرت دلالة على عظم مضمونها ومحتواها ، فهي قليلة اللفظ ، عظيمة النفع ، جليلة القدر ؛ مما يزيد من التشويق إلى معرفتها ، والوقوف عليها.

وجاء من عناصر السبك النصي أسلوب الطلب " احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ " ؛ ليحقق الربط المعنوى بين طرفيه ، وغرضه التوجيه والنصح ، وكانت " يَحْفَظْكَ " نتيجة لكلمة " احْفَظِ " وتدل على أهمية تقوى الله ، وتقوية الصلة والعلاقة بين العبد وربه ؛ حتى يكون موضع عنايته ، وجاء الربط النصي في أسلوب الطلب أيضا في " احْفَظِ الله تَجِدْهُ تِجَاهَكَ " ، للتوجيه بتقوى الله حتى يكون قريبًا منه ومن رعايته .

وفي سبيل تأكيد الفكرة والحث عليها استخدم أسلوب الشرط ، وهو من الروابط النصية التي ترتبط فيها النتائج بالمقدمات ، عبر الشرط والجزاء المتلاحقين في الجملتين: " إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله " و " إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله " وأداته في الجملتين " إذا " وهي تدخل على متحقق الوقوع ، دلالة على أنه لا بد من السؤال والاستعانة في حياة المرء .

وجاء جواب الشرط أسلوب أمر للنصح والإرشاد ، أي على المرء أن يسأل الله وحده ، وأن يستعين به دون سواه ، وفي " سَأَلْتَ " و " اسْتَعَنْتَ " حذف يفيد العموم والشمول ، وهو من عناصر السبك النصي التي تعتمد على فهم المخاطب ، ووضوح قرائن السياق ، وذلك بقصد توجيه المخاطب إلى التركيز على الفعل ، وهو الأهم في السياق ، وعدم الانشغال بالمحذوف ؛ لكونه معلومًا .

واستخدم الحديث أسلوب الأمر " اعْلَمْ " للفت الانتباه إلى أهمية ما سيلقى ، وجاء لفظ " الأمة " ليفيد العموم والشمول ، وقد روعي في الحديث – كما يرى الدكتور بسيوني عبد الفتاح – لفظ الأمة في قوله " لَوِ اجْتَمَعت " فعاد إليها الضمير مفردًا ؛ ليؤذن بأن المراد اجتماع سائر المخلوقات من الجن والإنس والطير والدواب وسائر المخلوقات ، فالاجتماع اجتماع نفع ، وهنا نرى لغير العقلاء نصيبًا ، وقد عبر بلفظ (لو) هنا ، وهي حرف امتناع لامتناع ، إشعارًا بأن اجتماع الأمة بهذا المعنى من قبيل المحال .

أما الموضع الثاني " وإن اجتمعوا " فقد روعي في الحديث معنى الأمة ، إذ عاد الضمير إليها جمعًا ؛ لأن المراد اجتماع العقلاء من الأمة فحسب ، فالاجتماع اجتماع ضر ، وهو خاص بالعقلاء ، وليس لغيرهم فيه نصيب ، وقد عبر في هذا الموضع بأداة الشرط " إن " للإشعار بأن اجتماع الأمة بهذا المعنى أي : العقلاء من المخلوقات للضر ليس محالا وإن كان مستبعداً" .(١٢)

واعتمد الحديث على أساليب التوكيد لترسيخ معنى السياق وتقويته ، ومنها أسلوب القصر في قوله " لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك " ، وأسلوب التقابل بين المفردات في قوله : " ينفعوك ، يضروك " و " كتبه الله لك ، وكتبه الله عليك"، وهو من عناصر الحبك الدلالي في النص التي تعمل على تميز المعنى وبلورته ، وتناسبه.

وكان من العناصر المتوافرة لسبك النص وتماسكه ، الإحالة الضميرية التي ترتبط بالبناء اللغوي للمعاني الذي يحمل غرضًا رئيسًا ، وهو تقديم جمل متوازنة ومرتبطة لا انقطاع فيها ، فهي علاقة معنوية تربط بين ألفاظ معينة تعطي معناها عن طريق قصد المرسِل، وقد اشتمل النص على سبعة عشر ضميرًا للمخاطب ، وهو أعلى معدل لتوزيع الضمائر في النص ، وتعود إلى لفظ "غلام" وهو ابن عباس الذي يمثل حجر الزاوية في النص ، لارتباط الحدث به .

أما الضمائر الشخصية الرابطة الأخرى فأربعة ضمائر ما بين متكلم وغائب ، منها ضمير للمتكلم في " إني " يعود إلى ذات فاعلة منشئة للنص ، هي ذات الرسول عليه السلام ، ومنها ثلاثة ضمائر للغائب ، منها ضميران يعودان إلى "الأمة" في " اجتمعت" و"اجتمعوا" ، وضمير يعود إلى لفظ الجلالة " الله" في " كتبه " ، وبذلك تشمل الضمائر النص على امتداده ؛ لتشكل في مجموعها نسيجه؛ مما يحقق للنص تماسكه وانسجامه على المستويين الشكلي والدلالي ، هذا فضلًا عن وحدة الموضوع التي تمثل أبرز الوسائل النصية التي تحقق تماسك النص وترابط عناصره ؛ لأنها تنسج النص في نسيج واحد يجمع جمله ويربط بينها بروابط دلالية .

وهذه السهولة والوضوح التي هى سمة مميزة لأحاديث الرسول ﷺ قد جاءت - في الوقت نفسه-تحمل بين طياتها كثيرا من المعاني الجديدة ، ولا غرابة في ذلك،فهى قبس من نور الله، ومستوحاة من السماء،إذ إن كلام رسول الله - كما يذكر

الرافعي – كلما زدته فكرًا ، زادك معنى [١٣] ، فالناس في كل زمان ومكان يجدون الحديث ، كأنه قيل لهم ، إذ يعالج مشكلاتهم ويحلها ، وينير لهم جوانب الطريق في درب الحياة الطويل ... وبهذه الصفة كان الحديث النبوي أدبًا يفوق آداب الدنيا جميعًا لأنه أدب العصور . [١٤]

والأمثلة على ذلك كثيرة في الأحاديث الشريفة،وقد وقف بعض الباحثين على بعضها ، وما زال هناك الكثير الذي يحتاج إلى الكشف عنه ، ومن هذه المعاني " المساواة " وهي معنى جديد لم يألفه العرب ولا غيرهم من الأمم في ذلك الزمان ، حيث دعا الرسول ﷺ إلى مبدأ المساواة وعدم التمييز بين الناس ، وذلك في قوله : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، أَلا وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، أَلا لا فَضْلَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى ، أَلا قَدْ بَلَّغْتُ** ؟ " قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : " **لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** " . رواه الإمام أحمد.

ولا شك أن الرسول ﷺ يقرر هذا المبدأ من المساواة الإنسانية ، وهو معنى جديد بالنسبة إلى الحضارات الفكرية القديمة كالحضارة اليونانية والرومانية ، وجديد بالنسبة إلى الحضارة الحديثة كحضارة أوروبا . [١٥]

وتتعدد صور المساواة العملية في الإسلام كما في الصلاة والحج والعمرة ، وفي موضوع الحلال والحرام والعقوبات وغيرها مما يطبق على الناس كافة ، وهم فيه سواسية .

وما أكثر الأحاديث الشريفة التي تميزت أساليبها بسهولة العبارة ووضوحها، وتطرقت إلى معان جديدة تحوي اتجاهات أخلاقية واجتماعية وفكرية نبيلة الهدف عظيمة الخير ، تمزج بين العقيدة والعمل ، وتربط الأخلاق بالإيمان ، وتعمق علاقة الفرد بربه ثم بمجتمعه ، وهذه المعاني صالحة للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان .

وبذلك يتضح أن البيان النبوي جاء متميزًا بسهولة الألفاظ ووضوح الدلالة ، بعيدًا عن التكلف والتصنع ؛ مما أسهم إسهاما واضحا في مجال إبلاغ الدعوة المحمدية .

التكرار الأسلوبي :

يعد التكرار الأسلوبي مكونًا جوهريًا للخطاب النبوي ، وعنصرًا من أهم عناصره الصوتية واللغوية التي تمنح بناءه قدرًا كبيرًا من التماسك والانسجام ؛ نظرًا لكون التكرار واحدًا من أبرز آليات بناء النص على مستوى وحداته المعجمية والصوتية والدلالية والتركيبية .

ويمثل هذا الأسلوب وسيلة من وسائل الدعوة ، وطريقة من طرائق تبليغ أسسها ومبادئها ، وهو يأتي في المواضع التي تقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه ، حيث كان النبي ﷺ يستعمله في الأمور التي تهم المسلمين ، وتعظم العناية بها ، فيرى ضرورة توكيدها ، وترسيخها في الأذهان ، وهو ما أشار إليه الخطابي في قوله :" ... إنما يحتاج إلى التكرار ، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بترك التكرار وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها.(١٦)

وهذه الغاية التي يقصد إليها النبي ﷺ ، أشار إليها أنس بن مالك ﷺ عندما وصف منطق الرسول ﷺ فقال : " كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه " (١٧)، كما يذكر الخطابي العلة في إعادة الكلام ثلاثًا بقوله :" إعادة الكلام ثلاثًا إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه ، فيكرر ليفهم ، وإما أن يكون القول فيه بعض الإشكال ،فيتظاهر بالبيان ، وقال أبو الزناد : أو أراد الإبلاغ في التعليم والزجر والموعظة " (١٨) .

ومن ثم كانت بواعث الإعادة والتكرار في الحديث النبوي راجعة إلى ما تقتضيه بلاغة الخطاب التبليغي والتعليمي ، وما تستوجبه الحاجة إليه ، بحيث لا

تقف هذه الظاهرة الأسلوبية عند حدود تحقيق الغاية الجمالية الإمتاعية فحسب ، بل تتجاوزها إلى التحول بأساليب صياغتها إلى منجز سلوكي يحقق الغاية التربوية في الواقع الفعلي في حياة المسلمين .

وتتعدد أشكال التكرار ومستوياته في تشكيل الخطاب النبوي على مستوييه الصوتي والدلالي في الحديث النبوي ، بتعدد الهدف الدلالي الذي يناط به ، ويتطلبه السياق الذي يرد فيه ، وتتراوح هذه الأشكال ما بين التكرار باللفظ والمعنى ، وبين التكرار بالمعنى فقط دون اللفظ ، سواء كان هذا التكرار بسيطًا أو مركبًا .

ومن حيث التكرار باللفظ والمعنى ، وهو موطن هذه الدراسة ، فيأتي على ألوان متنوعة وثرية بإمكاناتها النغمية والدلالية ؛ لتحقيق أكبر قدر من ترابط النص وتماسكه ، وتتراوح هذه الألوان ما بين تكرار : الصوت ، واللفظ ، والعبارة، والجملة .

ومن بين هذه الصورة التكرارية بآفاقها الدلالية الجديدة ، صورة تكرار صوتين في لفظة واحدة ، حيث تؤدي الأصوات اللغوية بإمكاناتها الثرية دورًا أساسًا في بنية النص من ناحية إثراء إيقاعه ، وتكثيف معناه ، وتجليته وإظهاره ، ومن ناحية تعميق الإحساس به ، وتنبيه الذهن ، ويتضح ذلك فيما يرويه جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ، أَنّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيِّبِ أَبُو الزُّبَيْرِ ، وَهِيَ تُزَفْزِفُ ، فَقَالَ : " **مَا لَكِ تُزَفْزِفِينَ ؟** " قَالَتِ : الْحُمَّى لَا بَارَكَ الله فِيهَا ، قَالَ : " **لَا تَسُبِّي الْحُمَّى ، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ** ". رواه مسلم.

فقد جاء الفعل المضعف الرباعي " تُزَفْزِفِينَ " ليعتمد في إنتاج دلالته على

تكرار حرفين متماثلين بشكل منتظم :" الزاي والفاء" ، وهذا التكرار يأتي ليجسم بصورة حسية ملموسة رعدة الحمى ، ورعشة المصابة وارتجافها ، وتكرار الحركة والصوت من فكيها بسرعة قسرية من أسفل إلى أعلى ، فتصطك أسنانها ؛ فيسمع لها صوت شديد غير مقصود تساوي ذبذبته الحركة نفسها ، ومع التعبير بالمضارع يكون لهذه الصورة تكرارية الحدث المتلاحق الذي يدل عليه .

ومن ثم جاء التكرار هنا على ثلاثة مستويات : مستوى صوتي بفعل التردد الحرفي ، ثم مستوى دلالي قائم على نفس التردد ، ثم تكرار ثالث بفعل صيغة المضارعة التي تستلزم تجدد الحدث مرة بعد أخرى .

وهكذا تعالق الدور الإيقاعي للتكرار الصوتي في " تُزَفْزِفِينَ " مع الناتج الدلالي تعالقًا تماثل فيه جرس اللفظة مع معناها المراد تصويره ؛ مما يدل على ما يكتنف "أم السائب"من ضعف وترهل يتناسب مع إصابتها بمرض الحمى ، وبذلك يضيف هذا النمط التكراري لونًا من العمق الدلالي في المعنى الذي يبدو في صورة حسية مليئة بالألم والتوجع .

وأشار ابن جني إلى ارتباط صوت اللفظ الذي وقع في حروفه التكرار بالمعنى الذي هو أصل مادته ، سواء كان فعلًا أو صوتًا ، وذلك في حديثه عن لفظ : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والجرجرة (١٩) .

كما يتجلى أثر هذا التكرار في المعنى في إشارة كثير من اللغويين القدامى إلى أن أصل اللغة هو محاكاة أصوات الطبيعة ، ولذلك يقول ابن جني :" وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ... وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل ".(٢٠)

وقد أكدت دراسات العلماء المعاصرين هذه الظاهرة اللغوية ، وأرجعت بعض تلك الألفاظ إلى روافد طبيعية ، والأخرى إلى روابط وضعية ، ويذكر ذلك الدكتور على عبد الواحد وافي في دراسته :" ... أما الروابط الطبيعية فأساسها محاكاة الأصوات ، فكثير من الكلمات الدالة على أصوات الإنسان والحيوان والأشياء ، وبعض الكلمات الدالة على الأفعال التي يحدثها الإنسان أو غيره ، تحكي أصواتها – في صورة ما – الظواهر التي تعبر عنها ، ومن ذلك القهقهة ، والدندنة ، والنحنحة ... ، كما أن منها ما يأتي على وزن آخر ، لم يخل من تكرير الحرف : كالرنين ، والأنين ، والحنين ... ، وأما النوع الثاني وهو العلاقات الوضعية ، فيكون بالاشتقاق العام ، والاشتقاق الكبير ، والاشتقاق الأكبر "(٢١)

ومن هذا القبيل أيضًا الفعل الرباعي "يغرغر " على وزن "فعلل" الذي جاء في قوله ﷺ : " إنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ " . سنن ابن ماجة

حيث يحفل الفعل " يُغَرْغِرْ " بعمق دلالي ، نابع من تكرار حرفي الغين والراء ، فينتقل الإيقاع التكراري من الداخل إلى الخارج ، فيجسد الحدث الناتج من الصيغة الرباعية المضعفة في نمط إدراكي فريد .

ويأتي "يغرغر" الذي من معانيه تردد النفس أو الروح في صدر المُحتضر ؛ ليتلازم دوره الإيقاعي مع ناتجه الدلالي ، ليجسد حالة العبد المحتضر وهو يعاني سكرات الموت في حنجرته .

فقد أوحى جرس الكلمة بصورة الغرغرة التي يكون عليها المرء المعاني ، وهي الناتجة من تكرار الفعل يصحبه صوت تنتظم حركته ويتردد من أقصى حلقه إلى طرف لسانه من خلال الحرفين المكررين : الغين والراء ، كما أن ما يتصف به الحرفان من رخاوة يتناسب مع حالة الإنسان المحتضر وما عليه من ضعف

وخوار ومعاناة ، ومع التعبير بالمضارع يكون لهذه الصورة تكرارية الحدث الـذي لا ينقطع ، وعلى ذلك الوجه شـارك التكـرر الـصوتي في تـصوير المعنـى وتقريبـه بطريقة محسوسة .

ومنه تكـرار صـوت "الـلام" في لفظـي " يَتَخَلَّـلُ " و " تَتَخَلَّـلُ " فـيما رواه عبدالله بن عمرو ابن العاص – رضي الله عـنهما – أن رسـول الله ﷺ قـال :" "**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ**".رواه أحمد.

قال العلامة المباركفوري في "تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي":(الْبَلِيغَ) أَيْ الْمُبَالِغِ فِي فَصَاحَةِ الْكَلَامِ وَبَلَاغَتِهِ . (الَّـذِي يَتَخَلَّـلُ بِلِـسَانِهِ)أَيْ يَأْكُـلُ بِلِـسَانِهِ أَوْيُدِيرُ لِسَانَهُ حَوْلَ أَسْنَانِهِ مُبَالَغَةً فِي إِظْهَارِ بَلَاغَتِهِ وَبَيَانِهِ . "كَـمَا تَتَخَلَّـلُ الْبَقَـرَةُ" ، أَيْ: بِلِسَانِهَا كَمَا فِي رِوَايَةٍ، قَـالَ فِي النِّهَايَـةِ: أَيْ يَتَـشَدَّقُ فِي الْكَـلَامِ بِلِـسَانِهِ وَيَلُفُّـهُ كَمَا تَلُفُّ الْبَقَرَةُ الْكَلَأَ بِلِسَانِهَا لَفًّا. وَخَصَّ الْبَقَرَةَ: لِأَنَّ جَمِيعَ الْبَهَـائِمِ تَأْخُـذُ النَّبَـاتَ بِأَسْنَانِهَا وَهِيَ تَجْمَعُ بِلِـسَانِهَا ، وَأَمَّـا مَـنْ بَلَاغَتُـهُ خِلْقِيَّـةٌ فَغَـيْرُ مَبْغُـوضٍ. كَـذَا فِي السِّرَاجِ الْمُنِيرِ.

وجاء جرس الكلمة " يَتَخَلَّلُ " على وزن (يتفعّل) وهو مضعف ، وقد أعطى هذا التضعيف الفعل معنى التكثير والتكـرار والحركـة المـستمرة ، كـما أن وجـود صوت "اللام" زاد أيضًا في معنى الحركة والتكرار ، إضافة إلى ذلك فـإن التخلـل من الأمور الحسية التي يدركها المرء عن طريق الحواس ، كما أن صاحبها يحتـاج في حدوث الفعل إلى تحريك العضو وهو اللسان هنا .

وقد تكرر صوت اللام بشكل مكثف في الفعلين " يَتَخَلَّـلُ " و " تَتَخَلَّـلُ " ، إذ يتولد فعل من فعل ، في أسلوب توالدي ؛ مما وفّر جرسًا موسيقيًا أغنـى الإيقـاع الداخلي ، وأدى دورًا بارزًا بصفاته النطقية في تصوير المعنى المراد الذي تتجلى مـن

خلاله الصورة القبيحة لتشدق الرجل البليغ ، وتعمقه في الكلام ، وتفاصحه في المنطق ؛ فيملأ أشداقه بالكلمة ، ويتكلف الأداء بالمبالغة في امتلأ مخارج الحروف ، وهو في تلك الصورة الدونية يكون أشبه بالحركة البهيمية الصادرة من فعل البقرة ، وهي تلف ما أكلته من الكلأ لفًّا بلسانها ، ثم تجتره اجترارًا ، وتعيد مضغه في حركة مستمرة .

ولذلك قال ﷺ : " هلك المتنطعون "قالها ثلاثًا رواه مسلم . والتنطع : التعمق والتفاصح ، كما قال ﷺ :" **إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا الثَّرْثَارُونَ ، الْمُتَفَيْهِقُونَ ، الْمُتَشَدِّقُونَ**". رواه مسلم . والتفيهق في الكلام : التوسع فيه والتأنق .

وهكذا يستحضر التكرار الصوتي ذلك المشهد التهكمي الذي يفيض بالتنفير والتوبيخ لأولئك الذين يتخذون البيان وسيلة للتشدق والتفاصح والتفخيم في إظهار الحروف ؛ لفتًا لانتباه المتلقين ، مما يجعلهم يصلون في سلوكهم هذا المسلك المشين إلى المستوى البهيمي ؛ إذ إن السياق هنا يجعل كلمة "البليغ" مفعمة بالتهكم والسخرية ، كما أن التعبير بصيغة المضارعة يجعل المشهد يفيض بالحركة الدائمة القبيحة ، وأن تتابع التكرار في الفعل الثاني " تَتَخَلَّلُ " شكل تدفقًا ساعد على طرح الفكرة بإلحاح ووضوح شديدين ، وبذلك تحقق التلاؤم التام بين المعنى الحسي للفظ وجرسه الصوتي .

ولا شك أن اقتران التشدق بفم البقرة -كما يذكر الدكتور أحمد ياسوف- يجعل الصورة مرتكزة على جزئية قبيحة من فعل البقرة ، وتلقي ظلالها بشكل ساخر على ذاك المتشدق الذي يقترب من شكل البقرة في تلك اللحظة ، ويهبط مستواه الآدمي لتذكيره بالنهم ؛ مما يشير إلى أن التزيد في الكلام طبع حيواني

يخفي وراءه رذائل دنيوية ساقطة . (٢٢)

هذا فضلًا عن نماذج أخرى للتكرار الصوتي التي تصور مدلول اللفظة أيما تصوير من خلال جرسها : صوتًا وحركة ونغمًا ، وقد حفل بها الحديث النبوي ، ولكن لم أتناولها تفصيلًا خوفًا من الإطالة ، وآثرت إيراد نماذج دالة عليها ؛ لما لها من دور بالغ الأهمية على المستويين : الإيقاعي والدلالي في بناء النص الحديثي ، ومنها قوله ﷺ :

- **" الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ "**. رواه مسلم .
- **" بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ مُرَجِّلا جُمَّتَهُ يُعْجِبُهُ نَفْسُهُ ، إِذْ خُسِفَتْ بِهِ الأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "** رواه البخاري .

[ترجيل الجمة : تسريح ما تدلى على المنكبين . يتجلجل : يتحرك فيها ،أي : يغوص في الأرض ، حين يخسف به]

- **" أَيُّهَا النَّاسُ مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى أَنْ تَتَابَعُوا فِي الْكَذِبِ كَمَا يَتَتَابَعُ الْفَرَاشُ فِي النَّارِ كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا ثَلَاثَ خِصَالٍ رَجُلٌ كَذَبَ عَلَى امْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا أَوْ رَجُلٌ كَذَبَ فِي خَدِيعَةِ حَرْبٍ أَوْ رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ امْرَأَيْنِ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا"**(٢٢)
- **" إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ ، وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ ، سُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ"**. رواه الترمذي .

[الْمُطَيْطَاءُ مِشْيَةٌ فِيهَا اخْتِيَالٌ]

والواضح من خلال تلك النماذج أن التكرار فيها ، جاء بخواصه الإيقاعية؛ ليسهم في تصوير المعنى المراد من اللفظة ، وإظهاره بصورة محسوسة ملموسة

لدواع سياقية ، وهي نماذج تفتح الباب لمن شاء البحث والتحليل من وجهة نظر أسلوبية وفقًا للنظريات الحديثة .

وإذا كان لتكرار الصوت في اللفظة أبعاده على المستويين الصوتي والدلالي، – كما رأيناه – من ثراء الإيقاع ، وتكثيف المعنى ، وتعميق الإحساس ، فإن تكرار اللفظة والجملة في سياق النص له من القيمة ما هو أكبر وأظهر ، إذ يعد هذا المستوى من أكثر ألوان التكرار ، وأوسعها انتشارًا في الحديث النبوي ، حيث اتكأ ﷺ على هذه الوسيلة ؛ لإبراز أفكار دعوته ، وتوضيح أبعادها التي يطرحها في خطابه الإبلاغي ؛ لغايات شتى ، وفوائد متعددة ، تتنوع بتنوع السياق الذي ترد فيه .

ومن بين تلك الصور التكرارية ، صورة تكرار لفظة معينة لدلالات سياقية محددة ، يستدعيها السياق الذي يحدث فيه التكرار ، وهذا يبدو جليًا في تكرار لفظ "الله" في قوله ﷺ: " **اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي ، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا مِنْ بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ** ". رواه الترمذي .

وجاء الحديث مصدرًا بلفظ الجلالة "الله" مكررًا ، بغرض تأكيد التحذير من غضب الله بسبب النيل من أصحابه باتخاذهم غرضًا ؛ مما يدل على حرص الرسول ﷺ على إكبار أصحابه وإكرامهم ، وعدم التعرض لهم على وجه التأكيد .

وفي سبيل تأكيد الفكرة الرئيسة في الحديث وإبرازها على نحو واضح ، كرر أيضًا عددًا من الألفاظ المتشابكة على امتداد جمل النص ؛ لتقرير تكريم الصحابة ، إلى جانب استخدام المقابلة بين الجملتين :" فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ " و" وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ " ؛ لتحمل بين جوانبها معنى التأكيد في بيان تعالق

شأنهم بشأنه عليه السلام على المستويين : حبًّا وبغضًا ، وهو بذلك يبين السبب الذي من أجله حذر من التعرض لأصحابه .

ثم يرتقي البيان النبوي إلى مرحلة أعلى وأجلّ في بيان منزلة الصحابة عن طريق تصعيد المعاني تصعيدًا مترابطًا ، من خلال تكرار كلمة تتدرج بشكل تسلسلي مرتب تنتهي بها الجملة السابقة ؛ لتبدأ بها الجملة اللاحقة : " ... فقد آذاني وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله ، وَمَنْ آذَى الله ... " ويسير التدرج بهذه الطريقة التي تحقق تماسك حلقات النص إلى أن يصل التصعيد إلى قمته التي تتجلى في صدور الحكم بالجزاء ، وهو إيصال الأذى إلى الله : " وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله " وهكذا كان البدء من إيذاء الصحابة ، إلى إيذاء النبي ﷺ إلى إيذاء الله ﷻ في جمل ثلاث متتابعة متماسكة ، وبذلك تتبين المراتب من خلال التصعيد المتلاحم .

ثم تفضي الأحداث إلى الحلقة الأخيرة التي يتجلى فيها التهديد والوعيد: " وَمَنْ آذَى الله يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ" مستخدما صيغة المضارع " يوشك " التي تستلزم استحضار المشهد ، واستمرار التهديد بالأخذ ، وهو لا شك أخذ يتسم بالقوة العارمة التي لا حد لها ، خاصة أنه مسند إلى العظيم الجبّار ، كما أنه – في الوقت نفسه – يشير إلى هوان شأن المرء المأخوذ الذي يعمد إلى إيذاء صحابة رسول الله ﷺ، حيث تمثل عملية أخذه سهولة ويسر لا حدَّ لهما.

ومن هنا قامت الإحالة التكرارية بدورها في تماسك النص الحديثي وترابطه الذي يتأتى من تعالق الألفاظ بعضها ببعض ، وهذا ما دعا النصيين إلى جعل التكرار أو الإحالة بالعودة من عناصر السبك المعجمي ، لكونه تعبيرًا يكرر في الكل والجزء ، وهو يعد أكثر أنواع الإحالة دورانًا في الكلام .

ويرى علماء اللغة النصيون أن الإحالة بالعودة تعطي منتج النص القدرة على

خلق صور لغوية جديدة ؛ لأن أحد العنصرين المكررين قد يسهّل فهم الآخر.(٢٣)

وكما حفل الحديث بالإحالة التكرارية المكثفة ، حفل أيضًا بوسيلة نصية أخرى من وسائل التماسك النصي وهي الروابط الإحالية ممثلة في الضمائر ، فقد جاء النص مفعمًا بالضمائر الشخصية التي بلغت اثنين وعشرين ضميرًا – على الرغم من عدم طول النص نسبيًا – موزعة ما بين ضمير متكلم وغائب ، وظاهر ومستتر ؛ مما شكل شبكة من العلاقات الترابطية التي حققت للنص وحدة نسيجه ، وإحكام بنائه ، وإخراجه إخراجًا تتجلى فيه بوضوح وحدة الوضع ؛ مما أسهم بدور بارز في تحقيق تماسك النص وترابط أجزائه شكليًا ودلاليًا .

ولذلك لا يفتأ النصيون يؤكدون أهمية دور الضمير مع الوسائل الأخرى في تحقيق التماسك والترابط النصي ، فيرون أن للضمير أهمية في كونه يحيل إلى عناصر سابقة ولاحقة في النص ، كما أنه يحقق ميزتين : الأولى : الغياب عن الدائرة الخطابية ، والثانية : القدرة على إسناد أشياء معينة ، وتجعل هاتان الميزتان من هذا الضمير موضوعًا على قدر كبير من الأهمية في دراسة تماسك النصوص.(٢٤)

كما توافر في النص الحديثي من الروابط النصية السببية "الفاء" في جمعها بين السبب والنتيجة ، لبيان نتيجة ما يترتب على حب الصحابة ، وعلى بغضهم وإيذائهم ؛ لاتحاد حالهم بحال الرسول ﷺ حبًا وبغضًا ؛ مما يستلزم إكبارهم وإكرامهم ، هذا فضلًا عن مجيء رابط " الواو" الذي جمع بين الجمل المتتابعة ، ومن ثم كان للرابطين "الفاء و الواو " أثرهما في التماسك النصي .

وكانت وحدة الموضوع في النص الحديثي من وسائل الترابط النصي فيه ، فهو تعبير عن حرص الرسول ﷺ على تكريم الصحابة وتقديرهم ، وعدم التعرض لهم .

كما استعمل النبي ﷺ هذا اللون من التكرار للتأكيد في قوله : " يارب " فيما رواه عنه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : **إِنَّ الله تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ المؤمنون، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (البقرة)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ : أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ له ؟ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

[أشعث : الشعث هو انتشار الشعر مع كثرة تلبده بالغبار ، وأغبر : أي مصابًا بالغبرة من كثرة الأتربة التي علقت به في سفره] .

ويصور الحديث الرجل يواصل سفره مدة طويلة ، ويعاني من وعثاء الطريق ، فشعره متلبد بالغبار ، ووجهه وثيابه يعلوهما غبار كثيف ، ويمد يديه إلى السماء إلحاحًا في السؤال والاسترحام والدعاء لله باسمه : يارب يارب ، ولكن هيهات أن يستجاب لدعائه المتكرر ، وما يدري أنه لا أمل في ذلك الدعاء ، والمانع من ذلك هو اقترافه الحرام في المطعم والمشرب والملبس ، فضلًا عن نشأته على الحرام منذ صغره التي قد تكون بجريرة المربين والأهل .

ولذا كان هذا المانع وهو الوقوع في الحرام ردًّا للدعاء مع وجود أسباب الإجابة وهي دعوة المسافر ، والشعث والغبرة ، والتوجه إلى الله وحده وغيرها من أسباب ؛ وذلك لأن الجسد الذي نبت من حرام هو جسد للنار ؛ فلا يسمع قوله ، ولا ترفع دعوته ، فالله لا يقبل إلا الدعاء الطيب من الجسد الطيب ؛ لأن الله طيب كما جاء في صدر الحديث . (٢٥)

ثم جاءت جملة الاستفهام : " فَأَنَّى يُسْتَجَابُ له ؟" مرتبطة بما قبلها برابط "الفاء" لتبين نتيجة ما يترتب على هذا الفعل الحرام ، من عدم الاستجابة ، وهو ما يدل على النفي التام والاستبعاد البعيد ، كما يشير إلى التحذير الشديد من الوقوع في الحرام ، كما توافر في الجملة من عناصر السبك النحوي "الحذف" حيث المراد : أنى (كيف) يستجاب له وهو واقع في الحرام ؟ وذلك اعتمادًا على ما سبق ذكره ، فهي مرجعية قبلية ، وتعد من وسائل السبك النصي الفاعلة .

وكان من الروابط النصية أيضًا "الواو" التي جاءت للجمع بين المعطوفات ؛ لإفادة دلالة المشاركة بين الجمل الأربع : " ، وَمَطْعَمُهُ ... ، وَمَشْرَبُهُ ... ، وَمَلْبَسُهُ ... ، وَغُذِّيَ..." وهي معطوفات على كلمة "الرجل" ، كذلك من العناصر الإحالية الرابطة "الضمير الشخصي" المتمثل في ضمير الغائب المستتر العائد إلى "الرجل" في : "يُطِيلُ، أَشْعَثَ ، أَغْبَرَ ، يَمُدُّ ، وَغُذِّيَ " والضمير الغائب المتصل في :" يَدَيْهِ ، وَمَطْعَمُهُ ، وَمَشْرَبُهُ ، وَمَلْبَسُهُ ، له " .

ولعله يتضح الدور الحاسم لهذه الروابط المكثفة التي حددها السياق في إحكام نسيج النص وتماسك بنائه ؛ مما يدل على دور السياق في إدراك علاقات الترابط والانسجام في النص وفهمه فهمًا سليمًا .

ومن ثم جاء التكرار في نداء الرجل بلفظ " يَا رَبِّ " حكاية تصويرية لرجائه وإلحاحه بما يفيد التوكيد ، كما جاء تكرار لفظ " حَرَامٌ " تكرارًا مكثفًا دالًا على التقريع والتوبيخ ، والتشنيع والتنفير من الوقوع في مثل هذه الأمور المحرمة .

كما يمثل تكرار العبارة ، وهو دون الجملة ، شكلًا من أشكال التكرار في الحديث النبوي ؛ بغية التركيز على الارتباطات القائمة بين عناصر النص الحديثي ومحتواه ؛ إذ يؤدي دورًا مهمًا في عملية التماسك النصي ، ومن هذا القبيل حديث عَبْدِ

الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " **أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟** " ثَلاثًا ، قلنا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ : " **الإِشْرَاكُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** " ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : " **أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ ، أَلا وشهادة الزُّورِ** " ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . رواه البخاري .

وقد اجتمع في الحديث تكرار العبارة مع تكرار الجملة ، وافتتح بتكرار جملة " **أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ** " ثلاثًا ؛ وذلك لإفادة التوكيد والتنبيه على هذه الكبائر ؛ لتظل راسخة في أذهان الصحابة ؛ حتى يعملوا بها سمعوا ووعوا ، وجاءت الجملة الاستفهامية مسبوقة بالأداة (ألا) التي تستعمل في افتتاح الكلام ؛ لتفيد تنبيه السامعين وتشويقهم ، وإثارة رغبتهم في معرفة أمر جديد يجنبهم الوقوع في أمور عظيمة وخطيرة يصفها الرسول ﷺ بأنها أكبر الكبائر .

كما آثر البيان النبوي استخدام الفعل " أُنَبِّئُكُمْ " في هذا السياق ؛ للدلالة على المعنى المقصود ، وما له من شأن كبير ، وخطر شديد على الإنسان ؛ لأنها أكبر من الكبائر ، فهذا الفعل ، لم يستعمل إلا فيما له وقع عظيم .[٢٦]

ولم يكن المقصود بأكبر الكبائر أن هذه الثلاثة المذكورة أكبرها على الإطلاق ، فهي ليست على وجه التحديد والحصر ، بل المقصود أنها من أكبر الكبائر ، إذ يمكن تقدير حرف الجر "من" بين المضافين ؛ ليصبح وجه الكلام :" ألا أنبئكم بأكبر من الكبائر" ، والدليل على ذلك أن هناك أحاديث أخرى ورد فيها ذكر لأكبر الكبائر مثل : قتل النفس ، وشتم الرجل والديه ، واليمين الغموس وغيرها ، وإنما جاءت الإضافة في " أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ " لبيان أن الكبائر متنوعة ، ومتفاوتة سواء من حيث المكانة أو العقوبة ، فمنها كبير ، ومنها أكبر .

وحرص البيان النبوي على أن يأتي بالجناس الاشتقاقي في اللفظين " أَكْبَرِ "

و" الكَبَائِرِ " ؛ ليجعل أجزاء النص مترابطةً ومتماسكة ، إضافة إلى ما تقوم به بنية الجناس من إحداث لون من التناغم الصوتي ، والتوازن الإيقاعي ، وهو يلفت انتباه المتلقي إلى الكبائر المشار إليها ، هذا فضلًا عن أن لفظة " أَكْبَرِ " جاءت اسم تفضيل ، دلالة على شأنها العظيم ، كما أن كلمة "كَبَائِرِ" جاءت جمعًا على وزن (فعائل) ؛ لتفيد الكثرة ؛ فالكبائر جمع كبيرة ، وهي السيئة العظيمة التي خطيئتها في نفسها كبيرة ، وعقوبتها إقامة حد في الدنيا ، أو وعيد مغلظ في الآخرة.

ثم ينتقل الرسول ﷺ بعد هذا الاستفهام التقريري ، إلى ذكر هذه الكبائر على الترتيب : الإشراك بالله ، وهو أم الكبائر وأشدها على الإطلاق ؛ ولذلك جاء به مقدمًا ، ثم عقوق الوالدين ، وهي الكبيرة الثانية بعد الإشراك بالله ، وهذا يدل على شدة خطورتها على الأعمال الصالحة ، ولما كانت هاتان الكبيرتان مقررتين بالكتاب والسنة ، اكتفى بذلك العطف بينهما ؛ بحيث جُعلت كلتاهما بمنزلة التمهيد لما يأتي بعدهما من أمور مهمة .

وبعد أن ذكر الرسول ﷺ الكبيرتين : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، انتقل إلى ذكر ثالث الكبائر ، وهي قول الزور ، وشهادة الزور ، وفي تلك اللحظة صَعَّد عليه السلام اهتمامه إلى درجة عالية ، فانتقل بشكل مفاجئ من حال الاتكاء (الاضطجاع) بما فيه من استرخاء واستراحة واطمئنان ، إلى حال الجلوس بما فيه من إظهار هيئة التنبيه والإحاطة ، وقد جاءت هيئة الجلوس مباشرة بعد هيئة الاتكاء ، وعبرت عن ذلك تعبيرًا دقيقًا (الفاء) التي تفيد السرعة ، واختصار الزمن ؛ فهي للترتيب والتعقيب بلا مهلة .

وبذلك كان تغير الوضع الجسمي علامة على تغير محور الخطاب في حد ذاته من ناحية ، وعلامة على التنبيه إلى أهمية وخطورة ما يلي من ناحية أخرى .

وصاحب تلك الهيئة الجسمية والسلوك الحركي منطوق لفظي، استخدم وسيلة لتوكيده وتقريره، وهو تكراره مرات لم يقدر الصحابة على حصرها، مع سبق العبارة المكررة بالأداة (ألا) الاستفتاحية، دلالة على تخصيص هذه الكبيرة، ومفارقتها لما ذكر قبلها من كبائر مع ما فيها من الشرك بالله؛ لما في (ألا) من إفادة التأكيد، وتنبيه المخاطب لأهمية ما سيأتي بعدها، على وجه التحقيق، وهو الأمر الخطير: قول الزور، وشهادة الزور.

كما كرر كلمة " الزور "بلفظها مرتين؛ ليفيد تمكين المعنى، وتقريره، وتثبيته في نفس المخاطب، مع التنفير منه في ذات الوقت؛ لما لهذه الكبيرة من دور بالغ في ضياع الحقوق، وإوغار الصدور بالعداوة والبغضاء، وشيوع الحقد والحسد وغيرها مما يفسد العلاقات بين الناس؛ ويمزق وحدتهم؛ مما يؤكد عظم قبحها، وشناعة مفاسدها، وأثرها السلبي على المجتمع؛ ولهذا اهتم بها الرسول ﷺ على وجه أخص، أكثر من الإشراك الذي تقع مفسدته على الشخص، ومن عقوق الوالدين الذي يُصرف عنه بالطبع.

وهذا يدل على الملاءمة القوية بين هيئة السلوك الحركي والفعل الإنجازي الذي تضمنه المنطوق الذي تلاها، وهذه المواءمة توطِّد التضافر بين الحركة والمنطوق [٢٧].

وقول الزور معناه الكذب؛ لأن أصل الزور هو تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل لمن سمعه أنه بخلاف ما هو به [٢٨]، ولذلك يقول ابن فارس عن أصل الزور: " الزاي والواو والراء، أصل واحد، يدل على الميل والعدول، من ذلك الزور: الكذب؛ لأنه مائل عن طريق الحق ". [٢٩]

أما شهادة الزور، فهي الكذب الصراح، وتكون –غالبًا– أمام القضاة في المحاكم، وبسببها تضيع الحقوق، وتختل الموازين والمعايير، من تحليل حرام، أو

تحريم حلال ، أو إتلاف نفس ، أو أخذ مال إلى غير ذلك .[٣٠] ، ولذلك عُدلت شهادة الزور ، بالإشراك بالله ، لقوله ﷺ " عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله " ثلاث مرات . رواه الترمذي ؛ ومن ثم يكون هناك بعض وجوه الاختلاف بين قول الزور وشهادة الزور .

ونتيجة لكل هذا أُخذت قلوب الصحابة بهذا التكرار التحذيري ، وانخلعت نفوسهم ؛ إشفاقًا على رسولهم ، وعلى أنفسهم أيضًا ؛ فلم ينتبهوا إلى عدِّها ، وتمنوا لو أنه عليه السلام سكت رحمة له ، وخوفًا على أنفسهم من غضبه .[٣٠]

وقد توافر في الحديث من عناصر السبك ، الحذف ، وتمثل في حذف المبتدأ في"الإشراك بالله ... " حيث تعرب خبرًا لمبتدأ محذوف ، وبذلك يضع حذف المبتدأ المتلقي مباشرةً وبدون أي تمهيد في بؤرة الاهتمام بالموضوع ، باستبعاد كل ما ليس ضروريًا ؛ ليضفي على الخطاب صفة المباشرة والحيوية ،هذا فضلًا عما يتيحه من الإيجاز والتركيز، وحسن السبك ، ويسهم في تحقيق الغرض الإنجازي الذي قصده الرسول ﷺ وهو التنبيه والتحذير من ارتكاب تلك الكبائر ، وبذلك يتجلى أثر السياق في الخطاب المنجز .

كما تجلى في الحديث من علاقات السبك التركيبي ، العطف ، وهو رابط تركيبي يربط بين عنصرين بينهما ارتباط دلالي ، وله دور كبير في تحقيق التماسك النصي في الحديث ، وقد تحققت فيه تبعية العطف بالتشريك بواسطة حرف العطف "الواو" في قوله ﷺ :" الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور وشهادة الزور " ، وجاء حرف العطف ليربط بين هذه الكبائر ، ربطًا يفيد المشاركة والتغاير .

فالمشاركة جاءت لوجود مناسبة بين هذه الكبائر ؛ لأنها جميعًا تشترك في صفة واحدة ، وهي أنها من الكبائر ؛ لذلك كان وصلها بحرف "الواو" مناسبًا في

موضعه ، كما أنها من ناحية أخرى تفيد المغايرة ؛ لأن كل كبيرة منها لها استقلالها عن الأخرى من حيث اللفظ والمعنى .

أما من حيث تكرار الجملة فقد شكل ملمحًا أسلوبيًّا في الحديث الشريف ، إذ أسهم في تماسكه النصي ، ودعم جانبه الدلالي والتداولي ؛ حيث يقوم بربط أطرافه بعضها ببعض ، كما يضيف في كل مرة بعدًا جديدًا له ، وورد هذا اللون التكراري المؤكد في حديث المِسْور بن مخرمة ﷺ ، وفيه يقولُ إنه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : " **إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُوا أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَلا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، إلا أَنْ يُحِبَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي ، وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ ، فَإِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي ، يَرِيبُنِي مَا يُرِيبُهَا ، وَيُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا** " صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وقد حقق تكرار جملة " لا آذَنُ " ثلاث مرات ، تأكيد القول وحسمه في رفض النبي ﷺ القاطع لتزويج علي بن أبي طال بابنة أبي جهل بن هشام ، والجمع بينها وبين ابنته تحت سقف واحد .

وجاءت الجمل الثلاث تعقيبًا وبيانًا على طلب الإذن من النبي ﷺ ؛ لتحقيق هذا الزواج ، ثم جاءت الجملتان التاليتان لهذه الجملة " إِلا أَنْ يُحِبَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي ، وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ " استدراك لبيان الحالة التي يجوز فيها لعلي الزواج من ابنتهم .

ويعلل عليه السلام هذا المنع والرفض بقوله :" فَإِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي...." وتعد هذه الجملة السببية ، أو ما يسمى بالارتباط السببي وسيلة من وسائل الترابط الدلالي في النص ؛ لارتباطها السببي بما قبلها .

ثم تأتي الجملتان " يَرِيبُنِي مَا يُرِيبُهَا وَيُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا " تفسيرًا وبيانًا لجملة التعليل السابقة ، وذلك بتفسير المقصود بكون فاطمة جزءًا منه ، فإن ما يؤذيها

يؤذيه ، وما ترتاب له يريبه هو أيضًا ، وهذه العلاقة التفسيرية من وسائل التماسك النصي التي توافرت في النص، وأحكمت بناءه الدلالي .

ومن ألوان التكرار الأخرى التي أسهمت في تماسك النص ، وإحكام ترابط أجزائه ، تكرار لفظ " ابْنَتَهُمْ " مرتين ، وتكرار اسم " عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ " مرتين .

كما توافرت في النص الإحالة التكرارية المتمثلة في تكرار الضمير ثماني مرات ، وحركة مرجعيته تعود إلى الجامع الأساس في النص ، وهو صاحبه المتلفظ به ، الذي يمثل مركز النص ، وحجر الزاوية فيه ؛ لارتباط الحدث به ، ويعد الضمير الراجع إليه عليه السلام ، وهو ضمير المتكلم ، المتصل والمنفصل ، أعلى معدل لتوزيع الضمائر في النص ، حيث يمتد من بدايته إلى نهايته ، وكأنه خيط رئيس يشكل في مجموعه نسيج النص ، ويربط أجزاءه برباط قوي يحفظ له تماسكه شكليًّا ودلاليًّا .

وتجلت علاقات الترابط بين هذه الضمائر المكررة الراجعة إلى ذات المتكلم عليه السلام في الألفاظ : فَلا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، ابْنَتِي ، مِنِّي ، يَرِيبُنِي ، يُؤْذِينِي.

ولعله مما سبق يتضح دور التكرار بأنماطه المتعددة في تحديد الجمل الرئيسة ، والثانوية في النص ، وتحديد الكلمات المحورية التي يميل المرسل إلى تكرارها غالبًا ، وكل ذلك يسهم في الإشارة إلى القضية المحورية التي تمثل مركز الثقل الدلالي في النص ؛ مما يوضح ما للتكرار من تأثيرات بنائية ودلالية تقتضيها طبيعة المعنى ، وتتطلبها خصوصية السياق ؛ فالسياق نظام بنائي لإنجاز النص وفهمه في آن.

الهوامـش :

1. عبقرية محمد ص ٧٦:٧٨ .
2. وحي الرسالة ٣/ ١٩ .
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٣٠١ .
4. المثل السائر ١/ ٤٨ .
5. عبقرية محمد ص ٧٣ .
6. ينظر : شرح الحديث مفصلا في : محمد عبد العزيز : الأدب النبوي، ط١، دار المعرفة ، بيروت ١٩٩٦م ص ٩:١٢ .
7. ينظر : د. محمود السيد حسن : روائع البيان في الأمثال النبوية ص ٨٨ .
8. السابق ص ٨٨ .
9. ينظـر : د. عبـد الغفـار هـلال : لغـة القـرآن والحـديث ، ط١، دار العلـوم ، القـاهرة ٢٠٠٧م، ص٢٤٧:٢٤٩ .
10. ينظر شرح الحديث : ابن رجب الحنبلي ،جامع العلوم والحكم ، دار الفجر للتراث ، القـاهرة ٢٠٠٢م ص ٧:٢٦ .
11. ينظر : ابن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، دار الريان للتراث ، القاهرة ١٤٠٧هـ ١/ ٢٢٩ .
12. د. بسيوني عبد الفتاح : التشويق في الحديث النبوي ٣٣:٣٤ .
13. الرافعي : وحي القلم ص٨٣ .
14. ينظر : الحديث النبوي، ص٦٧:٦٨.
15. السابق ص ٦٧.
16. الخطابي : بيان إعجاز القرآن ، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله ، وزغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ص٤٨ ، و ينظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ط٢ ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة (د.ت) ٣/ ١١.
17. تيسير الوصول ١٩٨/ ١.
18. عمدة القاري ١١٥/ ٢.

١٩. ابن جني : الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت) ٢/ ٥٢.

٢٠. السابق ١/ ٤٦:٤٧.

٢١. د. علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص١٧٥ وما بعدها .

٢٢. ينظر : د. أحمد ياسوف : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، ط١ ، دار المكتبي ، دمشق ٢٠٠٢م ص٣٢١.

٢٣. ينظر : دي بو جراند: النص والخطاب والإجراء ، ط١، ترجمة : د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٨م ص١٠٥ .

٢٤. ينظر : د. صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط١ ، دار قباء ، القاهرة ٢٠٠٠م ١/ ١٦١.

٢٥. ينظر : سعد بن سعيد الحجري : المنن الربانية في شرح الأربعين النووية ، ط١ ، دار بلنسية ، الرياض ١٤٢٣هـ ص٦٣.

٢٦. ينظر : أبو البقاء الكفوي : الكليات ، تحقيق : عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٢١هـ ١٩٩٢م ص٨٨٦.

٢٧. ينظر : د. محمد العبد : العبارة والإشارة، ط٤ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ٢٠١٠م ص٢٠٢.

٢٨. ينظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥/ ٢٦١.

٢٩. معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٦.

٣٠. ينظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص٨٣.

الفصل الثالث

الصورة الفنية

- مدخل.
- التشبيه.
- الاستعارة.
- الكناية.
- المجاز المرسل.
- الصورة الإشارية.

مدخل :

عني الخطاب النبوي في الحديث الشريف بالصورة الفنية ؛ لأهميتها في إبلاغ الرسالة المحمدية إلى الناس كافة ، وتوصيلها غرَّاء واضحة المعالم ؛ ولذا غدت الصورة عنصرًا فاعلًا في تركيب ذلك الخطاب الشريف بما يسهم في إنتاج دلالته ، كما أنها صارت وسيلة رئيسة ؛ لتحقيق غايات تعليمية سامية ، وأهداف تربوية جليلة ؛ لأجل الإبانة والتأثير والإقناع والتمكين في نفوس المتلقين ، هذا فضلا عن أبعادها الجمالية والتحسينية التي تتجلى نتيجة لتشكيلها دون أن تكون منطلقا لها .

وقد تعالقت هذه الأبعاد الإقناعية والتمكينية للصورة في الخطاب التعليمي في الحديث الشريف بالتواصل اللغوي بين المرسل والمستقبل ، وما له من ظروف نفسية وملابسات سياقية وسواها مما يطلق عليه " التداولية " التي تعني في مفهومها العام دراسة الاتصال اللغوي في السياق ، من خلال تناول أثر السياق في بنية الخطاب ، ومرجع رموزه اللغوية ومعناه ، كما يقصد المرسِل .(١)

وهذا يدل على أن الصورة البلاغية تمثل رافدًا من الروافد التي تسعى لتحقيق الغاية الدينية العليا للمضمون التعليمي للخطاب النبوي في الحديث الشريف عبر أروع الأشكال الفنية ، ووفق الأداء اللغوي الصريح ، والإيحاء التعبيري الرفيع ؛ مما منحها حيوية التأثير وطابع الطرافة والجدة في آن .

وبناء على ذلك فإن المقولة النقدية المعروفة " الفن للفن " لا تدخل في إطار فن الحديث النبوي الذي هو في مضمونه العام فن معرفي يوضح الحقائق الدينية توضيحًا يتجلى في شكل جمالي هادف ، بحيث لا يمتزج بالجمال إلا لأجل الحق ، فهو فن هادف يندرج في مقاصد الدين ويدركها إدراكًا حسيًّا عاطفيًّا ، كما أن لغته الخيالية التي تشكل عالمًا وجدانيًّا فسيحًا تتوافق مع غايته التعليمية القائمة

على الأمر والنهي ، أو الفضائل والمثالب ، وبذلك تتلاقى غاية الإفهام مع الغاية التعليمية بمقوماتها التبليغية التمكينية .

ومن ثم تختلف الصورة في الخطاب النبوي عنها في الخطاب الأدبي من حيث المصدر والغاية ، فمصدر الصورة لدى الأديب هو العاطفة والخيال ، وغايتها فنية خالصة تكمن في تزيين الكلام وتحسينه ، في حين يكون مصدر الصورة في الخطاب النبوي الحقيقة والعقل ، وغايتها الإبلاغ الذي يصل إلى حد الإقناع والتمكين والتأثير في المرسَل إليه ، في ضوء الأبعاد السياقية التداولية التي تحكم عملية الخطاب التواصلي في الحديث الشريف الموجه إلى المسلمين الذين آمنوا بمبدعه ﷺ وصدقوه قولًا وعملًا .

أما مادة الصورة فاتخذها الحديث من الطبيعة ومظاهرها ، ومن عناصر البيئة والواقع ، ومن صفات البشر ، ومن أحوال الحياة وغيرها مما هو نابض بالحياة والحركة والتجدد ، وقد كان ذلك هو المنبع الأساس الذي اعتمدت عليه الصورة في الحديث الشريف ، واستمدت منه مادتها الأولية التي استخدمت في تجسيم المعاني المجردة ، كما أسهمت في جلاء الصورة الفنية ، فكان لها دورها التأثيري في تعميق التواصل الفني بين المرسِل والمستقبل .

وهذا الطابع التصويري الذي اعتمد عليه الحديث الشريف في أداء رسالته ، جاءت فيه الصورة ملتحمة بفكرة الحديث الكلية ، ومتفاعلة مع صلب معناه باعتبارها وسيلة تعبيرية ، حتى بدت من خلاله الصورة أنها هي المعنى ذاته ؛ مما جعل منها عنصرًا ضروريًّا أسهم في تشكيل الحديث النبوي ، وفي أداء مهمته الرفيعة ، ووظيفته الجليلة في الدعوة إلى الله ﷻ، تلك الدعوة التي انطلقت من الواقع والبيئة ، وعبرت عن أسمى رسالة تنزلت من السماء ، أما مبدعها ﷺ فقد اعتلى الذروة العليا في البيان البشري برعاية خالقه العلي القدير .

ومن هنا جاءت الصورة في الحديث الشريف تحتل مركز الصدارة في البيان النبوي ، وتمثل مكونًا من أهم مكوناته الفاعلة ، وجمعت وسائلها بين التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل، فضلًا عن الصورة الإشارية ، وقد كانت هذه الوسائل في كل موضع وردت فيه تزخر بالتشكيل الجمالي والإيحاء الدلالي ؛ بغية إقناع العقل ، وإمتاع النفس ، مما يشعر المتلقي بوعي جمالي تبدو فيه الصورة كأنها شعور يسري في طيات نفسه ، وحنايا أعماقه ، الأمر الذي حدا بالمناهج النقدية الحديثة إلى الاهتمام بالنص ، وبالمتلقي المتذوق له ، وبالسياق ودوره في توجيه الدلالة ، ونحاول أن نتناول بعض الألوان البيانية التي تلاحم من خلالها النص الحديثي وتماسكت عناصره .

التشبيه :

يعد التشبيه أكثر الفنون البيانية ورودًا في الحديث الشريف ؛ لتميزه بالوضوح ، وعدم المواربة ، بما يلائم طبيعة الفن النبوي ، والشريعة الغرَّاء ، إذ إنه من وسائل التصوير التي جاءت وفق الأداء الصريح ، والإيحاء التعبيري ، وتشكل في لوحات فنية تتسم بالحيوية والحركة وتعدد المكان والزمان ، وهذا كله جاء بما يناسب مضمون الفكرة التي يسعى إلى تنميتها وإغنائها مع التعالق معها .

أما فنونه ، فقد تنوعت في أشكال وقوالب من تشبيه تام ، أو بليغ ، أو تمثيلي ، أو ضمني أو غيرها ، وجاءت تطاوع رغبة المبدع في التعبير سواء في نظرته العجلى أو المتأملة ، وجاء التشكيل اللغوي ؛ ليسهم في إيصال المعنى المراد على نحو واضح ، مع المحافظة على قوة التأثير الوجداني في الوقت نفسه ، وبذلك يتلبس جمال التوضيح بجمال التأثير والإيحاء في صيغ لغوية تزيد في فاعليتها ؛ فيتحقق تقرير الفكرة مع التأثير في المشاعر والأحاسيس ، وتلك هي الغاية الإيضاحية للبلاغة النبوية التي تجمع بين الإقناع والتأثير ، هذا فضلا عن أن تمدد التشكيل في التشبيه يوسع فضاء الخيال ، ويزيد من ثرائه ومتعته .

ومن هنا كان التشبيه في الحديث الشريف ذلك الفن الجمالي الذي جمع في تشكيله البلاغي بين روعة الوضوح وقوة التأثير ، فالوضوح غاية دعوية تألقت في جمال فني أخاذ ومؤثر .

والبيان النبوي يضرب بسهم وافر في هذا الميدان البلاغي ، حيث اعتمد في مواضع عديدة من الأحاديث الشريفة على بلاغة التشبيه ، وما له من دور في تصوير الأمور العقلية تصويرًا حسيًّا خلابًا يساعد على إدراك المعاني على هيئة أشد وضوحًا ، وأكثر تأثيرًا ، وأقوى قدرة في امتلاك الوجدان من الأفكار المجردة ؛

بغية توضيح الرسالة ومقاصدها الدينية ، وترسيخ غايتها التربوية التي تنبني على الأمر والنهي .

ومن صور التشبيه التي تفيض بها الصياغة الفنية للأحاديث الشريفة، وتتجلى فيها المعاني الجليلة التي يُهدف إلى تصويرها ، ما روي عن أبي هريرة ﷺأن الرسول ﷺ قال: " **بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فيها مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**". رواه الترمذي .

يبدأ الحديث الشريف بأسلوب الإنشاء (الأمر) " بادروا بالأعمال " للحث والتحفيز على المسارعة والمسابقة في القيام بالأعمال ، والمراد بها الأعمال الصالحة النافعة الموصلة إلى مرضاة الله ، الدافعة لما يكون سببا لغضبه ومقته ، والمتصدية للفتن ودواعيها .

وبعد هذا الأمر الصريح ، يأتي الخبر " فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ " وفيه تحذير واضح من الفتن وأهوالها التي يبتلى فيها الإنسان بالسراء والضراء ، حيث تتقلب فيها أحوال الناس ، وتتنوع أفعالهم ، لفرط سوادها وظلمتها ، وعدم تبين الصلاح من الفساد ، ودون تمييز النافع من الضار ، حيث يضل الناس عن الحق والصواب ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، ولذلك جاءت الكلمة " فتنا " نكرة للتهويل والتعظيم ، كما جاءت جمعًا للتكثير .

وجاء الطلب والخبر يدلان على الصراع مع الزمن ، إذ على الإنسان أن يسابق بالأعمال الصالحة في وقت الشباب ، حيث القوة والصحة ، قبل أن يصير إلى الهرم والكبر ، حيث الضعف والعجز ، حتى يتسنى له أن يسبق الفتن قبل أن تنزل به وتصيبه ، فتصده وتعوقه عن القيام بالأعمال الصالحة ، أو أن يحصل منها الضلال

والباطل والانحراف ؛ لذلك يجب على الإنسان الاعتصام بالعمل الصالح ؛ ليكون سببا في عصمته من تلك الفتن وما فيها من قتل ونهب واختلاف بين المسلمين في أمور الدين والدنيا ، فلا يطيق القيام بالأعمال الصالحة على وجهها الأكمل .

وقد اعتمد الحديث الشريف على التشبيه ؛ ليوضح من خلاله فداحة هذه الفتن ، ومدى هولها ، وما تحدثه من عواقب وخيمة تصيب المجتمع وأفراده في المستقبل ، فشبه تلك الفتن بقطع الليل المظلم ، وهو تشبيه يراد منه بيان حال الفتن ، وهي أمر معنوي، من خلال ربطها بالليل المدرك بالحواس ، ثم جعل الليل قطعًا من الظلام إيغالًا في حسية هذا الليل المظلم ، وكأنه يلمس بالأيدي حال حلوله في وقت المساء ، كما توحي أداة التشبيه " الكاف " بالسواد الحالك لليل الذي تضيع بين سدوله الحقائق ، وفي هذا إشارة إلى ما يصيب أهل تلك الفتن كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (يونس) .

أما التفاعل مع تلك الفتن فيبرز في صورة جدلية متضادة ، ومتعارضة بين حالين " يُصْبِحُ الرَّجُلُ فيها مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا " حيث جاءت الوسيلة البلاغية " المقابلة " تنبض بتقلب حال الإنسان واضطرابه في معترك الفتن ، وما ستؤول إليه شخصيته من ازدواجية ، وتذبذب ، وتقلب بين الإيمان والكفر ينتابه بين الحين والآخر ؛ مما يؤدي إلى تفكك المجتمع وانهياره في كل زمان ومكان .

كما تتضمن تلك المقابلة لونًا آخر من الألوان البيانية وهو الكناية التي تبرز

سرعة تقلب أحوال الناس ، وشدة ترددهم ، وتنوع أفعالهم من عهد ونقض ، وأمانة وخيانة ، وتلك سمات أوقات الفتن .

ويتم ذلك كله بين الإصباح والإمساء ، ولكن ليس المراد هو حقيقة هذين الزمانين ، وإنما يراد به التقلب في الأوقات ، والحكم عليه ، بمعنى أن يكون في هذا الوقت مؤمنًا ، ويكون بعده في وقت يليه كافرًا ، وبذلك ليس المقصود أن يكون التغيير في يوم واحد في الصباح والمساء ، وإنما بالتدرج بين الأوقات بوجه عام .

وتمتد الألوان البيانية على مستوى النص في الحديث ، فيتجلى المجاز المرسل وعلاقته المشابهة ؛ لبيان مدى ما يصيب الناس وأحوالهم في أوقات الفتن ، ويبرز ذلك في "يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا" وتتضافر معه – في الوقت نفسه – الاستعارة في بيان أهوال هذه المحن الجسام ، حيث يصبح فيها الدين سلعة راكدة تباع بقليل من حطام الدنيا .

ولعل من الملاحظ أن الضمير مثل وسيلة مهمة في إحكام نسيج النص ، وربط أجزائه بعضها ببعض ، وجعله نصًّا متماسك البناء شكليًّا ودلاليًّا ، حيث اشتمل نص الحديث على عدد من الضمائر الشخصية ، منها ضمير الغائب المستتر (هو) في الأفعال : (يمسي) و(يمسي) و(يصبح) و(يبيع)، ومنها ضمير الغائب المتصل في (دينه) ، ومنها ضمير المخاطب (واو الجماعة) في (بادروا) ، وبذلك كانت الإحالة بالضمير المركز والمحور في تحقيق نصية النص ، ببناء شبكة العلاقات التي تربط بين الجمل ربطًا محكمًا يتحد فيه البناء على نحو واضح .

كما تعد وحدة الموضوع من أولى الوسائل النصية التي حققت لهذا النص الحديثي ترابطه وتماسكه ؛ لأنها تنظم النص في سلك واحد بجميع جمله ، ويربط

بينها بروابط دلالية ، فجاءت الجملة الأولى النواة " بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا..." ، ثم جاءت بقية الجمل المتتابعة إلى نهاية النص لتوضيح وبيان الحالة التي يكون عليها المرء في حالة وقوع الفتن ، فالجمل كلها إذًا مربوطة برباط المعنى والدلالة بما يحقق للنص ترابطه وتماسكه .

وهذا يدل على هوان الدين في أوقات الفتن ، مقابل متاع الدنيا الزائل ؛ إيثارا للدنيا على الآخرة ، وفي هذا تهويل لأمر الفتن ، وتحذير شديد من وقوعها ؛ مما يستلزم الاستجابة لأمر الرسول ﷺ الصادر في بداية الحديث ، بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة درءا للفتن المظلمة وبواعثها قبل وقوعها حتى لا تصيب الأمة الإسلامية بأدواء اجتماعية تفتك بمجتمعاتها ، وتحولها إلى جماعات ممزقة متفرقة ، وأفراد تتقلب شخصياتهم وتتجزأ بلا هوية ولا عقيدة بين وقت وآخر .

وقد استعان الرسول ﷺ بالتشبيه التمثيلي في مهمته التبليغية التعليمية ، واتخذه أسلوبا من أساليب التربية والإصلاح والإرشاد والتوجيه التي تقصد إلى الاعتبار والاستدلال بالنظير على النظير ، وإظهار المعقول في صورة المحسوس ، فضلًا عن أن المثل بما فيه من مسحة جمالية يمتع نفوس السامعين ، ويدفع عنها السآمة والملل ؛ مما يكون أدعى إلى قبول خطاب المرسِل والتأثر به .

فالمثل يمتاز بجاذبيته ورشاقة موقعه في النفس وطرافته التي تتجدد ولا تبلى ؛ مما ترى أثره واضحًا في وجوه السامعين ونظراتهم ، ولذلك قال ابن المقفع : " إذا جعل الكلام مثلًا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعب الحديث ."[٢]

وأشار عبد القاهر الجرجاني إلى الأبعاد الجمالية للتمثيل وأثرها على إمتاع نفوس المتلقين ، وذلك بأن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من

أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستشار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا ، وقَسَر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا ، فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم ، وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، ... وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلي الغياية ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفي الغليل ."(٣)

إلى جانب ذلك فإن بلاغة التمثيل تكمن في إثارة عقل المتلقي ، ودفعه إلى التدبر والتأمل العميق ، وحثه على التفكّر الصحيح ، والقياس السليم ؛ لأن التمثيل يعد من أهم وسائل الإقناع وإقامة الحجة ، لما فيه من الأقيسة العقلية ، وترتيب النتائج على المقدمات .

وعبر الجرجاني عن هذا البعد الحجاجي للتمثيل في قوله : " إن التمثيل إن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر "(٤)

كما التفت عبد القاهر إلى أثر التمثيل في التمكين للمعنى المقصود في نفس المتلقي كما هو متمكن في نفس المرسِل ؛ لأن : " أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ".(٥)

ومن أجل ذلك وغيره اتخذ الحديث الشريف التشبيه التمثيلي وسيلة لتعضيد خطاب الأمر والنهي إرشادًا وتوجيهًا، وترغيبًا وترهيبًا وغيرها ؛ مما أسهم في تحقيق الغاية التواصلية للخطاب التعليمي في الحديث الشريف.

ومن الأحاديث الشريفة التي يقوم فيها بناء النص وتشكيله الجمالي على

التشبيه التمثيلي ، قوله ﷺ : "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الْهُدَى والعِلْم كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إنما هي قِيعَانٌ ، لا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلا تُنْبِتُ كَلًا ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ ، فَعَلِمَه وَعَلَّمَه ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ". رواه البخاري، ومسلم، والنسائي .

ونبدأ بشرح بعض المفردات التي تسهم في استجلاء هذا المشهد ، ومنها : مثل: تعني مادة الكلمة ، الشبه والمساوي ، والشخص والصورة ، والأفضل والأشرف ، و المراد هنا : الصفة العجيبة ، ومثل ما بعثني الله به ؛ أي : صفة ما بعثني به الله ، والهدى : الدلالة الموصلة إلى الغاية والمطلوب ؛ أي : يهدي الآخر إلى الطريق ، وكلمة " هدى" تذكر وتؤنث . والعلم : المعرفة النافعة ، والعلاقة بين الهدى والعلم علاقة الدال بالمدلول ، فالهدى: دال ، والعلم : مدلول عليه ، والمراد بالهدى والعلم هنا هو الوحي الذي بعث به النبيﷺ ، ويشمل القرآن والسنة .

وكمثل : الكاف للتشبيه ، ومثل : كلمة تسوية ، يقال : هذا مِثْلُه أو شِبْهُهُ وشَبَهُهُ . الكلأ : النبات الرطب واليابس . والعشب : النبات الرطب فقط . والأجادب : جمع جدب ، وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء، فلا ينضب منها ، وقد يقصد بها حفظ العلم وضبطه ، ونقله إلى من هو أقدر على الاستنباط والفهم ، وقيعان : جمع قاع ، وهي الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت ، وفَقُه : بضم القاف ، صار فقيهًا وعالمًا ؛ أي : صار الفقه والعلم له سجية وخلقًا ، وفَقِه : بكسر القاف ، فَهِم وعَلِم ، والمقصود هنا : فهم المادة العلمية الشرعية ومنهج

الوصول إليها فهما دقيقا عميقا ، وهو ما يجب أن يكون عليه المسلم ، وذلك هو ما ضرب له المثل بالغيث الذي يصيب الأرض .

والحديث هنا يبين حاجة الناس للإسلام وموقفهم من الهدى والعلم الذي بعث به الله رسوله ﷺ ومدى التفاعل معه والإفادة منه ، أو مخالفته والإعراض عنه وعدم الانتفاع به ، وذلك من خلال التشبيه التمثيلي الذي يلقى ضوءه الكاشف على تلك القضية ، ومما زاد من سحره وقوة تأثيره أنه استمد عناصره من واقع البيئة العربية التي عاش فيها الصحابة ؛ ليعرض عليهم ما يدعو إليه عرضا محسوسًا من أذهانهم ؛ حتى يجلو لهم المعنى كاملا ، ويزيد ضياءه سطوعًا وإيماضًا ؛ مما يترك أثرًا نفسيًّا بليغًا في عملية التوصيل والإقناع والتمكين للدعوة المحمدية .

وقد جاء المثل في الحديث أولًا ، وفُصّل فيه القول ، ثم تبعه بالممثل له الذي استخرج منه المقصود الذي تضمنه المثل ، وذلك في الجزء الأخير من الحديث ، وهذا عكس العادة في ضرب الأمثال ، والمغزى التربوي من ذلك هو بيان عظم الأمر الذي بعث من أجله ﷺ ، وتكثر هذه الطريقة في أسلوب التمثيل عنده ﷺ .

والمثل هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فالمثل – كما يقول العيني – له مفهوم لغوي ، وهو النظير ، ومفهوم عرفي وهو القول السائر ، ومعنى مجازي وهو الحال الغريبة . (٦)

وسلك عليه السلام في أسلوب عرض المثل ، وطريقة ضربه كل ما من شأنه إيضاح الهدف المراد ، وإبرازه بما يحقق التأثير والإقناع ، إضافة إلى ذلك فقد جاء بناء الحديث من النوع الدائري المغلق ، وهو من سمات الأسلوب النبوي ، فكان فيه توافق بين المطلع والختام ، إذ انتهى الحديث بالمعنى نفسه الذي ابتدأ به ، فافتتح بأسلوب خبري يتسم بالتشويق والطرافة بقصد التنبيه والتوضيح

والتعليم ، فقال ﷺ: " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الْهُدَى والعِلْمِ " ، واختتم بقوله : " وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ".

وقد اتكأ الحديث على الأسلوب التصويري القائم على مشاهد الطبيعة ؛ ليحقق إقناع العقل ، وإمتاع النفس ، لتظل القيمة الجمالية ماثلة في الأذهان ، حاضرة أمام الأعين بعناصرها الطبيعية المحسوسة ،فضلا عن الجمالية التي تتجلى من تجسيم الهدى والعلم في صورة غيث ، مما يعني ربط البعيد بالقريب ، وإخراج الأغمض إلى الأوضح ، فضلا عن أن التشبيه قد استخدم للتحول من المجرد إلى الحسي وسيلة أو منبها فنيا هو كلمة " مثل " التي تمثل مرتكزًا جماليًّا ، إذ صور حالة الناس في تلقي الهدى والعلم عن الرسول ﷺ وتقبلهم لما جاء به ، وتفاعلهم معه حسب طبيعتهم ، بحالة الأرض القاحلة في استقبالها المطر والانتفاع به .

وقد اعتمدت الصورة على التوضيح والتفصيل الذي لا يقل جمالًا عن التأثير الوجداني ، بل يوسع من فضائه ، حيث شبهت أثر الهدى والعلم على الناس ، وما ينتج عنه من تفاوت واختلاف في الإفادة منه ، فكان من أفاد منه عملًا ، وأفاد غيره به توجيهًا وإرشادًا ، فعلم وعمل ، فهو عالم ، ويعمل بما علم ، ومنهم من أفاد منه ، ولم يتفقه فيه ، بل بلغه للناس كما حصله ، فهو عالم قليل العمل ، ومنهم من أعرض ونأى ، فلم يفد منه ، فهو لا يعلم ، ولا يعمل ، وذلك هو موضع الذم القادح من هؤلاء الثلاثة .

وهذه الصورة الذهنية العقلية السابقة ، وهي أحوال الناس واختلافهم فيما يفيدون من علوم الدين ، تشبه الصورة الحسية الملموسة التي نراها ماثلة أمام الأعين ، وتمس أوتار القلوب مسًّا حيًّا ، وهي حالة الأرض عندما ينهمر عليها المطر ، وتتفاوت في تقبله ، والانتفاع به ؛ فيكون منها ما يقبل الماء ، ويرتوي به ،

فتخصب تربتها وتنبت ، ومنها ما يمسك ويحفظ الماء ، ولا ينبت ، ومنها ما يضيّع الماء ، ويبدده ، فلا ينبت ، ولا يمسك .

وبذلك جعل الرسول ﷺ تعامل الناس مع دعوته كما يتعامل الغيث مع الأرض ، فقسم الناس ثلاثة أصناف متدرجة : المنتفع النافع ، والنافع غير المنتفع ، (وهو ما لم يصرح به في الحديث ، بل يفهم من السياق) ، وغير النافع وغير المنتفع ، وفي مقابل ذلك قسم الأرض ثلاثة أنواع متدرجة : النقية ، والأجادب ، والقيعان ؛ مما يدل على حاجة الناس للإسلام ، وما فيه من منهج متكامل لحياتهم كافة .

ويوضح ذلك الإمام النووي في قوله :" أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ﷺ بالغيث ، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع ، وكذلك الناس . فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر ، فيحيا بعد أن كان ميتا ، وينبت الكلأ ، فتنتفع بها الناس ، والدواب ، والزرع ، وغيرها ، وكذا النوع الأول من الناس ، يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ، ويعمل به ، ويعلمه غيره ، فينتفع وينفع .

والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها ، لكن فيها فائدة ، وهي إمساك الماء لغيرها ، فينتفع بها الناس والدواب ، وكذا النوع الثاني من الناس ، لهم قلوب حافظة ، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام ، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به ، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم ، أهل للنفع والانتفاع ، فيأخذه منهم ، فينتفع به ، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .

والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها ، فهي لا تنتفع بالماء ، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها ، وكذا النوع الثالث من الناس ، ليست لهم قلوب

حافظة ، ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون بـه ، ولا يحفظونـه لنفـع غيرهم والله أعلم" .(٧)

ومن هنا كان وجه الشبه بين الصورتين الذهنية والحسية هو التفاوت والاختلاف في الانتفاع من الخير النافع ، كما كان تشبيه العلم بالغيث متناسبا ومنسجما ، فالغيث أو الماء مصدر الحياة ، كما أن العلم يحيي العقول والأرواح ، وإلى ذلك أشار الإمام القرطبي بقوله :" ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجتهم إليه ، وكذا كان الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت .

ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث ، فمنهم العالم العامل المعلم ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها ، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه ، غير أنه لم يعمل بنوافله ، أو لم يتفقه فيما جمع ، لكنه أدّاه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه بقوله " نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها " .

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ، ولا يعمل به ، ولا ينقله لغيره ،فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ، أو تفسده على غيرها ، وإنما جمع المثل بين الطائفتين الأولين المحمودتين ، لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها ، والله أعلم ". (٨)

وعلى هذا الشكل جاء التشبيه التمثيلي لوحة ذات ثلاثة مشاهد متلاحقة ومتدرجة ، تهدف إلى توضيح الفكرة ، وإقامة الدليل عليها ، ففي حال نزول الغيث على الأرض يكون أثره المحسوس على طائفة طيبة من التربة ، وهذه الحالة

يتفرع منها مشهدان ، المشهد الأول " قَبِلَتِ المَاءَ... " ، والمشهد الآخر " مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ المَاءَ ..." .

ففي المشهد الأول قوله ﷺ :" **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ الأَرْضَ ، فَكَانَتْ مِنْهُ طَائِفَةٌ قَبِلَتْ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ،... فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَنَفَعَ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ** " ،حيث شبه ﷺ هذا الصنف من الذين آمنوا بالدعوة المحمدية ، وتفقهوا في الدين ، وتدبروه ، وعلموا تفسيره وتأويله، وأحاطوا بطرائقه، وأدركوا أبعاده ، وتشبعت به نفوسهم الطيبة، وزكت أرواحهم ، وصقلت أفئدتهم ، وعملوا به ، ودعوا الناس إليه ، وأبلغوه جليًّا ناصعًا وميسرًا ؛ فكانوا عنصر خير وهداية ، وقدوة ونموذجًا، وتواضعًا وورعًا .

تلك الفئة هم أهل الاجتهاد ، قد شبههم عليه السلام بالأرض الطيبة الخصيبة التي طابت تربتها ، وأعطت أطيب ثمار ، بعد أن كانت خالية مقفرة .

وهناك المشهد الثاني في قوله ﷺ : " ...وكانت منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا نَاسًا فَشَرِبُوا فَرَعَوْا ، وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ... "وهو صنف آخر من الذين آمنوا بالدعوة ، وحصَّلوا علوم الدين ، دون أن يكون لهم رسوخ في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام ، وليس لديهم اجتهاد في الطاعة ، والعمل بها ، ثم أبلغوا ما حصَّلوا من العلم كما حفظوه ، وهم على خير ، ولكنهم لم يكونوا على درجة عالية كالصنف الأول .

هؤلاء شبههم عليه السلام بالأرض الأجادب الصلبة التي قبلت الماء ، وأمسكته لم تشربه ، وحفظته للناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، ولكنها لم تنتفع بالماء في إنبات الكلأ والعشب .

وهذا الصنف من المؤمنين لم يصرح به الحديث ، بل ترك للمتلقي أن يدركه من خلال السياق الذي اكتفى فقط بذكر مَثَله الذي يدل عليه ، وقد يكون الحديث سكت عن ذكره ؛ لرفع منزلة المسلم التي يريد لها أن تكون في مكانة أعلى وأسمى .

وقد يراد بهذا الصنف من يتعلم هدى الله الذي أوحى إلى نبيه ﷺ دون أن يمس شغاف قلبه ، أو يلج أطوار نفسه وروحه ؛ فلا يعمل به ، إذ لم ينتفع بما عَلِم وعَلَّم .

والأولى به أن يتدبر ويتشرب تلك المعاني السامية ، وأن يدعو الناس إليها بقوله كما يدعوهم بعلمه وعمله ، بناء على قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (فصلت) .

وأشار الخولي إلى ذلك الصنف بقوله :" فريق ثالث بين الفريقين لم يذكره الرسول ﷺ وذكر مَثَله ، ومن عرف الفريقين عرفه ، بل المثل وحده يرشد إليه ، فهو ذلك الشخص الذي سمع القرآن فعقله وفهمه ، ووقف على أحكامه ، وحلاله وحرامه ، ولكن لم يعمل به في خاصة نفسه ، ولكن دعا الناس إليه ، وعلمهم وما تعلَّم ، فهو كالذين قال الله فيهم : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة) .

فهذا قد نفع الله به العباد ، وجعله معبر خير لهم ، ولم ينتفع هو بما عِلم وعلَّم ، وكان حريا به أن يهذِّب نفسه بما هذَّب به غيره .(٩)

أما المشهد الثالث فتجلى في قوله ﷺ : "... وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ، لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلًا ، ... وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ ".

وفي هذا المشهد التي يختلف عن المشهدين السابقين ، شبه ﷺ ذلك الصنف الذي فسدت نظرته ، ومات استعداده ؛ فأعرض عن النفحات الربانية ، ولم يلتفت إليها ، وولّى مستكبرًا لم يرفع لها رأسًا ، إنه يمثل الجحود البشري وعدم التأثر ، شبهه عليه السلام بالأرض القيعان المستوية التي لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلًا ؛ لينتفع به الإنسان والحيوان ، فهي مجرد متلقية للماء الذي يغيض في جوفها ، ويضيع بين مسامها ؛ فهي لا تنفع نفسها ، ولا ينتفع بها الإنسان ولا الحيوان .

وهناك دلالات تشع من تراكيب الحديث ، قد ساعدت على توضيح التشبيه التمثيلي ، وإثرائه بالمعاني الحية ، منها التقابل الدلالي الذي تشكلت منه الصور الجزئية الثلاث ، و سيطر على صياغة الحديث بشكل واضح ، وكان من أهم وسائل التماسك الدلالي في النص ، وتجلى هذا التقابل في إبراز ثنائية صورة الأرض : " فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " و " طَائِفَةٌ أُخْرَى إنما هي قِيعَانٌ ، لا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلا تُنْبِتُ كَلًا " .

كما يتجلى هذا التقابل في الثنائية الضدية التي تبرز الأمرين في الناس على نحو واضح : " فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَنَفَعَ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ " ، " وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ به " .

وتلك الصورة المقارنة توضح مدى فضل الطائفة الأولى العليا وكثرة خيرها ومنافعها ؛ إذ انتقلت من حالة التثقف إلى حالة التثقيف ، ومن الصلاح إلى الإصلاح ، وذلك يهدف إلى الترغيب فيها ، وفي الاقتداء بها ، كما توضح في مقابل ذلك مدى سوء الطائفة الأخرى السفلى وشرورها وعدم نفعها ، بغرض التنفير منها ، والابتعاد عنها .

كذلك تبرز ثنائية الصورة في الطائفة النافعة من الأرض من خلال بنية

التقابل بين حال قبول الماء ، وحال إمساكه ؛ لينفع الإنسان والحيوان والنبات ، وذلك في قوله ﷺ : " مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ... " و " وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ... ".

ومن هنا تكون المقابلة بين الأرض والناس مقابلة تامة ، إذ الأرض نوعان : نافعة وغير نافعة ، والنافعة نوعان : نقية وأجادب ، والناس نوعان : فقه ، ولم يرفع رأسا ، والفقيه نوعان : المنتفع النافع الذي ذكره الحديث ، والنافع غير المنتفع الذي لم يصرح به ، وذكر مثله الذي يرشد إليه .

وبناء على ذلك يتجسد التشبيه التمثيلي في صورة واقعية ملموسة من خلال بنائه على أسلوب المقابلة بين فريقين أو حالين ، والذي توزع في الحديث من أوله إلى آخره ؛ مما يدل على أن طبيعة النص الفكرية تتطلب مثل هذا الأسلوب بثرائه الدلالي الذي يبرز حركة المعنى بدلالاتها الخفية على نحو أكثر وضوحًا ، وبذلك الشكل البارع أسهم الإيقاع المعنوي للمقابلة في تماسك النص ، وترابط عناصره ، هذا فضلًا عما تقوم به تلك الوسيلة من فاعلية في التمكين للخطاب التعليمي بما يحمل المتلقي على المقارنة التي تجعله يقف على الحقيقة في وضوح وجلاء شديدين .

إلى جانب ذلك يتجلى التوازن الموسيقي في بناء الحديث وتشكيله بين الصيغ : " لا تمسك " و " لا تنبت " و "قبلت الماء " و " أمسكت الماء " ، فضلا عن الطابع الموسيقي الذي تولّد من تقسيم الأفكار إلى : منها نقية ، منها أجادب ، منها طائفة أخرى ، وقد أسهمت هذه الأبنية المتوازية في تحقيق سمة الارتباط والتناسق بين أجزاء النص ومبانيه ، وشكلت ملمحًا مميزًا له غرض دلالي واضح .

وجاء التشكيل البنائي للصورة على طريقة اللف والنشر ، بغرض تنشيط ذهن المتلقي وتحريكه ، حتى يقف على المراد من الحديث ، وذلك عن طريق تقسيم

الأصناف ، وإتباع كل قسم ما يخصه من ناحية القبول أو الرفض والاعتراض ، من خلال الترابط الدلالي بين الهداية والغيث ، والإنسان والأرض ؛ مما يحقق وحدة الصورة وترابطها .

وسلك الحديث في سبيل توضيح الصورة وأبعادها طريقة التكثيف في الجمل والعبارات المتلاحقة عن طريق الإجمال والتفصيل ؛ بغية جذب انتباه المتلقين ، وإثارة مشاعرهم نحو إدراك الجزيئات والتفاصيل على مستوى نص الحديث بطريقة أكثر وضوحًا وبيانًا .

وجاء الإجمال في الجمل الثلاث : " أصاب أرضًا" و" فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّةٌ " و" وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ " وتبعها على التوالي التفصيل والتوضيح والتفسير في جملة أو جملتين أو أكثر بما يقتضيه سياق المعنى ويتطلبه سواء كان ذلك عن طريق العطف أو الصفة أو غيرهما من وسائل التوضيح ، وبذلك يعد التفصيل بعد الإجمال من الروابط الدلالية القوية بين عناصر النص ، حيث تشتد العلاقة وتتآزر الروابط بين طرفي الخطاب ، المكثف والمفصِّل له ؛ لتحدث وقعًا في نفوس المتلقين ، وهي غاية تداولية .

وتمضي البلاغة النبوية لتحقيق الغاية التمكينية للصورة التشبيهية في خطاب الحديث بالتركيز على توضيح الصورة عبر المعاني والدلالات الإيحائية التي تتجلى في الألفاظ والجمل ، فتلقي بظلالها على أبعادها المتنوعة، ففي إيثار كلمة " الغيث " دون المطر ، دلالة على أنه مطر لطيف جاء بعد الحاجة الشديدة ، ولا يأتي إلا بالخير خلافا للمطر الشديد، وما ذلك إلا غيث الدعوة الإسلامية بخيره الوفير ، وعطائه العميم . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الشورى) .

وفي جملة " فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " دلالة على تحول الغيث إلى حياة ونماء وعمران ؛ مما يعني بلوغ الهدف وتحققه ، وقد جاءت جملة " الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " لتعبر بالصورة عن الخضرة الكثيفة ، وما تمثله من نقاء وتطهير وصفاء على المستويين : التأثر والتأثير ، وهي تمثل لونا من ألوان الإطناب ، حيث ذكرت الخاص "العشب" بعد العام "الكلأ" وهذا التخصيص يفيد الاهتمام بالعشب ، وما له من دور مؤثر في النفع العام ، كما يدل وصف العشب بالكثير على النفع والخير الوفير الذي تحمله بين جوانبها الدعوة الإسلامية إلى الناس ؛ حتى يصل هذا النفع والخير إلى درجة الإشباع .

أما الجمل " فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا" فجاء فيها الإيجاز بالحذف في " سقوا وزرعوا " على وجه أخص ؛ لإفادة العموم والشمول لكل ما يصلح للسقاية من الدواب والنبات ، وكل ما يصلح للزراعة بكافة أصنافها ، وتظهر أهمية الحذف هنا في بناء نص مكثف ، ومتماسك في آن واحد ، من خلال اشتراك تراكيب ظاهر النص في مكوناته البنائية .

وأفادت وسيلة القصر " إنما" في جملة " إنما هي قِيعَانٌ " التوكيد بأنها قيعان لا نفع فيها ، كما أفاد تنكير " ماء " و " كلأ" الشمول ، وهو ما يناسب الرفض التام لكل ما جاء به الهدى والعلم ، إذ ليست لهم قلوب حافظة ، ولا أفهام واعية .

أما الفاء في " فذلك " فجاءت لتآزر الجمل، وترابط المفاهيم ، والتحام الدلالات ، ولجأ إليها البيان النبوي زيادة في توضيح موضوعه الذي يتناوله ، سالكًا في سبيل ذلك بناء اللاحق على السابق ، مستهدفًا تحقيق درجة عالية من التواصل مع المتلقي ، الذي يحمله على التفاعل مع الرسالة على نحو مقنع ، أما الإشارة في " ذلك " فتتجه إلى مختلف أنواع الأرض التي وردت في التشبيه ، وتعود على المثل من أوله ، وقد جاءت لتفصيل ما يقابل هذه الأنواع ، وتأخرت

هيئة المشبه ، ففصّلت بعد أن أجملت في أول الحديث في قوله ﷺ :" مثل ما بعثني به الله " وذلك لعظم ما بعث من أجله عليه السلام.

ومن حيث الضمير الرابط للجمل بسابقتها في لفظ " منها " في قوله ﷺ :" فَكَانَتْ مِنْهَا ... ، وكَانَتْ مِنْهَا... ، وَأَصَابَ مِنْهَا ... " فهو يمثل أهمية في تحقيق تماسك النص شكلًا ودلالة ؛ إذ يسهم في تشكيل المعنى وإبرازه بشكل واضح ، كما لا يخفى ما يقوم به الربط الإحالي بالضمير في هذه الجمل من جذب الأفكار المتعددة والمتنوعة نحو البؤرة المركزية للنص ؛ مما يسهل على المتلقي ربط عناصر النص أحدها بالآخر ، وإرجاع كل حالة إلى مرجعها النصي .

بيد أن بناء النص اقتضى في الجملة الأخيرة مغايرة في أسلوبها لما سبقه ، فلم يقل "وكان منها طائفة " وإنما قال : " أَصَابَ مِنْهَا طَائِفَة "على الرغم من أن الجملة وما يتعلق بها معطوفة على جملة " أَصَابَ أَرْضًا "وتلك دقة دلالة متناهية ؛ إذ إن تلك الطائفة الأخيرة تختلف عن الطائفتين السابقتين ، فهي لم تقبل أساساً هدى الله وعلمه ، وتكبرت وتعالت في غيها ؛ ولذا لا تجدي معها أية وسيلة من وسائل التوجيه والإرشاد للإقناع والتمكين ، فهي غير نافعة ، وغير منتفعة .

ومن ثم قال عليه السلام : " لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا " وهي كناية عن العناد والصلف والكبرياء ، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ حتى إن الرأس لم يتحرك ، وفي ذلك دقة دلالية في التعبير عن الجمود وعدم التأثر والاستجابة ، ويبدو أنه خص الرفع من أحوال الرأس ؛ ليدل على أن قبول الهدى رفعة وسمو ؛ إذ ترفع الدعوة مستوى البشر ، وتصعد بهم إلى روحانية عالية في علاقتهم بخالقهم ﷻ، في حين يدل عدم رفع الرأس على الهبوط والانحطاط وضياع النفع والخير ، كما أن تكرار لفظ " مثل " جاء ليحدث تقابلا دلاليا ، لتصبح معه الصورة كاملة وتامة ، إذ إنه نوع آخر مخالف لما قبله .

ومما يلزم الإشارة إليه أن الحديث لم يذكر الصنف الرابع من أحوال الناس الذي تقتضيه القسمة العقلية ، وهو من انتفع بالهدى والعلم ، ولم ينفع به الناس ، حيث تتحكم فيه الأثرة ، فيأخذ من العلم ما يقدر ويستطيع ، ولكن يضيق به على غيره ، فهو ضنين بمعارفه ، شحيح بها على من يحيط به من الناس في بيئته ومجتمعه ووطنه ، هذا الصنف لا نراه في الطائفة الطيبة ، ولا في الطائفة الأخرى القيعان ، وقد يشعر هذا بانعدام وجود ذلك الصنف بين المسلمين ؛ وهو ما يرفضه الإسلام ، ويحاسب صاحبه على هذا التقصير .

لأن البلاغ واجب على المسلم ، وهو جزء رئيس من العمل بالعلم ، إذ تَوعَّد عليه السلام من كتم العلم بلجام من نار ، فقال ﷺ : " **مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ، ثُمَّ كَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ** ". رواه الترمذي، ومن أجل ذلك اكتفى الحديث في بيان أحوال الناس تجاه الهدى والعلم بالأصناف الثلاثة فحسب .

وأشار الطيبي إلى الصنفين الذي سكت عنهما الحديث ، أحدهما : النافع غير المنتفع ، وهو النوع الثاني من الطائفة الطيبة الذي يفهم من سياق الحديث ، والآخر : المنتفع غير النافع الذي تستلزمه القسمة العقلية لأصناف الناس في الحديث ، وذلك في قوله :

" بقي من أقسام الناس قسمان : أحدهما : الذي انتفع بالعلم في نفسه ولم يُعلِّمه غيره ، والثاني من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره ، قلت : والأول : داخل في الأول ، لأن النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه ، وكذلك ما تنبته الأرض ، فمنه ما ينتفع الناس به ، ومنه ما يصير هشيما ، وأما الثاني فإن كان عَمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه ، وإن ترك الفرائض أيضًا فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه ، ولعله يدخل في عموم :" من لم يرفع بذلك رأسا " والله أعلم " .(١٠)

وبذلك اعتمد الحديث الشريف في أداء مهمة التبيين والإبلاغ على أسلوب من أساليب الإيضاح والتعليم ، وهو التشبيه التمثيلي ، لما له من تأثير بالغ على المتلقي في توضيح الغامض ، وتقريب المراد لعقله ، وتصويره في صورة محسوسة ، وذلك تعضيدا لخطاب الأمر والنهي من حيث : التذكير والنصح ، والوعظ والحث ، والترغيب والترهيب وغيرها .

فضلًا عن أن هذا اللون البلاغي يشحذ ذهن المتلقي ، ويدفعه إلى التأمل والتفكير فيما بين المشبه والمشبه به من وجوه الشبه ، وفي ذلك تربية لعقله على التفكير الصحيح ، والقياس المنطقي السليم بربط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها .

أما من حيث دلالة التشبيه ، فهو يدل على فضل العلم والتعليم في حياة الإنسان ، وضرورة الحث عليهما ، وبيان الصفات والآداب التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم ، وكذلك يدل على ذم الإعراض عن العلم والعمل به .

ومن صور التشبيه التمثيلي الرائعة ما روي عن النعمان بن بشير ﷺ قال رسول الله ﷺ :" **مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا ، وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا ، إِذَا اسْتَقَوْا من الْمَاءَ ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا ، هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا** ". رواه البخاري

ونتناول بعض المفردات التي تساعد في توضيح الصورة ، ومنها :

القائم على حدود الله : من وسِّد إليه أمرها ، والقيام بحفظها ورعايتها ؛ أي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحدود الله هي : كل ما حده الله لعباده ،

ونهاهم عن تعديه وتجاوزه من أحكام الشريعة ، وأصل الحد في اللغة : المنع والفصل بين شيئين ، واستهموا : اقترعوا ، واستهموا على السفينة ؛ أي: اقتسموا أماكنها بالقرعة، وأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ؛ أي : كان مكان بعضهم أعلاها ، ومكان بعضهم أسفلها ، وخرقنا : الخرق هو الشق أو الثقب ، وأخذوا على أيديهم ؛ أي : منعوهم بقوة .

يكشف هذا الحديث عن رؤية الرسولﷺ للمجتمع المسلم ، وأهمية الحفاظ عليه ، وصيانته من أن تقوض أركانه المنكرات والأهواء ، ويمزق وحدته الصراع الطبقي بين أفراده ، واهتمام بعضهم بالمصلحة الخاصة وتقديمها على العامة ، وبناء على هذا يشحذ عليه السلام همم المسلمين وخصوصا أهل العلم والدين إلى أن ينهضوا بمسؤولياتهم الجماعية العليا في سبيل وحدة المجتمع وحمايته وتماسكه ، والعمل دون خوف أو وجل لنجاته من الهلاك الذي قد ينجم عن تقصيرهم فيما يجب عليهم .

وقد حرص ﷺ على توضيح هذه الرؤية ، وإلقاء الضوء الكاشف عليها عن طريق التشبيه التمثيلي الذي استعان به ؛ ليصور من خلاله المجتمع المسلم الذي يضم صنفين من الناس ما بين ناه عن المنكر ، وفاعل له ، وما يدور بينهما من صراع ، وأسبابه ، وكيفية علاجه ، فالصنف الأول يقوم بمسؤوليته الجماعية ، وينهض بالمهمة العظمى ، ويحمل الأمانة الكبرى ، فينكر المنكر ، ويسعى إلى منعه ودفعه بكل قوة ممكنة ؛ ليحافظ على سلامة المجتمع وقوة تماسكه ، وصلاح أمره ، وسعادة أبنائه فرادى وجماعات .

والصنف الثاني : يخرج على حدود الله ، وقواعد الإسلام ، والسلوكيات الراشدة ، والقيم الثابتة ، والأوضاع الصحيحة ؛ فيقترف المعاصي ، ويخوض في

الآثام والموبقات ؛ مما يؤدي إلى تفشي الأدواء الاجتماعية الخطيرة ، ومظاهر الانحلال التي هي الداء العضال لفساد أوضاع المجتمع ؛ مما يؤذن بانهياره ، وحلول عقاب الله على كافة أفراده، دون تمييز بين الصالح منهم والطالح ، حيث يعم البلاء الجميع .

ثم يبين ﷺ أن سبيل العلاج والنجاة من هذا الأمر الخطير ، يكمن فيما يقوم به الصنف الأول من القيام بالواجب الاجتماعي والمسؤولية الجماعية ، بكف أيدى العصاة عن العبث بمصلحة المجتمع ، والحد من حريتهم الشخصية المطلقة ، وتقييدها بقيود مصلحة الجماعة ، وذلك بعد إرشادهم أولًا إلى مسالك الرشد والهداية ؛ لتتحقق للمجتمع المسلم سلامته وحمايته من أمواج الشر وآثار الفتن ؛ حتى تسير الحياة في مسارها الصحيح دون أن يلحق بها ما يعرضها للخطر والهلاك .

وهذه الحال من حالات المجتمعات ومن فيها من أفراد وجماعات جعلها عليه السلام تشبه حال سفينة ومن فيها من ركاب ، وقد مخرت بهم عباب البحر ، وحاولوا أن يقتسموا مساحتها وأماكنها فيما بينهم عن طريق القرعة ، فكان لكل مجموعة منهم مساحة محدودة يجلس فيها ، إلى أن تصل السفينة بهم إلى نهاية الرحلة وشاطئ الأمان .

وعلى ذلك فكان من نصيب بعضهم الجزء الأعلى من السفينة ، وكان من نصيب الآخرين الجزء الأسفل منها، وبعد أن استقروا فيها ، بدا لنا مشهد آخر ، هو أن أهل السفل أرادوا الماء لاستخدامه في الشرب وأغراض أخرى ، فاضطروا إلى الصعود إلى أعلى السفينة ، ومروا على من فوقهم ، وملأوا آنيتهم ، ثم عادوا إلى مكانهم، بيد أنهم اعتبروا ذلك نوعا من المشقة المجهدة لهم ، كما أنهم رأوا فيه إيذاء لأهل القسم الأعلى .

ونتيجة لذلك عنت في أذهانهم فكرة عيية خطيرة ، وهي أن يثقبوا السفينة من الأسفل ؛ ليتمكنوا من الحصول على ما يشاؤون من الماء ، ويستريحوا من مشقة الصعود إلى أعلى السفينة ، ودون أن يلحقوا ضررا برفاقهم في العلو، ويحدثوا لهم جلبة ظاهرة ، وحركة صاخبة بسبب المرور عليهم .

بيد أن هؤلاء لم يدر في خلدهم أن اقتراحهم خرق السفينة سيكون سببًا في دخول الماء إليها ؛ فتغرق ، وتهوي بهم إلى القاع الذي سيصير قبرًا لهم.

ولأجل ذلك إن تركهم رفاقهم في أعلى السفينة ، لينفذوا فعلتهم الشنعاء ، كانوا هم وإياهم في الهلاك سواء ، حيث لم يتميز المفسد في الهلاك من غيره ، ولا الصالح منهم من الطالح ، وتلك هي العاقبة المحتومة ، وإن تداركوا ذلك الخطر بأقصى سرعة ، ومنعوهم بكل قوة ممكنة مما عزموا عليه ، بعد أن يكونوا قد أفهموهم وبصروهم بسوء عاقبة تصرفهم الذي فيه الغرق والموت المجهد القاسي ، فإن النجاة من قبضة الموت ستكون للجميع ، وبذلك يكون أهل العلو قد قاموا بأداء مهمتهم الجماعية ، وواجبهم الاجتماعي ، على خير وجه ؛ لصالح من هم في السفينة جميعًا .

وبناء على ذلك جاءت نهاية المشهد الختامي نهاية مفتوحة على أحد الاحتمالين : فإما أن يقوم أهل الصلاح بواجبهم ؛ فيمنعوا القوم مما أرادوه من خرق السفينة ، فينجو الجميع ، وإما أن يتركوهم وشأنهم : فتكون الهلكة العامة .

والتشبيه التمثيلي هنا يقوم على تشبيه صورة ذهنية عقلية بصورة حسية واقعية ، وهو يتكون من متعدد في المشبه والمشبه به .

فقد صور من ينهض بواجب الأمر والنهي من أهل الحزم والعزم ، بصورة جماعة صالحة قد جلسوا في أعلى السفينة ، وقاموا بواجبهم بمنع من هموا بخرق

السفينة بقوة الحق ، لينجو الجميع من الهلاك ، كما صور من يرتكب المعاصي والمنكرات متعللًا بالحرية الشخصية ، بصورة جماعة ضالة عابثة نزلت في أسفل السفينة وأرادت خرقها ؛ لحاجة لهم ، وهو ما ينتهي بتلف السفينة ، وغرقها بمن فيها ، إن تُركوا لتنفيذ ما أرادوا .

وبذلك يفهم من مضمون الحديث أن الهيئة الحاصلة من قيام أفراد المجتمع بواجبهم من تغيير المنكر ، تشبه الهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد ، كما أن الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر ، تشبه الهيئة الحاصلة بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء .

ومن هنا يكون وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد بين الهيئتين أو الطرفين ، وتتمثل في حالة من الحالتين : الأولى : هيئة الهلاك المحقق في كلٍّ : من يرى المنكر ، ولا يدعو إلى تركه ، ولا يعمل على تغييره ومقاومته ، ويقصر فيما يجب عليه ، والمذنب المرتكب للمعصية ، وركاب السفينة جميعًا ، والثانية : هيئة النجاة المحققة في كلٍّ : من يقوم بما يجب عليه من الأمر والنهي ، ويطيع الله ، وركاب السفينة جميعا ، ومن ثم فالأخذ يؤدي إلى السلامة في كلٍّ ، وعدمه يؤدي إلى النهاية الأليمة في كلٍّ.

وعلى هذا الأساس يكمن وجه الشبه في الهيئة الحاصلة من النجاة في حال دون حال ، ويكون الغرض من طرح هذا التشبيه هو الدعوة إلى حث الهمم ، واستنهاض العزائم لدرء المنكرات قبل وقوعها بكل قوة ممكنة حرصًا على الصالح العام للمجتمع بكافة فئاته .

وإلى جانب هذين الصنفين من الناس الذي أشار إليهما الحديث ، هناك

صنف ثالث – وقد يمثل نسبة كبيرة في المجتمع – يدل عليه مضمون الكلام والسياق ، ولكن على نحو خفي ، وهو الصنف الصامت الذي يرى المنكر ، وما يحصل من تمرد وعصيان على مصلحة المجتمع ، ويقدر على دفعه ، ثم لا يفعل ، ويقف موقفا سلبيًا ممن يقوم به ، خوفًا أو إيثارًا للسلامة ، وخلودًا إلى الراحة ، وسكونًا إلى الهدوء ، أو استحياءً وخجلًا ، أو لعدم مبالاة بتعاليم الدين ومبادئه ، وقيم المجتمع وأخلاقه ؛ فيغض الطرف ، ويترك فاعل المنكر لشأنه ، ولا يغير في الأمر شيئًا ، بل يسكت، ويترك العمل بالحق ، ويرضى بالمنكر والظلم ؛ فلا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر.

الأمر الذي يجعل من سكوته هذا على المعاصي والموبقات ، كالمرتكب لها سواء بسواء ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، ومن رأى منكم منكرًا فليغيره .

وقد يكون سكوت الحديث عن ذكر ذلك الصنف – وهم الأغلبية في المجتمع – يُشعر بأنه يستحق الإهمال ، ويستلزم عدم تصوره في المجتمع ؛ لانعدام أثره في ميدان العمل والاجتهاد؛ لأن القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – على الرغم من مهامها الجسام – مسؤولية جماعية ، وأمر واجب ،أوجبه الله ﷻ على عباده باعتبارها من أعظم شعائر الدين .

لذا يجب على كل فرد من أفراد المجتمع – وإن احتمل الأذى في سبيل ذلك – إدراك مسؤوليته في المجتمع ورسالته في عدم ترك الفاسقين الخارجين على مبادئ الدين ، وتقاليد المجتمع السليمة ، وسلوكياته الراشدة ، دون توعية وتبصير وتوجيه ، ومقاومة لأعمالهم الفاسدة ، والتصدي لها ، ومنع انتشارها ، وبذلك تترسخ القيم ، وتسمو الأخلاق ، حتى يكثر الخير ، ويقل الشر بين الناس ، ليرتفع عنهم العقاب ، وتتحقق لهم النجاة من الهلاك والبلاء المبين .

ومن هنا تكون السفينة التي ضربها الرسول ﷺ مثلًا – كما يذكر الزيات – هي اليوم دنيا الإسلام والعروبة تقسمها الإخوان والبنون في عهود الضعف والانحلال ؛ فصار لكل منهم وطن ودولة ، ولكن هذه الأوطان المتعددة يجمعها دنيا واحدة، كما تجمع السفينة موضع الركاب ، فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط في قوام حياته بغيره ، فهو حري ألا يغرق بحريته الجمع ، والوطن الجمع حري ألا يغرق في عبابه الوطن الفرد .(١١)

وقد تعددت الألوان البلاغية التي تضافرت مع التشبيه لتمثيلي ، الذي هو عمدة البلاغة في هذا الحديث ، وتلاحمت في نسيجه وتشكيله الفني ؛ لتحقيق غايته التوضيحية التي تجمع بين التأثير والإقناع، وكان منها المقابلة التي جاءت لتكمل أبعاد الصورة ، وتزيدها وضوحا بذلك التقابل الدلالي الذي انبسط على مستوى نص الحديث ، وهيمن على صياغته بشكل واضح ، وجاء رابطًا قويًّا بين الجمل المتتابعة في النص، حيث تجلى بين : " الْقَائِمُ عَلَى حُدُودِ الله " و "الْوَاقِعُ فِيهَا " أي الواقع في المعاصي والآثام ، وكذلك بين الفريقين الذين استهموا على السفينة علوًّا وسُفلا : " فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا " و " وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا " ، وبين العاقبة التي تتمثل في واحد من الأمرين أيضا : " فَإِنْ تَرَكُوهُمْ... " و " وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ... " .

ويبدو جليًّا ما ينبض به ذلك التقابل من تناقض شديد ، وصراع عميق بين المصلحين والمفسدين سواء على مستوى المجتمع أو على مستوى السفينة ؛ مما يبرز من خلال وضع الضد بإزاء الضد ، جوهر القضية وهدفها الذي حرص الحديث على تجليته وهو أهمية القيام بواجب تغيير المنكر ، ومواجهته والتصدي له بوسائل الترغيب والترهيب ، وشحذ همم المسلمين للقيام بهذه المهمة الجليلة التي لا يقوى عليها دون رهبة إلا أهل الدين والعلم ، وهم حراس الفضيلة ،

وحماة سفينة المجتمع ؛ اتقاء لشرور الفتن التي يعم بلاؤها الجميع امتثالًا لقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ (الأنفال) .

وبذلك تأسست علاقة التقابل على مجموعة من العلاقات الدلالية الناتجة عن تتابع محورين أو أمرين كل منهما يحمل عكس معنى الآخر ، بغية إضفاء الشمولية على المعنى المراد ، وذلك بإظهار الشيء ونقيضه ، كما أن تلك العلاقة التقابلية، عملت على تمييز هذا المعنى وبلورته ؛ لتشكيل القضية الكبرى في المستوى الأعلى للنص.

وتداخلت جمل الصورة وتلاحمت، حيث جاءت على طريقة اللف والنشر ؛ لتنشيط ذهن المتلقي ، كي يقف على غرض التشبيه ومراده ، حيث تشير نوعية القوم الذين ركبوا السفينة إلى أصناف الناس في المجتمع وتعبر عنها تعبيرًا دقيقًا ، والذين يريدون أن يخرقوا السفينة بدعوى أنهم إنما يحفرون في نصيبهم ، يتلاقون تمامًا مع أولئك العصاة العابثين الذين يسيئون استخدام الحرية الفردية؛ مما يعرض المجتمع للهدم والانهيار .

أما أولئك الذين في أعلى السفينة ، وهم من أخذوا على يد العصاة ، وأنقذوا ركاب السفينة ، فإنهم يشيرون إلى القائمين على حدود الله ، وهم صنف من الناس في المجتمع لا يأتون المنكر ، وينهون عنه ، إضافة إلى أنهم يأمرون بالمعروف ، وبذلك تجسد المراد بالحديث بصورة واقعية ملموسة ؛ مما يؤكد أن البلاغة النبوية لا تقتصر على البعد الجمالي الامتاعي فحسب، بل تتجاوزه إلى أبعد من ذلك ، لتصبح وسيلة تسهم في إنتاج الدلالة ، وتدعم الغاية التمكينية في نفوس المتلقين ، وهي غاية تداولية.

أما الأسلوب الخبري في الحديث فقد احتضن التشبيه وعضده بصياغته اللغوية ، وأنتج دلالات الإلزام والتأثير على المتلقي ، وتهيئته للاستجابة ، بصورة أعمق من طبيعة الأمر الصريحة ؛ ليتحول القول بذلك إلى فعل منجز، وتتحدد دلالة الطلب في الإلزام بالقيام بواجب الأمر والنهي ، وتحمل المسؤولية الجماعية ، والانتماء الصادق حيال دينه ومجتمعه ، وتلك رسالة الفرد الحقيقية ، وهدفه الأسمى الذي يجب أن يضعه نُصب عينيه .

وهناك وسائل تأثيرية ودلالات إيحائية اعتمدت عليها الصياغة التعبيرية في تشكيل الصورة البيانية ، وتوضيح أبعادها وغاياتها ، وإثراء ناتجها الدلالي ؛ لتسهم في الإبانة عن مضمون الحديث ومراميه مع الإقناع والتأثير والتمكين في النفوس ؛ حتى يستجيب المتلقي على نحو أسرع وأفضل ، وبذلك لا يتحول القول إلى مجرد قول فحسب ، وإنما إلى فعل متحقق ومنجز على أرض الواقع .

ولعل أول ما يلفت الانتباه من بلاغة هذه الوسائل ، هو التعبير الذي استهل به الحديث" مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله " ففيه كلمة " الْقَائِمِ " التي معناها الدائم الثابت ، وما لها من دلالة على يقظة ضمير من يتصدى لهذه المهمة ، وإدراكه لهدف رسالته ، وتمكنه من الفهم الصحيح لأحكام الدين ، وفيه الحرف " عَلَى " الذي يفيد العلو الحسي والمعنوي للقائم الذي يسعى حثيثا لحراسة حدود الله ، ويسهر على حمايتها ، ويرقب عن كثب تنفيذها .

وتشير " حُدُودِ الله " إلى أن حركة القائم هي في إطار حدود الله الذي يحافظ عليها بعناية وصدق وقوة ، وجاءت " حُدُودِ " جمعًا للدلالة على كثرتها وتعددها وتنوعها ، وفي إضافتها إلى" الله "ما يدل على تعظيمها .

وفي قوله ﷺ " وَالْوَاقِعِ فِيهَا " إيجاز بالحذف ، تقديره " ومثل الواقع فيها "

وفيه دلالة على انتهاك هذا العاصي حدود الله ، وسقوطه في المهوى السحيق للمنكرات والذنوب ، كما تدل " فيها " على إحاطة تلك المنكرات به إحاطة شاملة ومتمكنة ، ولا نجاة له منها ؛ لأن هذه اللفظة تفيد معنى الظرفية والوعائية والتمكن .

وتتجلى عناية الخطاب في انتقاء الألفاظ التي تجمع بين الإثارة والإقناع ؛ لتبرز النتيجة ، وتبين العاقبة المحتومة ؛ مما يدل على دقة البلاغة النبوية في استجماع اهتمام المتلقي لما يهدف إلى تبليغه ، وتوصيله إليه بوضوح تام ، ومن ذلك قوله " كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ " حيث تبدو صفة العموم في اختيار كلمة " قَوْمٍ " لتكون نكرة ، وهي تصدق على أي قوم وافقت حالهم هذه الحالة ، كما أنها كلمة يستوي في إدراكها الناس جميعًا ، ومن ثم كان اختيار " كَمَثَلِ " للدلالة على تشبيه الهيئات والأحوال ، وليس الأفراد .

ثم ركزت الصياغة على ما يعضد القضية الرئيسة التي هي موضع عناية الحديث ، وجعلت منه تمهيدا يُسلم إلى نتيجة ، فقد بدأت الأمور في السفينة بتوزيع الأماكن بالقسمة العادلة " اسْتَهَمُوا " وانتهت بمحاولة إفساد السفينة ، وهي محاولة عابثة ، ومن ثم حرص الخطاب على إيثار استخدام الفعل الذي يعبر بدقة عن ذلك الأمر ، هو " اسْتَهَمُوا " وما فيه من دلالة على أن تقسيم أماكن السفينة بين الفريقين ، جاء وفق الحق والعدل ، ولم يكن هناك تمييز بينهم في اختيار المكان سواء لحسب أو نسب أو مال أو غيره ؛ ومن ثم ليس من حق أهل السفل أن يبدوا عدم رضاهم – فيما بعد – عن أن نصيبهم قد جاء في أسفل السفينة ، وفي هذا عناء ومشقة لهم .

وفي ذلك إشارة إلى ضرورة أن يسود مبدأ العدل والمساواة بين الناس ؛ حتى

تستل من نفوسهم الأحقاد ، وتنتزع منها الضغائن ، وتُحل مشكلة الصراع الطبقي ، ويُقضى على الفتن ، فلا تتفشى الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي يدفع وجودها إلى إفساد المجتمع وإهلاكه ، أضف إلى ذلك فهناك إشارة أخرى ، وهي أنه يجب على الإنسان أن يرضى بما قُسم له من متاع الدنيا ، ثم عليه بعد ذلك أن يسعى ويجتهد ، وليس له أن يعترض على ما قدره له خالقه ﷻ .

أما بالنسبة لكلمة " سَفِينَةٍ " ، فجاء اختيارها على سبيل التنكير ؛ ليوحي بعظم حجمها ، كما يشير اختيارها مكاناً لأولئك القوم ، على أن الهلاك سيكون سريعًا ، لو نُفذت فكرة خرقها التي تجعل السفينة وسيلة للموت والهلاك ، بعد أن ارتبطت بالسلامة والنجاة على مر العصور ، منذ عهد نوح عليه السلام ، وفي هذا دلالة على بيان الخطورة الشديدة المترتبة على تفشي المنكرات والمعاصي في المجتمع ، وفي هذا إشارة إلى أن مصير المركب مرهون بمصير المركوب ، وبذلك تكون محاولة خرق سفينة المجتمع هلاكًا لكل من فيها ، وفي نجاتها نجاة للجميع ، أي : يكمن في قوة المجتمع وتماسك أفراده في مواجهة الأخطار من خارجه وداخله ، أسباب عزته ونجاته .

ويتجلى معنى التحول والانتقال بين أمور الحياة بوجه عام في جملة : " فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا ، وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا " ، كما تدل على أن أمر الفقر والغنى هو دولة بين الناس ؛ لأنه مقدر من الرزاق ﷻ ، وليس للمرء فيه حيلة ، فعليه أن يرضى بما قسم الله له ، بعد أن يأخذ بالأسباب ، ولذلك جاءت " الفاء " للترتيب والتعقيب ، بمعنى قبول نتيجة الاقتراع ، وعدم الاعتراض عليها بداية ، وهي من عناصر الربط البنيوية والدلالية التي لها أثرها البالغ في ترابط جمل النص والتحامها.

كما تشير كلمة " أَصَابَ " إلى بلوغ الهدف ، واكتفى الحديث بذكر لفظ " بَعْضُهُمْ " بدون تحديد لأسمائهم ؛ لعدم أهمية ذكرها في مغزى التشبيه ، بيد أن لفظ " أَعْلاهَا " يدل على سمو المكانة التي تجلت معها صورة ركاب أعلى السفينة .

وركز الحديث على جانب نفسي اجتماعي في بيان أبعاد الصراع الطبقي بين الفريقين من خلال التقابل بين المكانة التي نالتها كل طبقة "أَعْلاهَا " و " أَسْفَلَهَا " ، فالطبقة العليا التي ارتقت إلى هذه المكانة من الفضل والرفعة ، قد تيسرت لها أسباب الحياة التي يرمز لها بالماء القريب منها ، بينما الطبقة السفلى تجد بعض الصعوبة والمشقة في تحقيق أسباب العيش التي يرمز لها بالماء البعيد عنها؛ ولذلك تضطر الطبقة السفلى إلى نوع من الاحتكاك بمن رزقوا المكانة العليا، وقد تزاحمهم في الحصول على ضرورات الحياة ، وفي هذا تهيئة للمتلقي ، وتمهيد له ؛ لتكون استجابته للتوجيه والإرشاد على نحو أفضل بعد ذلك ، وهو مما تهدف إليه بلاغة الحديث.

وتمضي بلاغة التعبير في الحديث في بناء العبارة " فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا ، إِذَا اسْتَقَوْا من المُاءَ ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ " لتسهم في توضيح الصورة ، وتلقي بظلالها الكاشفة على عناصرها المتعالقة والمتلاحقة في آن ، حيث جاءت " الفاء " ، رابطًا بنيويًّا ودلاليًّا لتقوية الجمل وتماسكها، وتشير"في أسفلها" إلى انغمارهم في سفحها وتداخلهم بين أرجائه ، والضمير "الهاء" فيه إحالة قبلية ، وهي من عناصر السبك النصي التي تسهم في تحقيق انسجامه شكليًّا ودلاليًّا ، وتفيد "إذا" التحقيق ، كما يدل إيثار صيغة الفعل " اسْتَقَوْا " على بذل الجهد والمشقة في الحصول على الماء من أعلى السفينة .

أما جملة جواب الشرط " مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ " فمن عناصر الحبك النصي ،

حيث تعالقت مع سابقتها لتقوية المعنى المستهدف ، إذ يفيد الفعل " مروا " كثرة المرور وتكراره ، وفي ذلك مشقة وتعب أيضًا ، ومما يلفت النظر أن تركيب الجملة جاء على هذا النحو " مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ " ولم يأتِ مروا بمن فوقهم ؛ ليبرز في دقة وإحكام حجم ما تحدثه الطبقة السفلى من صخب وقلق واضطراب يصيب الطبقة العليا .

ثم تكشف بلاغة الحديث ما يمور في أعماق الطبقة السفلى من معاناة وضيق وتألم ، لم يستطيعوا تحمله ، فباحت به ألسنتهم ، وراحوا يقولون : " لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا " حيث تصدر قولهم بأداة الشرط " لو " التي تفيد الامتناع ، وهو ما يشير إلى أن الرؤية التى طرحوها لم تكن إلا مجرد حلم أو فكرة قد عنت لهم بسبب صعوبة حصولهم على الماء ، وإيذاء من فوقهم .

وجاء جواب الشرط محذوفا وتقديره " لكان أولى وأفضل " ، وهو أبلغ من ذكره ، إذ إن الحذف من عناصر السبك النحوي التي تعمل على ربط أجزاء النص ، وهو يظهر عندما تشتمل عملية فهم النص على إمكانية إدراك الانقطاع على مستوى سطح النص ؛ لأن البنيات السطحية في النصوص غير مكتملة غالبًا ، بعكس ما يبدو لمستعمل اللغة العادي .

ويأتي دور التوكيد بطاقته التأثيرية التي اعتمد عليها الخطاب في بنائه ، من خلال مؤكدين "أن" والمفعول المطلق المؤكد للفعل " خرقًا" ؛ ليبرز بجلاء ما تشعر به نفوسهم من تحسر وتألم ، لعدم تحقق أمنيتهم ورغبتهم ، وذلك على مستوى الجميع " أننا ، خرقنا ، نصيبنا " وقد تشير "نا" الفاعلين إلى ما بينهم من مشورة وتبادل الرأي ، كما أن الإحالة بهذا الضمير تمثل عنصرًا واضحًا من عناصر السبك النصي .

بيد أن بلاغة الحديث آثرت أن تحدد موضع الخرق بقولهم " فِي نَصِيبِنَا " لتشير بذلك إلى خطورة التعلل بموضوع الحرية الفردية ، وضرورة أن ينظر إليها في إطار صالح المجتمع ، الذي يجب أن نقدم فيه مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ،فالحرية الشخصية ليست مطلقة ، بل هي مقيدة بضوابط الدين ومصلحة المجتمع .

لأن القانون في السفينة – كما يقول الرافعي – إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ؛ فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه، والعقاب لا يكون على الجرم يقذفه المجرم كما يعاقب اللص القاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة ، أو يمسه من قرب أو بعد ، ما دامت ملججة في بحرها ، سائرة إلى غايتها ؛ إذ كلمة خرق لا تحمل في السفينة معناها في الأرض ، وههنا لفظة أصغر خرق ليس لها إلا معنى واحد هو أوسع قبر .(١٢)

أما الاحتراس في قولهم :" وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا " وهو معطوف على جملة الشرط ، فيدل على حسن نيتهم ، وعفة لسانهم ، ولكن حسن النية ليس بكافٍ ؛ لأن أولئك القوم مهما تعللوا بحرصهم على عدم إيذاء من فوقهم ، فإن ذلك لا يشفع لهم ، ولا يمنع من ترك الإنكار عليهم ، ولا يكون مصححًا لعملهم مطلقًا .

بل يجب منع هذا المنكر الذي أقدموا عليه ؛ لأن الفعل الذي أقدموا عليه هو في حد ذاته خطأ ومنكر ، ولا يمكن أن يحكم عليه بالصواب اعتمادًا على حسن نيتهم ، وما لهم من عذر مقبول ؛ إذ إن الضرر الخاص يجب أن تتحمل توابعه في سبيل دفع الضرر العام ، ومن ثم يجب على أهل السفل أن يتحملوا مشقة الصعود والنزول دفعًا للضرر العام الذي سيقع على السفينة ومن فيها .

وقد كان الأولى بأولئك القوم أن يعرضوا رأيهم على ركاب السفينة جميعًا ، ولا يستأثرون به لأنفسهم دون سواهم ، فالمشورة حق مكفول للجميع ، الذين لا يجتمعون على ضلالة أبدًا .

وتصل قصة السفينة بما تفيض من حركة وحيوية ومشاهد متتابعة ، إلى مشهدها الأخير الذي ينتهي بخاتمة تبرز فيها جلية العاقبة التي تتمثل في : "فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا ، ونجوا جَمِيعًا" .

وفي تلك العبارة الحاسمة يتجلى مغزى القضية الكبرى وهدفها الأساس الذي سيقت من أجله بما يوحي للمتلقي بأهمية تغيير المنكر ، والقيام على حدود الله ، بحيث يجعله مستحضرًا لتلك النتائج الخطيرة المترتبة على التقاعس والتقصير فيما يجب عليه نحو دينه ومجتمعه .

واعتمدت الصياغة التعبيرية للعبارة في بناء الخطاب اللغوي على وسائل إيحائية ، منها استخدام أداة الربط " الفاء" التي هي إحدى أدوات السبك النصي، حيث تطوي الزمن بين أمنية هؤلاء ، وترك أولئك لهم وهلاك الجميع ، وكذلك إيثار استعمال أداة الشرط الرابطة " إن " مع فعل الشرط " يَتْرُكُوهُمْ "، وهي إذا دخلت على الماضي يكون ماضيًا لفظًا، مستقبلًا معنى، وتفيد هنا الشك ، وعدم الجزم بوقوع الشرط ، وفيه دلالة على أن الترك لا يحصل ، إشارة إلى وعي أبناء الأمة ، وأنهم سيقومون بتحمل مسؤولياتهم الجماعية ، ويؤدون رسالتهم المنوطة بهم تجاه دينهم وأمتهم ؛ لأن من قام من المسلمين بإنكار المنكر كان قائمًا بغرض كفاية عنهم .

أما الإحالة بالواو في " يَتْرُكُوهُمْ " فتعود إلى أهل العلو في السفينة ، وتعود الإحالة بالضمير (هم) إلى أهل السفل ؛ مما أسهم في تحقيق التماسك داخل

الوحدة النصية ، وبالتالي بين الوحدات النصية المكونة للنص الكلي باعتبار الوحدة الموضوعية للحديث.

وحذف المفعول للإيجاز في جملة " وَمَا أَرَادُوا " وهو ضمير الغائب الذي يعود على الخرق ؛ أي : ما أرادوه من الخرق ، وإحداث الفجوة ، وغرضه توفير العناية للفاعل ، وتوجيه المتلقي إلى أن يتخيل ما يمكن تخيله نحو المراد من الخرق ، وبذلك يحقق الحذف الترابط النصي من خلال البحث عما يملأ الفراغ الذي يتركه فيما سبق من خطاب ؛ ومن ثم يقوم المتلقي للنص بعملية الربط التلقائي بين السياق الحالي وما سبق ؛ فيحس بلذة هذا الجهد الذي يبذله في قراءة النص وتفسيره ، وهنا يكون قد شارك في إنتاجه ، فتتحقق حيوية التلقي .

فالحذف كما يعرفه دي بو جراند : استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو أن يعدل بوساطة العبارات الناقصة(١٣) .

أما جواب الشرط " هَلَكُوا جَمِيعًا " فجاء متعالقًا مع جملة فعل الشرط ، وهو من عناصر الحبك ، وقد أتى ليحمل بين طياته أشد ألوان التحذير من سوء العاقبة ، وعموم العقاب ، إذا ما ترك المنكر دون إنكار ، إذ تصبح النتيجة الحتمية ، والعاقبة الأكيدة لهذا الترك هي الهلاك المدمر الذي يشمل الجميع عصاة ومؤمنين سواء بسواء؛ إذ يتعدى الخطر مرتكب المعصية والخطأ ؛ لينال من حوله ، وهكذا حتى يلتهم المجتمع عن آخره ، ولذلك تعود (الواو) في " هلكوا " على الطرفين معًا .

ثم يتجلى البعد الآخر للمشهد في جملة " وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا ، ونجوا جَمِيعًا " فيضع الضد بإزاء الضد ؛ ليحدث تقابلًا دلاليًا يكون أشد تميزًا ؛

ليشكل ظاهرة بارزة في النص ، تسهم في إحداث الأثر الجمالي ، وتخلق عنصر التأثير لدى المتلقي ، كما تعمل على رفع وتيرة الخطاب ؛ فتتضح معها الصورة كاملة ؛ لتكشف عن الدور الإيجابي الفاعل للقيام بمبدأ الأمر والنهي في سلامة السفينة المعنوية للمجتمع ، والسفينة الحسية للركاب .

كما يبرز – في الوقت نفسه – خطر الخارجين والعصاة وأضرارهم المدمرة التي تنال المجتمع ، إذا تركوا دون إقامة الحدود عليهم ، وتطبيقها بالزجر والردع ، بعد أن تُستنفد معهم أولًا كافة الوسائل المشروعة من النصح والتوجيه والإرشاد ، والتبصير والتنبيه ، ولذلك جاءت " أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ " كناية عن منع المفسدين عن فسادهم بالشدة والقوة والحسم ، وسرعة تدارك خطرهم ، وإنجاز الهدف على نحو أفضل .

ولا يخفى ما في التعبير بالحرف "على" من إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة ، أي قوة الحق التي تعتلي فوق الباطل وتزهقه .

وفي النهاية يبث الخطاب النبوي عبر جملته الختامية رسالة للمتلقي تضم بين طياتها طمأنينة وإيجابية وترغيب في القيام بالمسؤولية الجماعية " نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا " وفيها آثرت البلاغة النبوية أن تنوع في استخدام "واو" الجماعة مع الفعل "نجا" في الحالتين، فقد عادت الواو في " نَجَوْا " الأولى على الطبقة السفلى فقط ، فكانت النجاة لها منفردة ، أما الواو في " نَجَوْا "الثانية ، فعادت على الطبقتين : السفلى والعليا ، فكانت النجاة لهما معًا ؛ وبذلك تقوم الإحالة بالضمير (الواو) بعملية مراعاة للسياق ، وتخلق تماسكًا بين أجزاء النص .

ومن هنا كان تحقق النجاة للعصاة مرتين ، مرة على نحو منفرد ، ومرة على نحو مندمج مع المصلحين ؛ مما يشير إلى أن منع الفساد فيه أولًا سلامة المفسدين

أنفسهم ، كما يعكس ذكر الجملة بالصياغة نفسها ، مرة في جواب الشرط " نَجَوْا "، ومرة في المعطوف بشكل متتال " نَجَوْا " ، الرغبة في توصيل الخطاب إلى المتلقين بتلك الصياغة اللغوية التأثيرية التي يتكئ عليها النص في إبراز قضية المسؤولية الجماعية وأهميتها بالنسبة لكل فرد من أفراد المجتمع بوصفها سبيل الخلاص والنجاة للأمة بكافة أطيافها وفئاتها .

ومما سبق يتضح أن الصور التشبيهية في الحديث النبوي الشريف جاءت تفيض بإضاءات فنية كاشفة أسهمت في إبراز المضمون وتوضيحه ، وبثه للمتلقي ؛ حتى يؤثر في نفسه ، ويرسخ في ذهنه ؛ لتتحقق حيوية التلقي .

الاستعارة :

تعد الاستعارة أشهر صور المجاز اللغوي وأرحبها أفقًا ، وقد ظفرت باهتمام النقاد العرب القدامى ، وعلماء اللسانيات في العصر الحديث ، وخاصة في مجال علم الدلالة والأسلوبية .

وحاول جل البلاغيين العرب الربط بين الاستعارة والتشبيه ، حيث يردونها إليه ؛ لأنه أصل لها ، وهي فرع منه ، ومما قال عبد القاهر في ذلك : " أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل " ، وقوله : "فالاستعارة تعتمد التشبيه أبدًا" (١٤).

أما تعريف عبد القاهر للاستعارة فهو : "... أن الاستعارة في الجملة أن يكون اللفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وُضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم". (١٥)

ويقترب عبد القاهر إلى حد كبير في هذا التعريف مما ذهب إليه أصحاب النظرية الأسلوبية في نظرتهم إلى الاستعارة نظرة لغوية محضة، بوصفها تركيبًا لغويًا له خصائصه وسماته المميزة ، ودون النظر إليها من زاوية العلاقة بينها وبينه التشبيه ، ويتجلى ذلك في تعريفهم بأنها اختيار معجمي تقترن بمقتضاه كلمتان في مركب لفظي "collocation" اقترانًا دلاليًا ينطوي على تعارض ، أو عدم انسجام منطقي ؛ يتولد عنه بالضرورة مفارقة دلالية "semantic" تثير لدى المتلقي شعورًا بالدهشة والطرافة ، وتكمن علة الدهشة والطرافة ، فيما تحدثه المفارقة الدلالية من مفاجأة للمتلقي بمخالفتها الاختيار المتوقع " (١٦) .

وبذلك يكون ما أشار إليه علماء الأسلوب من أن جوهر المفارقة الدلالية يكمن في نقل الخصائص من أحد عنصري المركب اللفظي إلى العنصر الآخر ، هو تقريبًا ما يعبر عنه كلام عبد القاهر في تعريفه للاستعارة من أن اللفظ المستعار يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير معناه الأصلي المعروف به في الوضع اللغوي، وينقله إليه نقلًا غير لازم .

وتصنف الاستعارة لدى الأسلوبيين بحسب خصائصها الدلالية إلى ثلاثة أنواع : التجسيمية ، وتكون باقتران كلمة تشير دلالتها إلى جماد بأخرى تشير دلالتها إلى مجرد ، والاستحيائية ، وتحصل باقتران كلمة يرتبط مجال استخدامها بالكائن الحي ، بشرط ألا تكون من خصائص البشر ، بأخرى ترتبط دلالتها بمعنى مجرد أو جماد ، والتشخيصية ، وتكون باقتران كلمتين إحداهما تشير إلى خاصية بشرية ، والأخرى إلى جماد أو حي ، أو مجرد.

وواضح أن هذه الخصائص الدلالية للاستعارة ، وأنواعها الثلاثة عند الأسلوبيين المحدثين لا تكاد – كما يذكر أستاذنا الدكتور شفيع السيد – تتجاوز ما أشار إليه عبد القاهر عن ميزات الاستعارة . (١٧)

وكان عبد القاهر الجرجاني من أكثر النقاد القدامى إدراكًا لوظيفة الاستعارة ، وبيان فضلها على سائر أقسام التعبير البلاغي ويتضح ذلك في قوله :" فإنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا ، والأعجم فصيحًا ، والأجسام الخُرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية ... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل ، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطَّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون (١٨) .

كما ذكر أيضًا من ميزاتها أنها ترفع من قدر البيان ، وتعيد إليه حيوية افتقدها

من كثرة التكرار ، وكذلك اتساع دائرة الاستخدام للفظة الواحدة حتى لتراها تتكرر في مواقع شتى ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد .[١٩]

أما طبيعة العلاقة بين طرفي الاستعارة فتكمن في مناسبة المستعار منه للمستعار له ، والمراد بالمناسبة هنا هو قوة المشابهة ؛ لأن الاستعارة مبنية على تناسي التشبيه ، وعلى ادعاء أن المستعار له من جنس المستعار منه ، فهي ادعاء بالتشبيه لا بالنقيض ، بمعنى تكثيف الصورة التشبيهية ؛ ولذلك يبين الجرجاني أن تسمية الاستعارة بالنقل تسمية غير موفقة ؛ لأن نقل الكلمة إلى المجال الاستعاري لا يعني موتها في مجالها اللغوي المعهود الذي وضعت له ، ولذلك يستعيض عن مصطلح النقل بآخر هو الادّعاء.[٢٠]

فالمشابهة في الاستعارة اختزلت ، وتسربت في تركيب جديد يقوم على كشف علاقات جديدة بين الأشياء ، وعلى تقديم دلالات جمالية ، وصور منسجمة ، فهي تبتعد عن ثنائية الطرفين ، وتقترب من تلاحمهما ، حيث يتفاعل كل منهما مع الآخر، ويعدل عنه ؛ ليكتسب دلالات جديدة نتيجة لتفاعله مع الطرف الآخر داخل سياق الاستعارة ، ويطلق حديثا على هذا التفاعل مصطلح الإدماج والتماهي ؛ أي : تبادل الماهيات ، وقد سبق إلى هذا القول الجرجاني في حديثه عن التلاحم المتشكل من التشبيه أو الاستعارة .

كما تندرج الاستعارة تحت ما يسمى في النقد الحديث بالانزياح بأشكاله : الصوتية والتركيبية والدلالية ، ومصطلحاته : العدول والتجاوز والانحراف وسواها ، ويعرَّف الانزياح بأنه الخروج على النمط السائد بشرط أن يكون ناجمًا عن قصدية المبدع .[٢١]

وقد غدا النقاد المحدثون يعنون بمدلول الاستعارة النفسي وتلقي لونها البلاغي كتلة واحدة ، وهو ما نحاول أن يكون منهجنا في الدراسة التحليلية للصورة الاستعارية في نص الحديث الشريف ، وما تميزت به من إمكانات دلالية وطاقات جمالية بلغت أوج تأثيرها الفني والوجداني،دون العناية بحدها الاصطلاحي ، وبيان أنواعها ، والانشغال بها في ذاتها ، فذلك ما لا جدوى منه في الدرس البلاغي الذي لا بد له من الإفادة من المناهج النقدية المعاصرة ، خاصة في عملية التلقي للنص والتفاعل معه ، الذي تبرز فيه العلاقة بين النص والمتلقي واضحة .

إذ إن إدراك جوانب التفاعل المتشكل داخل سياق الاستعارات في الحديث الشريف الذي يتفاعل بدوره مع السياق العام للنص ، يفتح في حالة التلقي آفاقًا رحبة لاستشفاف المعاني ، والكشف عن الدلالات الجديدة في فضاء المفردات والرصيد اللغوي ؛ مما يزيد من وضوح الجمال الفني للنص ، فأفق التلقي واسع وعريض ، والنص مفتوح بدلالته المتعددة ، ولكنها ليست متناقضة كما في بعض الأدبيات ، بل تحكمه شروط الحق والجمال، بعيدًا عن التداعيات والتقولات التي لا ثمرة منها .

وعلى هذا الأساس يكون النص عملًا فنيًّا مشتركًا يسهم فيه صاحبه بخلاصة تجربته ، وتسهم فيه اللغة بدلالاتها الموحية ، كما يسهم فيه المتلقي بخبرته الفنية وذوقه الجمالي ، فالعلاقة بين هذه المحاور تشبه بناءً هرميًّا : النص ، والمرسِل ، والمرسَل إليه ، وتكون جمالية التلقي هي خلاصة تلك العلاقات التي تتواثب ، وتتكامل في لحظات التفاعل مع النص .

ويحفل الحديث النبوي بصور شتى من روائع الاستعارات وما تتميز به من طرافة وجدة ، كما جاءت عامل تجسيم للمجردات ، وتشخيص للجمادات ، إلى

جانب بث الحركة في الكائنات المصورة ؛ لترسم فيها لوحات فنية متكاملة الأبعاد ، وتأتي هذه الاستعارات – في الوقت نفسه – متداخلة ، ومتفاعلة في انسجام تـام ، ونسيج محكم مع الألوان والأساليب البلاغية الأخرى التـي يزخـر بهـا الحـديث الشريف ، إذ لم تأت هذه المظاهر منفصلة ، ولم يختص بهـا حـديث دون الآخـر ، ومن ثم لا تجدي معالجتها بصورة منفردة نتيجة لهذا التعالق والترابط .

ولذلك جاء التحليل البلاغي هنا يسير في إطار خاصية التداخل والـتلاحم ، ومراعيًا – في ذات الوقت – سياق النص بمحدداته وعناصره المتعددة التي تعضد عملية التواصل التبليغي ، وبـذلك تـتجلى الأبعـاد الإقناعيـة التمكينيـة للألـوان البلاغية باعتبارها رافدًا ثريًّا يصب في مجـرى الغايـة التعليميـة بإطارهـا الـشامل المتمثل في الأمر والنهي .

ونتناول بالتحليل بعض الصور البيانية الرائعـة التـي تـشكل منهـا الحـديث النبوي ، حيث اعتمدت صياغة الاستعارة على المشاهدات وتقريـب المتباعـدات والمفاهيم المجردة من الأذهـان ، واتخـذت شـكلًا فنيًّـا يناسـب مقاصـد الـدعوة السامية ، وغايتها الرفيعة ، وجاء هذا الشكل يتسم بحيوية الأداء ، وفيض الدلالة ، وجمال الإيحاء ؛ ولذا عبر إلى أعماق النفس ، محققًـا التواصـل التبليغـي المبتغـى في الخطاب النبوي في الحديث الشريف ، ومن نماذج ذلك قولـه ﷺ :" **لا تَسْتَضِيئُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ** " النسائي .

وقد استخدم الشكل الاستعاري في هذا الحديث الـشريف التجسيم وسـيلة فنية ؛ ليبرز الفكرة التي طرحها ، وهي المشورة والإفادة من الرأي ، ويدعم صدقها من أجل تبليغها كاملة واضحة ومؤثرة بحضورها أمام الأعين بعناصرها الحـسية ، وبقيمها الجمالية الماثلة في الأذهان والنفوس ، حيث عبر عـن المـشورة الـصحيحة والرأي السديد بالضياء الذي يضيء للمسلم مسالك شؤونه ؛ فيهتدي به .

ولكن تتجلى المغايرة في لغة التجسيم الانحرافية أو المجازية في اختيار كلمة "نار" مع الفعل "تستضيئوا" بدلًا من "نور" وما فيها من دقة ودلالة على أنها لا تهدي بل تحرق ، فهي محرقة أكثر من كونها مضيئة ، وفيها إشارة أيضا إلى نار جهنم مثوى المشركين ؛ إذ إن أفكارهم يغلب عليها الانحراف والهوى والطمع تجاه ما يغضب الله ﷻ.

ولذا جاء الحديث مصدرًا بأسلوب النهي الصريح الذي يحذر من الاعتماد على رأي المشركين أو مشورتهم أو الركون إليهم في أي أمر من أمور المسلمين ، ففيه تضليل لهم عن الصواب ؛ مما يعرضهم للهلاك والثبور ؛ ومن ثم جاء النهى متجاوبًا مع عناصر الصورة والسياق الداخلي .

وواضح أن تشبيه رأي المشركين بالنار ينقل الفكرة من التجريد إلى التجسيم؛ لتكون تلك العملية الفنية وسيلة اتصال بين العالم الداخلي للفكرة المجردة ، وبين مدركات العالم الحسي ؛ مما يجعل تلك الفكرة تدخل على المخاطبين من أبواب واسعة ، وتستحوذ عليهم من منافذ متعددة ، ليستجيبوا لنهي الرسول ﷺ وتحذيره الواضح الذي انبسط على امتداد الحديث .

ومن الاستعارات التي تصور المعنى تصويرًا صوتيًّا ينبع من جرس اللفظة ونظمها في الجملة ، ما روته خَوْلَةَ بِنْت ثَامِرٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، **" أَنَّ رِجَالا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ الله عَزَّ وَجَلَّ بِغَيْرِ حق ،فَلهم النَّار يَومَ القيامةِ "**. رواه البخاري.

وتتمثل الصورة في هذا الحديث في استعارة فعل الخوض في الماء واقتحامه بقوة ، للتعبير عن التصرف في مال الله ، والتجني عليه بغير حق ، دون النظر إلى حلال أو حرام ، وبذلك نقل الحديث المعنى الذهني المجرد وهو العبث في مال الله إلى صورة حسية وهي الخوض في المال ؛ لأن الخوض يكون بالدخول في الماء ،

وليس في المال ، حيث شبه المال بالماء بجامع حسن الانتفاع والاستمتاع بكليهما ، وحذف المشبه به (الماء) وأبقى شيئا من لوازمه هو "يَتَخَوَّضُونَ" ؛ لإعطاء صورة واضحة ومجسمة للتعدي الكثير والمستمر على مال الله بجرأة دون خوف أو وجل .

فالاستعارة من أبرز الوسائل البيانية التي تبرز الحس الخفي والشعور الغامض والفكرة المحتجبة ، وتأتي لغتها المجازية التي تشير وتومئ، لضرورة فكرية للتعبير عما يدق على اللغة المباشرة ، كما أنها تأتي لضرورة فنية تضيف تأثيرات جديدة ، وتشكل لغة جمالية مؤثرة ؛ ولذلك يمثل الخيال عنصرًا مهمًّا في عملية الإبداع ؛ لأن مساحة الإحساس تغدو أكثر اتساعًا من الرؤية الحسية سواء بالنسبة للمبدع أو المتلقي.

ومما يسهم في توضيح الصورة وتعضيدها التركيب الصوتي لحروف الفعل "يَتَخَوَّضُونَ" حيث أبرز الصورة الحسية للذين يتخوضون في مال الله ، وذلك بمجيء الفعل على صيغة "تفعّل" التي تفيد معنى المبالغة والتكثير .

كما أعطى جرس الفعل بمقاطعه وحروفه صورة صوتية للحركة القوية والعنيفة لتلاطم الأمواج ؛ مما يدل على الحالة التي يكون عليها أولئك الخائضون في مال الله من جرأة واقتحام وعلانية في التصرف في هذا المال دون النظر إلى كيفية تحصيله أهو من حلال أو حرام ، وكذلك يشير الخوض داخل المياه إلى إحاطة الباطل بهم ، وسيطرة الضلال على مناحي حياتهم .

ومما له دور بارز أيضًا في توضيح الصورة مجيء الفعل "يَتَخَوَّضُونَ" بصيغة المضارعة للدلالة على الاستمرار في الاعتداء على مال الله ، كما استكمل التصوير باستعمال حرف الجر "في" الذي يفيد الظرفية "فِي مَالِ الله" ليدل على مدى انغمارهم في مال الله وتداخلهم فيه تداخلًا بعيدًا ، وكأنهم غرقوا لشحمة آذانهم في الجشع والتجني والأخذ منه بدون حق .

وجاء الحديث يفيض بالوسائل البلاغية التي تضافرت مع الاستعارة في تحقيق غاية التأثير والإقناع ، إذ جاء الأسلوب في الحديث معتمدًا على الأسلوب الخبري وغرضه التحذير من القيام بهذا العمل ، واستهل الأسلوب بوسيلة التوكيد "إن" التي تؤكد وقوع هذا الفعل ، وتحمل دلالة قوية على فداحة القيام به ، كما زادت الصورة فاعلية بتنكير" رِجَالًا " للدلالة على التعميم ، وجعلها جمعا للكثرة والتعدد ؛ أي: كثرة الرجال الذين يتعدون على مال الله .

وفي هذا تحذير وإنذار لكل إنسان من اقتراف هذا العمل المشين ، وبذلك يستقر في ذهن المتلقي خطورة ذلك الصنيع ، فيكون هذا أدعى إلى أن يراجع نفسه ، ويعودها على ألا تنال من مال الله شيئا إلا بالحق ، وتتجنب ما سوى ذلك ، حتى لا يصيبها العذاب والهلاك في نار جهنم . وهذا من منهج التهذيب في الأسلوب النبوي .

أما خاتمة الحديث فجاءت لتبين بوضوح سوء العاقبة التي تصيب من يجور على مال الله ، وتضع نتيجة ذلك الصنيع ماثلة بين يدي المتلقي في تركيب صارم حازم حاملًا الوعيد والتهديد بأسلوب التقديم " فَلهم النَّار يَومَ القيامةِ " فقدم المسند " لهم" على المسند إليه " النار " ليفيد التخصيص ، وهو أن النار لهم لا تتعداهم إلى سواهم.

وجاءت الفاء في" فَلهم " لتحقق الترابط الدلالي ، والتماسك النصي ، وتقوية أواصر التركيب ، حتى غدا الحديث كأنه جملة واحدة ، وهي تفيد الترتيب والتعقيب ، كما جاء تخصيص النار والعذاب بيوم القيامة ؛ ليشعر المرء بالرهبة والفزع من هول هذا اليوم ؛ حتى يقلع عن الخوض في مال الله بدون حق ، وبذلك جاء الحديث على إيجازه يكتنز قدرًا هائلًا من الدلالات البلاغية التي توضح الصورة وتقويها .

ويكثر التجسيم في الحديث النبوي ؛ لأن الحديث يحتوي على مضامين فكرية وغيبية بوصفه نصًّا دينيًّا ، ومن ثم يمثل التجسيم وسيلة فنية جمالية تجمع أنواعًا كثيرة من الصور التي يتبدى فيها الخيال والانزياح ، فيقدم وعيًا جديدًا للمجردات ، ويضيف معرفة جديدة للمتلقي في التشكيل اللغوي الجمالي ، عبر سياقات ذات طابع غير معهود ، فضلًا عن أن الصورة المجسمة تأتي متعالقة ومتآزرة مع سائر جسد الحديث في تقديم فكرة فنية ، هي قالب الفكر الديني ؛ لذا تنفذ مباشرة في أعماق المتلقي ومشاعره ، فيشعر بوعي جمالي لهذا التغلغل (٢٢).

ومن الأحاديث التي تقوم فيها الصورة الاستعارية على التجسيم بلغته المصورة والموحية ، ومزجه بين الحسي والروحي ، وما تحدثه دلالاته الجديدة ، وسياقاته غير المعهودة من أثر نفسي عميق في المتلقي ، ما روي عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ :

" قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ ، قَالَ : **لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ : تَعْبُدُ الله لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ .**

ثُمَّ قَالَ : **أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ** ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة) .

ثُمَّ قَالَ : **أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ ؟** قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : **رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ .**

ثُمَّ قَالَ : **أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟** قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ،

قَالَ : **كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** ، أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ **إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ** " . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وتتضافر الألوان البيانية في الدلالة على أهمية التمسك بالإسلام ومبادئه السامية، والعمل بتعاليمه العظيمة؛ ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام بإقامة فرائضه التي استهل بها الحديث ، ثم عاد إلى التركيز على فريضة الصلاة التي هي جهاد النفس ، والجهاد الذي هو ضد العدو ، ثم ذكر الوسيلة الرئيسة للحفاظ على الدين ، وتأدية حقوق الله ، وهي حفظ اللسان من الأقوال المحرمة ؛ مما يدل على حرص الإسلام على أن تسود المعاملة الحسنة والعلاقات الاجتماعية بين كافة أبناء المجتمع ، أفرادًا وجماعات .

وتظهر تلك الصور التجسيمية الدالة في عدد من التراكيب منها : "**الصَّوْمُ جُنَّةٌ**" ، "**وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ**" ، "**وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ** " ، "**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ** "، "**وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ**" ، "**وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**" ، " **وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** " .

ففي " الصَّوْمُ جُنَّةٌ " تشبيه بليغ يقوم على التجسيم الذي يتلاحم فيه الحسي والروحي ، حيث يتجاوز عالم المحسوسات إلى ما وراءها ، ويعلو عليها ، فيولد انطباعًا روحيًا له دلالات جديدة غير معهودة في الواقع ؛ فتبرز في الصورة المجسمة قفزة خيالية وانزياح كبير في الصوم الذي هو إمساك عن الطعام والشراب إلى حيز الاستعداد النفسي الذهني إلى السترة التي تستر صاحبها أو الدرع الذي يحتمي به الجندي ، ويدافع به عن نفسه .

فالصوم يقي المسلم من الوقوع في المعصية ، ويحفظه من ارتكاب المنكرات

مثل السترة التي تحفظ صاحبها من أذى البرد وشدة الحر ، أو السلاح الذي يدافع به الجندي عن نفسه ، وفي تلك العلاقة الجديدة بين المجرد والحسي وتخيل امتزاجهما ، يتجلى التصوير الرائع لقيمة الصوم وأثره القوي في تغلب المسلم على الهوى ، ومحاربة الشيطان والانتصار عليه ، فهو يقيه من المعاصي في الدنيا ؛ ومن ثم يكون له وقاية من النار في الآخرة ؛ لأن من لم يكن له الصوم جنة من المعاصي ، لم يكن له في الآخرة جنة من النار .

وتأتي الصورة المجسمة من النوع التجميعي والتحويلي في " **وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ** " وهي تبرز أهمية الصدقة وعظيم قدرها في محو السيئات ، إذ شبه الخطيئة بالنار ، فالخطيئة بصورتها الحرارية الملتهبة هي نار تحرق صاحبها في نار جهنم في الآخرة ، وإن كان لا يسلم منها أيضًا في الدنيا ، إذ تأتي على ما لديه من عناصر الخير.

أما الصدقة فتشبه الماء الدافق ، إذ إن الماء يطفئ الخطيئة ، وكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة ؛ أي : تمحوها وتكفرها، وعبر بالإطفاء ؛ لأن المعصية توجب غضب الرب ، والغضب يوجب النار ، والصدقة صدق في العبودية لله وتزكية للنفس ، وتخلُّق بالأخلاق الفاضلة ، ومكفرة للذنب ؛ مما يشعر المؤمن بالسعادة ، لرضا ربه عنه للقيام بفعل الخير ، والتغلب على النهم وشهوة المال وغيرها من رغائب دنيوية .

وبذلك قامت الصورة على لونين : التشبيه في : " **وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ** " والاستعارة في : " وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ " ، ومما زاد الصورة جمالًا وروعة التقابل الدلالي بين " النار " و " الماء " الذي أبرز تحول المشهد إلى الوجه المناقض من الحرارة التي مع الغضب والرغائب إلى البرودة التي مع الثواب والرضا والسعادة .

وتمتد الدلالات الروحانية للتجسيم في الصورة :" **وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**" وذلك لما تحمله تلك الصلاة ، والمراد بها قيام الليل ، من سكينة وخشوع وتأمل وإخلاص ، ومجاهدة للنفس والشيطان ، ومرضاة للرب ، فضلًا عن أنها تمحو آثار الخطايا التي يقترفها المرء نهارًا ، وفيه إشارة إلى حفظ الليل بعد حفظ النهار بالصوم، وحفظ المال بالصدقة ،ومن هنا تعرب " وَصَلَاةُ الرَّجُلِ " مبتدأ لخبر محذوف والتقدير : صلاة الرجل في جوف الليل كذلك ؛ أي : تطفئ الخطيئة كالصدقة .

أما تجسيم الليل وجعل جوف له ، فيوحي بالعتمة والوحشة الممتدة التي لا يحاط بها ، ولا غرو في ذلك فإن ثمة لذة روحية تكمن في الصلاة التي تقام فيه ، وتمثل السبب في التجافي والتباعد لجنوب المسلمين ؛ أي : المراقد ؛ ولذلك فإن تلك اللذة الروحية تتسامى عن اللذة التي تستمتع بها العيون في وقت الرقاد .

ثم يأتي تصوير المعقول وهو قوام الدين في صورة حسية ؛ ليوضح ما وراء ذلك التصوير ؛ إذ إن التجسيم هو الشكل المحسوس المتجلي في الفكرة ، وفيه يمتزج الحسي بالروحي ، متخذًا دلالات جديدة ، وهو ما يبرز في الصور الثلاث : " **رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ** ".

فقد جعل الإسلام رأس هذا القوام العظيم ، بما يوحي بالعلو والشرف والرفعة ، ويشير إلى أنه هو الأصل الذي تتفرع منه سائر الأركان ، كما جعل للإسلام عمودًا ، إذ شبه الإسلام ببيت واسع ، وجعل الصلاة العمود الذي يقوم عليه هذا البيت ؛ مما يدل على شرفها ومنزلتها السامية ، وأنها الأساس ، فلا إسلام بدونها .

أما الجهاد في سبيل الله فجعله أعلى ما في الإسلام وأرفعه ، إذ شبه الإسلام بالجمل ، وجعل الجهاد ذروة السنام ، وهي أرفع ما في الجمل وأعلاه ، وفي اقتران

الجهاد بالسنام دلالة على أن الجهاد هو القمة العليا ، وفي ذلك حث للمسلم على أن يصعد إليها ؛ ليحصل على العزة والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة ، فالمسلم يعلو بالجهاد على نفسه ، وعلى عدوه ، وعلى شيطانه ، ويعلو به في السماء والجنة أيضًا " للمجاهد مائة درجة في الجنة " .

ويتناول الشريف الرضي هذه الصور قائلا :" هذه الألفاظ كلها مستعارة كأنه ﷺ جعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ، ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذي به قوامه ، وعليه قيامه ، وجعل الجهاد ذروة سنامه ، وأرفع مراتبه ، وبه يشاد بناؤه ، ويقام لواؤه ، ويقمع أعداؤه". (٢٣)

ثم يأتي السياق في الجزء الأخير من الحديث الشريف بجملة يُراد بها التأكيد والتحقيق بصيغة الاستفهام والحصر تعقيبا على كل ما سبق " **وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ** " .

والواو في " وَهَلْ " عاطفة على مقدر ، وأصله هل تظن غير ما قلت ؟ ويحتوي هذا التعبير على مشهد مروِّع، تقوم فيه الأقوال المحرمة بإلقاء أصحابها على وجوههم أو أنوفهم بكل قوة واندفاع ، وبلا هوادة في نار جهنم ، وفي هذا الإلقاء والكب على الوجوه أو الأنوف مهانة وإذلال لا حد لها ، بل عقاب لكافة أعضاء الجسم .

كما جاء الفعل " يَكُبُّ " ليوحي بالشدة والعنف ، حيث الباء المشددة ، وهي صوت شفوي شديد ، وكذلك يفيد التعبير بهذا الفعل كثرة الذين يدخلون النار بسبب ألسنتهم التي تصدر عنها الأقوال الآثمة من كذب ووشاية وغيبة ونميمة وفتنة وسواها من آثام .

ولذلك جاء المشهد يوحي بالتهكم والسخرية الشديدة من حركة الكب القوية للوجوه في النار كما أن في " حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " استعارة تصور فيها اللسان

بآلة الحصاد (المنجل) التي يقطع بها الزرع عند حصاده ، فتأخذ كل ما في طريقها من الزرع دون تمييز بين الرطب واليابس ، والجيد والرديء ، والنافع وغير النافع ، وكذلك اللسان الذي لا يتحرى الحق ؛ فيصدر عنه الطيب والخبيث ، والحسن والقبيح سواء بسواء ؛ ولذلك يكون جزاء صاحبه من جنس عمله ، فمن زرع خيرًا وجده ، ومن زرع شرًّا وجده ، ولا يظلم ربك أحدًا ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ لأَصْحَابِهِ : " **تَدْرُونَ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟** " قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " **فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ : الأَجْوَفَانِ : الْفَمُ وَالْفَرْجُ** " . رواه ابن ماجه.

ويعرض الشريف الرضي ما اشتملت عليه هذه العبارة من روائع التصوير ، في قوله :" وهذه من الاستعارات العجيبة ، والمراد بها أن معاثر الأقدام ، ومصارع الأنام ، إنما تكون بجرائر ألسنتهم عليهم ، وعواقب الأقوال السيئة التي تُؤثر عنهم ، هذا في الدار الدنيا ، وعلى المتعارف بين أهلها ، والمتعالم من مجاري عاداتها .

فأما في الدار الآخرة ، فيؤخذون فيها بآثام الأقوال ، فيكبون على مناخرهم في أطوار العذاب ، وبين أطباق النيران ، نعوذ بالله منها ، والعبارة على هذه الحال بحصائد الألسنة من أحسن العبارات ؛ لأنه ﷺ شبَّه ما تَحذِفُ به (ترمي) ألسنتُهم من الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبُها ، ويعود عليهم وبالها بالزارع الذي يستوبئ (يجده ذا وباء) عاقبة زرعه ، والفارس الذي يستمرُّ (يجده مرًّا) ثمرة غرسه "(٢٤).

أما الصورة التشخيصية في الحديث الشريف ، فلم تقف عند الحدود الحسية ، بل تتجاوزها إلى إنشاء علاقات لغوية جديدة ، تبرز بطابعها الانزياحي المعنى المستهدف على نحو واضح ؛ فيأتي تشكيلها الجمالي مستوفيًا عناصرها الفنية ، فتبدو كأنها لوحة فنية كاملة الأطراف والأجزاء .

ومن صور الاستعارة التي أسبغ فيها التشخيص الفني صفات الحياة الإنسانية

من مشاعر وحركات على الجمادات بما يوضح الفكرة ويبرزها ، ويؤثر في وجدان المتلقي ، ما جاء في حديث النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ : " **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى** ". رواه البخاري .

وجاءت الصورة في هذا الحديث الشريف تضم في إطارها ألوانا من الصور المتلاحمة ، المتولدة مع المعنى ، والمنسجمة معه ، فالرسول ﷺ يصور العضو المصاب من الجسد ، وهو جامد ، بأنه إنسان يشكو ويتألم " إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ " ، ثم تتبع هذه الشكوى ، صورة تُبرز في حركة جسمانية حسية ، تجاوب سائر الأعضاء سريعًا مع هذا العضو المصاب ، فتشاركه آلامه ومعاناته الجسمية مشاركة وجدانية فعلية بالسهر والتألم بألمه والحُمَّى بحُمَّاه ؛ حتى يخيل إليك – كما يذكر الدكتور عز الدين السيد – أن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة ، يدعو بعضها بعضًا ، ويناديه لإسعاف صاحبها أو مواساته ، ثم يجعل تناديها ليس الصراخ بلا مغيث ، وإنما هو الجواب العملي المسعف والمساعد : " السهر والحمى " (٢٥) .

وتعاونت الاستعارة مع التشبيه التمثيلي في الحديث في توضيح فكرته التي ينبني عليها ، وهي تتمثل في بيان طبيعة التآزر بين المؤمنين ، والتفاعل الإيجابي فيما بينهم ؛ حتى يصيروا كفرد واحد يشعر بكل أفراد أمته شعورًا صادقًا ، فرحًا عند السراء ، وألمًا عند الضراء ، بحيث يغدو هذا الشعور ، وما ترتب عليه من فعل منجز ، واقعًا حقيقيًّا في حياة المؤمنين جميعًا ، وعلى مستوى الأمة بأسرها .

ولذلك جاء التشبيه " مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى... " ليصور حال المؤمنين في تماسكهم وتآلفهم بحال أعضاء الجسد ، إذا اشتكى منها عضو تألم الجميع بألمه وحمُّوا بحُمَّاه ، فكما يشمل الألم كل أعضاء الجسد ، كذلك يكون المؤمنون في ترابطهم وتفاعلهم الإيجابي .

لقد جسد التشبيه رؤية الرسول ﷺ للمجتمع المسلم وقوة تلاحمه ، في صورة حية محسوسة ومؤثرة ؛ لترتسم في ذهن المتلقي ، وتنطبع في نفسه ؛ لتحقق الغاية التربوية المستهدفة من الخطاب النبوي في الحديث ، وهي أن تستقر تلك المعاني السامية من التواد والتراحم والتعاطف ، وتصبح متجذرة في الأعماق والمشاعر ، وفي الواقع الفعلي في حياة المؤمنين وسلوكهم ؛ أي : قولًا وعملًا .

و جاءت الصياغة البيانية للتشبيه التمثيلي والاستعارة في قالب الأسلوب الخبري ، وكان غرضه إفادة لازم الخبر ، حيث لم يقصد الحديث بيان اتصال المؤمنين بعضهم ببعض فحسب ، فهو شيء معلوم لدى المتلقين ، وإنما قصد الحث على ما يجب أن ينتج عن هذه الصلة القلبية من التواد والتراحم والتعاطف بين المؤمنين من سلوك عملي يلازمها ويدعمها ويقويها ؛ حتى تكون المشاركة فيما بينهم مشاركة وجدانية وفعلية في آن ؛ ومن ثم لم يأتِ الأسلوب الخبري قائمًا على الخبرية الخالصة ، وإنما جاء لإنتاج دلالة الطلب .

أما اللغة التي تشكلت منها الصورة التجسيمية والتشخيصية في الحديث الشريف ، فجاء اختيارها دقيقًا ومناسبًا لتوضيح الصورة وما تتضمنه من معانٍ ودلالات ، أراد الرسول ﷺ إبرازها ، ومنها تصدير الحديث بلفظة " مثل " التي تمثل تمهيدًا وتهيئة للمتلقين لاستقبال الخطاب التعليمي .

وجاءت لفظة " المؤمنين " لتدل على التخصيص ، لما يتميز به أولئك الصفوة من دور رئيس وفاعل في بناء قوام المجتمع المسلم والمحافظة على تماسكه ، ولذلك هناك ترابط بين الإيمان والأخوة لا تنفصم عراه ؛فالإيمان في الأمة بمنزلة الروح في الجسد .

ثم جاءت مظاهر المماثلة بين المؤمنين والجسد واضحة من خلال استعمال المصادر: " تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ " ، وهي أفعال قلبية تدل على قوة

الأواصر الروحية بين المؤمنين ، وتشير إلى أن توافرها لديهم يوجب توجيه سلوكياتهم توجيهًا إيجابيًا تؤتى ثماره الطيبة بما تتطلبه تلك الأفعال القلبية وتقتضيه ، وهي صفات تمثل عناصر المشبه " المؤمنين " .

كذلك فإن صياغة هذه المصادر في صيغة " تفاعل " تدل على المشاركة في تلك الصفات التي يتماثل فيها جميع المؤمنين ، وتنتشر بينهم ؛ إذ تنطلق من كل فرد من أفرادهم نحو إخوانه ، فهي تصدر منهم ، وتتجه إليهم في الوقت نفسه ، ولذلك أضاف ضمير الجمع (هم) إلى كل صيغة منها ، ليؤكد هذا التماثل ، هذا فضلًا عن أن الإحالة الضميرية لها أهميتها في تحقيق تماسك النص وانسجامه ، إذ تسهم في تشكيل المعنى وإبرازه .

أضف إلى ذلك فإن تمثيل المؤمنين في تلك الصفات بلفظ " الجسد " وما له من أعضاء يتكون منها ، وتؤدي وظائفها في إطار حركته العامة ، يشير إلى معنى الاتحاد والتلاحم بين المجتمع المؤمن ، وأنه يمثل كيانًا واحدًا يكمل بعضه بعضًا على الرغم من اختلاف الأماكن ، وتعدد الأوطان ؛ ولذلك فإن إصابة البعض تصيب الجميع ، وتوهن جسد المجتمع وتفت في عضده ، على أن الأمة تقوى حين يجتمع أفرادها على الحب والعطف والرحمة ، كما تجتمع الأعضاء وتأتلف في جسد الإنسان ؛ ومن ثم كانت براعة التصوير في تمثيل المؤمنين بالجسد في قوة الاتصال ورقة الشعور وسرعة التفاعل ، وفي التوافق بين التركيب في كل من مجتمع الإيمان ، وجسد الإنسان .

وتبرز المظاهر البلاغية بدقائقها وأسرارها في أسلوب الشرط الذي تتعالق فيه جملة الجواب بجملة الشرط ، وتعالقهما باسم الشرط ، وهو من عناصر الحبك الدلالي في النص، وذلك في قوله ﷺ :" **إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى** " حيث يبرز البعد التداولي للخطاب النبوي في الحديث ، من

خلال تضافر أسلوب الشرط والصورة ، لبيان غاية المشاركة والتجاوب بين المؤمنين ، وذلك هو البعد الجوهري للوظيفة التداولية للخطاب ، واهتمامها بالفعل الإنجازي للكلام .

ومن ثم آثر استخدام اسم الشرط (إذا) وهو الدال على الزمن المستقبل ، ويفيد أن ما تتضمنه جملة الشرط من دلالات واقع لا محالة ؛ أي أن استجابة المؤمن لأخيه متحققة الوقوع ، فضلًا عن دلالة التزامن والمجانسة في المشاركة التي جاءت من الاقتران الزمني في الماضي بين فعل الشكوى " اشتكى " وفعل التجاوب " تداعى " ، وهو ما يشعر بالمبادرة والإسراع في الاستجابة والنجدة في اللحظة التي صدرت فيها الشكوى دون فاصل زمني بينهما .

ولا ريب ففي هذا دلالة ينتجها سياق المعنى ، وهي الحث على سرعة الاستجابة بالمشاركة الصادقة ، إذا ألمت نازلة بالمؤمن ، أو حل بلاء بجانب من جوانب الأمة .

أما إيثار استخدام الفعل " تداعى " الذي يعني : التجمع والإقبال ، والدعوة من كل جانب ووجهة [٢٦]؛ فيشير إلى التجاوب الوجداني والفعلي بين جميع المؤمنين ، كما أفادت " له " التخصيص ، أما الضمير العائد ، فجاء لتقوية أواصر التركيب ، وربط الجملة بسابقتها ، وفيه إحالة ظاهرة ، وهو من سبل السبك المؤدي إلى الترابط الدلالي الذي ارتسمت معه صورة أعضاء الجسد .

وظهر التجاوب الشعورى والفعلي بين الأعضاء في الجمع بين " السهر " و " الحمى " وترتب إحداهما على الأخرى ، حيث قال ابن حجر : " وأما الحُمَّى فلأن فقد النوم يثيرها ، وقد عرف أهل الحِذْق الحُمَّى بأنها : حرارة غريزية تشتعل في القلب ، فتشب منه في جميع البدن ، فتشتعل اشتعالًا يضر بالأفعال الطبيعية " [٢٧] .

وعلى هذا الأساس لا يهنأ المؤمن بالنوم الهادئ ، ولا ينعم بلذته ، كما أنه يحس بالنار يشب أوراها في جسده ، مشاركة منه لسائر المؤمنين في الود والرحمة والعطف إذا ما حدثت شكوى من أحدهم .

ولا شك ففي هذا حمل للمؤمنين – كما يذكر الدكتور عز الدين السيد – على تزكية النفس ، وإرهاف الحس ، ويقظة الروح لكل من يجمع الإيمان بينهم ، ويرشدهم إلى أن مجتمعهم بخير ، وأمتهم بانتصار ما كانوا مجتمعين لا يتصورون أنفسهم أفرادًا في انفصال شأن ، واستقلال حياة ، وإنما يرونها أعضاء جسم واحد.(٢٨)

وبذلك نرى أن الفن الاستعاري في الحديث النبوي الشريف جاء ليشكل ألوانًا كثيرة من الصور المضيئة المشعة ، التي غدت وسيلة من وسائل تبليغ الفكرة واضحة ومؤثرة حسب السياق ووظيفته التداولية .

الكنـاية :

هي من أروع الألوان البيانية التي تعبر عن المعنى تعبيرًا موحيًا موجزًا ، وتمثيله عن طريق الإشارة بالحسي إلى المعنوي ، وفيها يطلق القول ويراد بـه معنى آخر أو معنى المعنى سواء كان المعنى الحقيقي ممكنًا أو غير ممكن ، فالكناية – كما يقول عبد القاهر – أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوحي إليه ، ويجعله دليلا عليه . (٢٩)

وليس هنالك ما يمنع من إرادة المعنى الأصلي للفظ مع المعنى الكنائي المراد ، فالمتكلم فيها بالقدر الذي يريد فيه نقل المتلقي إلى المعنى الثاني البعيد أو معنى المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ والنسق الطبيعي لعناصر الصورة حسب واقعها ، فإنه يُسقط من الأساس القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الظاهري من الصورة ، ليبقى على احتمال إرادة كل من المعنيين . (٣٠)

فالكناية لون من ألوان الغموض الفني ، إذ يترك فيها التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ، فهي لا تدل على الغرض من خلال الدلالات المباشرة للألفاظ ، بل بما يلزمها؛ أي: يكون لمعناه الذي يقتضيه في اللغة دلالة ثانية تصل به إلى الغرض .

ولذلك يتجلى في هذه الوسيلة الفنية قفزة وانزياح عن اللغة المباشرة ، إذ تومئ إلى الفكرة المقصودة بحسب السياق بألين لفظ وأرقى تعبير ؛ لغاية أدبية خلقية ، وتوجيه السلوك الإنساني ، وإثراء اللغة ، والتوسع في العبارة مع التأثير الفني ، فالكناية تمتلك ناصية أداء الفكرة وتشكيلها في صورة حسية موحية ، وفي إيجاز له دلالته ، مع تشويق وتعميق ، وروعة جمال يتجلى في الانتقال من اللازم

إلى ملزومه ، أو من التصريح إلى الخفاء الذي يقصده المتكلم .

وقد تحتاج الدلالة الخفية أو معنى المعنى إلى شيء من النظر والتأمل وإعمال الفكر ، لكشفها والوصول إلى مرادها ، وفي ذلك متعة فنية يظل أثرها باقيًا في نفس المتلقي ، فالكناية لون من ألوان الغموض الفني ، والعدول فيها إلى الإشارة والتلميح أكثر تساميًا وترفعًا ، وأكثر أثرًا ؛ لاحتوائها على المظاهر الحسية ، فمادة الكناية تصويرية تعمد إلى الإيحاء ، أي تشير بالحسي إلى المجرد .(٣١)

وأشار الجرجاني إلى ذلك في قوله :" ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، والمزية أولى ، فكان موقعه في النفس أجلّ وألطف ، وكانت به أضنّ وأشغف " (٣٢)

ويفيض البيان النبوي بنماذج دالة على الكناية في أفضل صورها ، وقد تأثر العرب بهذه النماذج المتفردة ، ونسجوا على منوالها ، وكان استعماله ﷺ لهذا اللون البياني للدلالة على المعاني دلالة ألطف وآكد من دلالة الحقيقة الخالصة مع مراعاة حال المتلقين ، والتأثير في وجدانهم ، عن طريق احتواء الكنايات على عناصر متنوعة من التصوير الفني من تجسيم وتشخيص ولون وصوت وحركة ؛ مما يؤدي إلى تمكين الحقائق ، وتمثُّل القضايا في أعماقهم ، وبذلك جاءت الكناية في الخطاب النبوي لغاية دينية مع الحفاظ على غايتها الجمالية أيضًا ، فقد تكاملت فيها الغايتان .

ومن نماذج الكنايات النبوية الدالة " الجنة تحت ظلال السيوف " التي جاءت في قوله ﷺ حين قام في الناس خطيبا فَقَالَ : **أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ثُمَّ قَالَ اللهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ** ". رواه البخاري .

وجاءت الجملة المحورية في الحديث " الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ " ، وفيها كناية عن الالتحام بالأعداء في ساحة القتال والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى تعلو السيوف فوق المجاهدين ، ويصير ظلها على هاماتهم ؛ لحرصهم على رفعها على أعدائهم عند نزولهم في ساحة الوغى ، واحتدام القتال ، بيد أن المجاهد حين يلقى مصرعه ، ويقع شهيدًا على الأرض ،فتصعد روحه إلى بارئها في عليا الجنان ، وهنا تطوي الكناية الزمن ، فيتلاقى عالم الشهادة وهو ميدان المعركة ، بعالم الغيب وهو الجنة بنعيمها الخالد لأرواح الشهداء .

وجاءت الكناية لتمثل ذروة التصعيد المعنوي في الخطاب النبوي للمجاهدين ، إذ ترغبهم وتحثهم على الجهاد والنزول إلى ساحة المعركة ، وملاقاة الأعداء بصبر وثبات ، والإقدام دون خوف أو تقاعس على الموت والاستشهاد في سبيل الله ، فهو الطريق إلى الجنة .

ومن ثم عبر التعبير الكنائي الموجز الدال عن المعنى الذهني بالعلو الحسي للجهاد ، ولذلك جاء التعبير بلفظ " تحت" ولم يأت بألفاظ أخرى مثل : فوق أو حول ... ؛ ليدل على أن ظلال السيوف التي تعلو الهامات تقع مباشرة في الجنة ؛ لشدة قربها منها، وفي هذا إشارة إلى أن روح الشهيد تنتقل سريعًا إلى الجنة ؛ لتنال الدرجة العالية والمكانة السامية لصدقها ما عاهدت الله عليه .

وعن هذا المعنى قال القرطبي :" فإنه استفيد منه – أي الحديث – مع وجازته الحض على الجهاد ، والإخبار بالثواب عليه ، والحض على مقاربة العدو ، واستعمال السيوف والاعتماد عليها ، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو ، وبعضها يرتفع عنهم حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها " .[٣٣]

وقال ابن قتيبة :" يريد أن الجهاد يؤدي إلى الجنة ، فكأن الجنة تحته " .[٣٤]

وبذلك أراد الخطاب النبوي أن يثبت منزلة الجهاد العظيمة ، وثوابه الجزيل ، وأجره المضاعف في الآخرة ، غير أنه ترك التعبير باللفظ الدال بالوضع على تلك المنزلة، وذلك الأجر العظيم ، وعبر عن مراده بالجنة تحت ظلال السيوف .

ومن ثم جاء الخطاب الإقناعي الذي يمثل بعدًا جوهريًا في الحديث ، لا ينفصل عن وظيفته التداولية ؛ ليؤثر بتلك المعاني السامية في نفس المخاطب وسلوكه ، حتى يأخذه إلى الاستجابة الفعلية لداعي الجهاد ، وذلك لما حققته الكناية من تمكين الذهن من تصور هذا الأمر المستقبلي لثواب الجهاد وأجره العظيم وهو الجنة .

وقد بدأ الحديث بمقدمات توصل في سرعة وسلامة إلى النتيجة التي تتمثل في الكناية ، بحيث جاءت المعاني متصاعدة ومتلاحقة لغاية مستهدفة ؛ فاستهل الخطاب بالنهي العام عن تمني لقاء العدو ؛ للتحذير من الرغبة في القتال من أجل القتال ، وليس من أجل شيوع السلم ، وانتشار الأمن ، ورفع راية التوحيد ، وكان الهدف من ذلك هو توجيه حماستهم القوية التي تدفعهم إلى القتال ؛ لتكون في إطارها الإسلامي الصحيح ، ثم يطلب منهم سؤال العافية والسلامة في كل الأمور .

وتأتي الجملة الشرطية بعد هذا التمهيد ؛ لتقرر الحقيقة الواقعة وهي ملاقاة العدو ، وتقدم السبيل العملي للتمكن من التغلب على هذا الأمر الحتمي ، وذلك عبر الأمر الصريح في جواب الشرط ، وهو الحث على الثبات والصبر " فَاصْبِرُوا " ثم ينتهي الخطاب بعد هذه المقدمات ، بجملة ختامية تمثل نتيجة لها ، وتحمل دلالة الطلب الذي قبلها بالإغراء عبر الجملة الاسمية المثبتة والمؤكدة " أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ " .

وجاءت هذه المقدمات لتنتج تعليق دخول الجنة على الجهاد ، وهنا يخلص الخطاب إلى حقيقة ، لا جدال فيها ، أن لا مسلك إلى الجنة إلا بالجهاد ، وهو أفضل الوسائل وأنسبها إلى الفوز بهذه المنزلة العليا ؛ ومن ثم يكون التسليم والإذعان بتلك النتيجة بناء على التأثير القوي والحاسم للإبلاغ .

ولعظم منزلة الجهاد ؛ كان الصحابة يسارعون إليه ، رغبة في الشهادة للفوز بالجنة ، حيث روى أن القائد أبو موسى الأشعري ﷺ قد سمع وهو بحضرة العدو ، يقول : قال رسول الله ﷺ :" **إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف** " فقام رجل رثُّ الهيئة ، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ ، قال : نعم ، فرجع إلى الصحابة فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن (غمد) سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو ، فضرب به حتى قُتل " . رواه مسلم .

وقد خلا حديث ابن أبي أوفى من كلمة " أبواب " وهو مما اتفق عليه البخاري ومسلم ، وقد تكون وضعت من أبي موسى دون قصد لعدم الروية والتفكر وهو في حالة التحام مع العدو ، وقد يكون النبي قالها على الوجهين .

ومما يميز الصورة الكنائية في الحديث النبوي أنها تجمع بين البعدين الفني والفكري ، فهي لا تكشف الصورة فحسب ، بل إنها تكشف المعنى أيضًا ، ومن ثم يتلاحم الخير والجمال في الشكل الحسي للكناية ، وفي المعنى الذي يكمن وراء الألفاظ المصورة ، فهي السمو الحقيقي في الأداء والإيحاء .

فالكناية في الحديث الشريف تمثل لونًا من ألوان التصوير الذي يثري اللغة بالتوسع في معانيها والتفنن في ألفاظها ، كما أنها تمثل ضرورة اجتماعية ودينية لطابعها التهذيبي الفاعل في توجيه السلوك الإنساني (٣٥) ، وعلى هذا جاءت الكناية وسيلة من وسائل التأثير القوي للإبلاغ والتوصيل الفكري والفني ،

والتحول بهاتين الغايتين إلى منجز سلوكي يحقق الغاية التربوية في الواقع الفعلي في حياة المسلمين .

ومن النماذج التي توضح ذلك قوله ﷺ : " **مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ** " . رواه البخاري.

يقوم هذا الحديث على كنايتين " بَيْنَ لَحْيَيْهِ "كناية عن الفم وآلته اللسان ، و " وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ " كناية عن الفرج، وقد عبرت الكناية بالعدول إلى اللفظ الأكثر تهذيبًا ولباقة وارتياحًا ، مراعاة للعرف الاجتماعي ، فالتهذيب هو المظهر الاجتماعي لوظيفة الكناية ، والبعد الخلقي من طبيعتها الفنية ؛ لاتكائها على الظل والتلميح والتوقع أكثر من التصريح ؛ لأن الكناية في الأصل تعبير عن اللباقة والذوق الرفيع ، كما قال قدامة ابن جعفر [٣٦] ، وهي – كما يذكر ابن أبي الإصبع – التي يعبر بها المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن الفاحش بالطاهر [٣٧] .

والفعل " يضْمَنُ " من ضمن الشيء وضمن به ضمانًا أي كفل به ، وبذلك يكون الضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية ، فأطلق الضمان وأراد لازمه ، وهو أداء الحق الذي عليه ، ولا يتحقق إلا بالحفظ للجوارح التي من أبرزها الفم والفرج ، وهي من أعظم البلاء على المرء في الدنيا ، فمن وقي شرهما أمن من الشر كله .

والضمان الأول " ما بَيْنَ لَحْيَيْه" واللحيان هما العظمان بجانبي الوجه ، وهما منبت الشعر من الرجل ، وما مثلهما من الأنثى ، وبينهما الفم وهو الطريق الحسي الذي تعبر من خلاله كل أنواع اللذائذ التي قد تكون حلالًا أو حرامًا ، وما يتمناه الإنسان لجوفه وبطنه ، كما أنه يحوي اللسان الذي هو أداة الفم ، وقد يستعمل للخير والفضائل ، وقد يستعمل للشر والرذائل.

وبذلك يكون ما بين اللحيين هو رمز الطعام والشراب والكلام ، أي حصائد

الأطعمة والأشربة، وحصائد الألسنة ، وسائر ما يتأتى بالفم من فعل ، وهو ما فيه منجاة المرء أو هلاكه .

ومن ثم ركز الشطر الأول من الحديث على أن يحفظ المرء الفم واللسان ، ويتجنب كل أنواع الحرام سواء التي تتأتى من الفم من مطعم ومشرب ، أو التي تتأتى من آلة الفم وهي اللسان من الأقوال : من كذب وغيبة ونميمة ، ورياء ونفاق ، وخوض في باطل وغيرها من آفات اللسان الخطيرة ، وما يترتب عليها من فساد وإفساد ، ولذلك وردت عن النبي ﷺأحاديث كثيرة عن حفظ اللسان منها :" **لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه** ". رواه أحمد .

أما الضمان الثاني من ضماني الجنة فهو "مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ" ويقصد به تجنب الرجل والمرأة كل أنواع الزنى ، وذلك بحفظ الفرج أن تلم به الفاحشة ، والالتزام بالعفة والطهارة .

ومن هنا جاءت الكنايتان في لفظ موجز، ومدلول واسع وعميق ، يشمل العنصرين المهلكين للإنسان : الفم والفرج ، فالأول يكون هلاكه ناتجًا من الحرام في المأكل والمشرب والكلام ، والثاني يكون هلاكه عن طريق ارتكاب الفاحشة ؛ ولذا حذر الرسول ﷺ من خطورة الفم والفرج ، حين سئل عن أكثر ما يُدخِلُ النار ؟ قال : " **الأجوفان : الفم والفرج** ". رواه ابن ماجه .

أما عن تشكيل الكناية وبنائها اللغوي ، فقد جاءت صياغتها في قالب أسلوب الشرط الذي هو من خصائص الأسلوب في الحديث الشريف ، لكثرة وروده ، ولتنوع أدواته ، بيد أنه يتخذ في كل حديث خصوصية تميزه في الاستعمال والدلالة عن غيره ، وتجعله متجددًا في الأحاديث المختلفة ، وبذلك تتأكد – كما

يذكر الدكتور عيد بلبع – هذه الحقيقة في كل حديث على حدة ، ففي هذا تلمس لخصوصية بلاغة الحديث الشريف وتجلية لدقائقها وأسرارها ، فهذا اختصاص أصيل للبلاغة التي تهتم بتتبع خواص التراكيب في كلام البلغاء ، فتلك غاية إذا لم يأخذ الدرس البلاغي نفسه بها ، فلا كان هذا الدرس . [٣٨]

ومن حيث تركيب أسلوب الشرط في ظل البعد التداولي للخطاب النبوي في هذا الحديث ، فقد تصدر الأسلوب باسم الشرط "من" وهو أعدل الكلام كما أشار المبرد.[٣٩]

وجاء الشرط وجوابه في صورة المضارع ، وهذا التركيب قليل جدًّا في أسلوب " من " الشرطية في الحديث الشريف بالمقارنة بأنماطها اللغوية الأخرى . [٤٠]

ويفيد اسم الشرط " من " في الحديث معنى العموم ، فهو موجه إلى جميع المسلمين ذكرًا كان أو أنثى ، لأن " من " اسم مبهم ، أغنى بإبهامه عن ذكر ما لا يعد ولا يحصى من الأسماء [٤١]، كما يفيد الربط بين جملتي الشرط ، وهو لا يستخدم إلا مع الذات العاقلة دون غيرها ، فيشير إلى أن هذا الفعل مما يجدر بالعقلاء الإسراع إليه ، ومما لا يطلب من سواهم.

وجاءت جملة فعل الشرط " يَضْمَنُ " جملة فعلية فعلها مضارع يراد منه الاستمرار والتجدد حاضرًا ومستقبلًا ، وهو مسند إلى ضمير الغائب الذي يقصد به الإنسان ، بحيث يجعله في حالة رقابة دائمة على فمه وفرجه ، فكلما حافظ عليهما نال الجنة ، ومما يعضد هذا أن الجملة جاءت خبرية بعد اسم الشرط " من " وذلك يجعل الخبر الذي يليه مفروض الصدق .

فإذا ما كان هذا الخبر من الرسول ﷺ فهو مقطوع بصدقه لا محالة ، أضف إلى ذلك أن " لي " تفيد التخصيص الذي يدل على الحضور الواضح للذات القائلة ﷺ

في الـنص ، كـما أن " مـا " الموصـولة تفيـد العمـوم والـشمول لمـا بـين اللحيـين والفخذين ، واستعمال "بين" له دلالتـه الظرفيـة التـي تـشير إلى التـداخل في كـل جارحة منهما تداخلًا بعيدًا ؛ لبلـوغ الهـدف ، وهـو الإحاطـة الـشاملة في الحفـظ والسيطرة .

وقد استخدم حرف العطف " الواو " في " مَا بَيْنَ رِجْلَيْـهِ " لتفيـد المـصاحبة والملازمة في الحفاظ على الجارحتين معًا ، وكرر " ما بين " لتقرير ذلك وتوضـيحه ، وأنهما على قدر واحد من الأهمية .

ثم يأتي جواب الشرط " أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّة " متلاحقًا مع فعل الـشرط ؛ لـيربط النتيجة بالمقدمة ويعلقها على الشرط ، فإذا سلمت المقدمـة سـلمت النتيجـة ، ولا ريب أن أهم أهداف المسلم أن يعمل لبلوغ الجنة ، وحتى يـصل إلى ذلـك الهـدف العظيم الذي يطمح إليه من سعيه في هـذه الـدنيا ، يجـب عليـه أن يعمـل جاهـدًا للحفاظ على جارحتي : الفم والفرج .

وتكفلت الصياغة الدقيقة للحديث لتحقيق هذا الغرض ، فوضعت النتيجـة ماثلة بين يدي المتلقي ، إذ في استحضار هذه النتيجة التي هي الجنة ، ما يحقق بلوغ الغاية والمراد من الحث والإغراء على القيام بهذا العمل ، وهو ما قـصده الحـديث في القسم الأول ، ومن ثم يكون سعي المسلم لسلوك هذه المقدمة يـؤدي إلى بلـوغ تلك النتيجة وهي الجنة ، وذلك من خلال الشرط والجـزاء المتتـابعين في أسـلوب الشرط .

ومن العناصر اللغوية التي تجلت في جواب الشرط ، هذا التعبير الدقيق الذي يفيض سموًا وروعة " أَضْمَنْ " إذ يحمل خـيرًا يقينًـا ، ووعـدًا حقًّـا بهـذا الجـزاء العظيم من قبل الذات القائلة ﷺ ، إنهـا تـضمن أن تحقـق للمـسلم ذلـك الجـزاء

الموعود به ، أضف إلى ذلك ما يفيده حرف الجر اللام في " له " من ملكية تنطوي على المنفعة والفائدة لمن يسلك هذا المسلك في حفظ الفرج والفم ، وكذلك الضمير "الهاء" الذي يربط الجملة بسابقتها ، ففيه إحالة ظاهرة ، وهي إحدى سبل السبك التي يتقوى بها التركيب ترابطًا ، واتصالًا ، والتحامًا .

ولعل التوافق في المادة اللغوية بين بداية كل محور في الحديث يعطي رسالة إيجابية تستقر في نفس المتلقي ، وتحمل له دلالة التحقق في دخول الجنة طالما أنه يسعى وفق نهج المقدمة التي تؤدي إلى هذه النتيجة ، وهو ما أقره أسلوب الشرط عبر محوريه ، فالذي يؤدي الحق الذي على الجارحتين : الفم والفرج ، بحفظهما بالحلال وصيانتهما عما يغضب الله ﷻ، يكون بمنجاة من الهلاك ، ويدخل الجنة ، ففي ذلك توافق بين المطلع في المقدمة والنتيجة ، وهو من سمات الأسلوب النبوي .

وبذلك يتحقق من خلال أسلوب الكناية التواصل التبليغي في الخطاب النبوي ، بما يضمن تمكين المعنى في نفس المتلقي ، والعمل بمقتضاه ، ومن ثم تتحول الأقوال إلى أفعال منجزة على أرض الواقع ، وذلك هو البعد الجوهري للبلاغة النبوية وغايتها التربوية في الحديث الشريف ، وهو ما يتعالق مع " الوظيفة التداولية " .

وتبرز في أحاديث كثيرة ألوانًا متنوعة من روائع الكنايات التي جاءت لتجسم الفكرة وتبرزها في صورة واضحة ، بتوسيع دلالاتها وتعميقها مع اكتناف ألفاظها بطابع التهذيب واللياقة ، بعيدًا عن الصراحة التي تثير الخجل ، والتجاوز عما يستنكره منها أو يستقبح ؛ ومن ثم تأتي الكناية الحديثية بأبعادها الحسية والنفسية مناسبة للسياق الذي وردت فيه ، وللحال التي عليها المتكلم والمتلقي على حد سواء .

ومن نماذجها الدالة التي تبرز ما يجب أن تكون عليه عملية المعاشرة الزوجية بين الرجل والمرأة، وحق المرأة المشروع في الاستمتاع بتلك العملية إلى درجة الإشباع، وليس الاكتفاء بمجرد اللقاء الزوجي فحسب، ما ورد في شكوى امرأة رفاعة، عندما طلقها هذا وتزوجت غيره، وما ألمحت إليه من تقصير زوجها الجديد في حقها في الفراش، وعجزه عن الجماع، مما يؤثر تأثيرًا شديدًا على استمتاعها، ولذلك فهي ترغب في الرجوع إلى زوجها الأول (رفاعة)؛ لما تهنأ به من لذة واستمتاع في ظل معاشرته الزوجية، كما ورد في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها، قالت: جَاءَتْ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي. فَتَزَوَّجْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيْرِ وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: **أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**، قَالَتْ: وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَهُ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بِالْبَابِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ، فَنَادَى يا أَبَا بَكْرٍ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى هَذِهِ: مَا تَجْهَرُ بِهِ عِنْدَ رَسُولِ الله". رواه البخاري.

وقولها (فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي) أي طلقها ثم راجعها ثم طلقها ثم راجعها ثم طلقها، (مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ): هدبة بضم الهاء وسكون الدال هو طرف الثوب الذي لم ينسج، وهو مأخوذ من شعر الجفن، وأرادت أن عضوه الذكري يشبه الهُدبة في الاسترخاء وعدم الانتشار. (عُسَيْلَتَهُ): العسيلة حلاوة الجماع الذي يحصل بتغييب الحشفة في الفرج.

ولكن إزاء هذا الأمر فإن الصحابة يتعجبون وتأخذهم الدهشة من امرأة رفاعة وجهرها بما تود السؤال عنه، على الرغم من تعبيرها عنه بالأسلوب الكنائي، أما الرسول ﷺ فإنه يبتسم، ويفهم – على الفور – ما تريده تلك المرأة، وهو العودة إلى زوجها الأول، فيتوجه إليها بسؤال مباشر " **أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي**

إِلَى رِفَاعَـةَ ؟ " ويتلـوه بـالحكم الـشرعي " لا، حَتَّـى تَـذُوقِي عُـسَيْلَتَهُ، وَيَـذُوقَ عُسَيْلَتَكِ " .

أما المرأة حين تذكر هذا ، فإنها تذكره متطلعة لأن تُطلق من " عبد الرحمن بن الزبير" ؛ لترجع إلى زوجها الأول "رفاعة" ، والنبي ﷺ يفهم مباشرة مقصودها ، ويعرف أنها لم تستكمل الواجب في هذا الأمـر ، ولم يقـع مـا بـه تحليلهـا لزوجهـا الأول ، إذ التحليل لا يكون بمجرد العقد ، وإنما يكون بـالجماع والـوطء ، الـذي يشعر باللذة والاستمتاع ، وهو من أهم شروط التحليل . (٤٢)

ويبدو واضحًا في الحديث التماسك النصي بمستوييه الشكلي والـدلالي واعـتماده على التلميح الذي تكتنفه الظلال والتوقعات ، حيث تكمن ثمة دوافـع اجتماعيـة تعبر عن الذوق العام والخلق في الكنايتين: الأولى : " وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ " تعبير عن عدم قدرة زوجها على الجماع والوطء ، وهو ما يطلـق عليـه " العنّـة " ، والثانية : " حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ " تعبير عن المعـاشرة الزوجيـة بما فيها من استمتاع ولذة ، وقد تجلى تماسك الجملتين في السياق تماسـكًا قويًّـا مـع الجمل السابقة واللاحقة بهما ، حتى غدا الحديث بتراكيبه بمنزلة الجملة الواحدة .

ومن روابط الجمل في الحديث الشريف التي أحدثت لونًا من التماسك النصي ، وتقوية أواصر التركيب " الفاء " في جملة " كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِـيِّ فَطَلَّقَنِـي " ؛ لتربط بين الجملتين ، الأولى : " كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِـيِّ " ومعناهـا كنـت عنـد رفاعة فأتيت من الأفعال ما لا يروق له ، ولا يساعد على التواصل معه ، والثانية : " فَطَلَّقَنِي " ، فكانت وظيفة " الفاء " هنا شكلية ودلالية ، شـكلية للعطـف بـين الجملتين ، ودلالية للتآزر بينهما ، والربط بين السبب ونتيجته التي هي الطلاق .

ثم جاءت " الفاء" أيضًا لتؤدي إلى السبك الدلالي ، وتمتـين أواصر التركيـب

في جملة " فَبَتَّ طَلاقِي . " حيث ترتب على الطلاق المذكور طلاق آخر هو بـائن ، وذلك بواسطة "الفاء" ثم ترتب على بينونة هذا الطـلاق زواج بـآخر هـو " عبـد الرحمن بن الزبير " ، فقد ارتبطت العلاقة الدلالية في النص بوجود حرف "الفاء" الذي كان له وجود فاعل وحيوي في تماسك بنية النص ، وإصدار الحكـم الـديني الذي رغب الرسول ﷺ في توصيله إلى الناس ، وهو عدم أحقيـة الـزواج بـالزوج الأول بعد الطلاق البائن إلا بعد الزواج بآخر ، وهذا ما هدف إليه الحـديث منـذ بدايته ، وتعاونت الروابط الدلالية والألفاظ والجمل في إظهاره على نحو واضح .

كما يتجلى في الحديث ما يسمى لدى علـماء الـنص بالإحالـة ، وعـدوها مـن وسائل الربط ، وتناولوها في إطار حديثهم عن مصطلح الصيغ الكنائيـة (إضـمار الاسم وإضمار الفعل) (٤٣) ، ففي الحديث " تزوجت عبد الرحمن بـن الـزبير إنـما معه مثل هدبة الثوب " فقد شبهت عضو زوجها بطـرف الثـوب الرخـي بجـامع الاسترخاء والضعف ، وفيه قصدت بالضمير الهاء في لفظ " معه" زوجها ، والمشبه عضو منه ، وذلك للتعبير بالكل عن الجزء من بـاب المجـاز ، واختـارت " هُدْبَـةِ الثَّوْبِ " وهو المشبه به للتعبير عن العضو الذكري لزوجها ، وقد أضمرته أيـضًا ، وكان هذا الإضمار مراعاة للموقف وحال المـتكلم والمخاطـب ، فالكنايـة تلمـيح يرتبط بالعرف الاجتماعي ، ومراعاة هذا العرف ضرورة تتصل بالآداب العامة .

وقال ابن دقيق العيد عن هذا التشبيه: فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ شَـبَّهَتْهُ بِذَلِكَ لِصِغَرِهِ. وَالثَّانِي : أَنْ تَكُونَ شَبَّهَتْهُ بِهِ لِاسْتِرْخَائِهِ ، وَعَدَمِ انْتِشَارِهِ " (٤٤) .

أما التعبير عن المعاشرة الزوجية ، فقد عبر عنه الخطاب النبـوي بتجـسيم مـا يعتلج في سريرة المرأة ، في كلمة مصغرة " عُـسيلة " عـن طريـق الانزيـاح الـذي يضيء النص ، ويضخ فيه الحيوية ، حيث شبه الجماع وما فيـه مـن لـذة واسـتمتاع بذوق العسل على سبيل الاستعارة ، وذلك بجامع اللذة بيـنهما ، وعـبر عـن هـذه

اللذة بكلمة " تَذُوقِي " إشارة إلى الإحساس والشعور بأثر هذه اللذة من الاستمتاع .

كما أنه جعل " عسيلة " مصغرة ، لمناسبة المقام ، حيث الغرض من التصغير هنا هو التقليل ، وهو ما يشير إلى أنه يكفي القدر القليل من الجماع ؛ حتى تحل وتعود إلى زوجها الأول "رفاعة" ، ودون ذلك لن يتحقق لها الزواج منه ، وفي ذلك يقول الزمخشري :" ضُرِبَ ذوق العُسيلة – وهي تصغير العَسَلَة ، من قولهم : كنا في لحمة ونبيذة وعسلة – مثلًا لإصابة حلاوة الجماع ولذته ، وإنما صُغر إشارة إلى القدر الذي يُحلل " (٤٥) ، وقال السندي : " والمراد لذة الجماع ، لا لذة وإنزال الماء ، فإن التصغير يقتضي الاكتفاء بالقليل ، فيُكتفى بلذة الجماع " (٤٦) .

أما تأنيث " عُسيلة " فلأنه – كما يقول الطيبي - أراد قطعة من العسل ، وقيل : على إعطائها معنى النطفة ، وقيل : العسل في الأصل يذكر ويؤنث . (٤٧)

وكأن الرسول عليه السلام يريد أن يقول : "إن مخبر المرأة ومخبر الرجل كالعسلة المستودعة في ظرفها ، فلا يصح الحكم عليها إلا بعد الذوق منها " .(٤٨)

وقد يكون في كلمة "عسيلة " إثارة لحاسة الذوق التي تناسب غاية المباشرة والتماسّ في العلاقة الزوجية ، فهي حلاوة في الفم لإضاءة غاية الحسية وتحبيبها ، كما أن فيها ، وهي لذة الجماع ، قضاء للوطر وراحة للنفس ، وغاية المودة والسكن ؛ مما يفيد أن الاتصال بين الزوجين ضرورة حيوية وتطبيب للنفس وترويح لها . (٤٩)

ومن كل ما سبق فقد اتضح أن الخطاب النبوي حفل بنماذج من الصور الكنائية بإيماءاتها اللطيفة الممتعة ، ولغتها الانزياحية التي تثير الخيال بلا غموض أو تعقيد ، فكانت وسيلة تصويرية متفردة ، بطابعها التهذيبي الواضح حسب ما يقتضيه المقام ، حتى غدا لها الأثر العميق في تحقيق الغاية الإبلاغية للدعوة ، وخدمة الطبيعة الإنسانية في آن واحد .

المجاز المرسل :

هو استخدام اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة بين المعنيين : المعنى الأول : الحقيقي ، والمعنى الثاني : المجازي ، فإذا كانت العلاقة المشابهة خرج المجاز إلى الاستعارة ، وسمي مرسلًا ؛ لأنه يفسح المجال لعدد كبير من العلاقات ، ولا يتقيد بعلاقة واحدة .

وهذا الأسلوب التصويري يعتمد على الإيجاز في اللفظ مع التوسع في الدلالة ، وجاءت نماذجه في الحديث الشريف تفيض بالإيحاءات والدلالات التي يقصر التعبير الحقيقي عن أدائها ، ومنها ما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :" أن بعض أزواج النبي قلن له ﷺ : أَيُّنا أسرع بك لُحوقًا ؟ قال :" **أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا** "، فأخذوا قصبة يذرعونها وكَانَتْ زَيْنَبُ أَطْوَلهن يَدًا، فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها الصدقة ، وكانت أسرعنا لحوقًا به ، وكانت تحب الصدقة ". رواه البخاري .

فكلمة "يدًا" مجاز مرسل عن العطاء والإنعام ، وعلاقته السببية ، حيث أطلق اليد وأراد النعمة ؛ لأنها سبب فيها ، وجاء أفعل التفضيل " أَطْوَلُكُنَّ " من الطول ومعناه الامتداد والارتفاع ، وهو ترشيح يقوي المجاز ويحقق المبالغة في العطاء ، ويجوز أن تكون " أَطْوَلُكُنَّ يدًا" كناية عن كثرة الصدقة وحب العطاء والبذل .

وعبرت الصورة عن الذهني بالطول الحسي ، وهذا الطول والانبساط لليد يعبر عن العطاء والكرم ، وركز السياق الانزياحي على الملمح الحسي للصورة " اليد " لفاعليته المقصودة التي تضيء النص ، وتكشف أبعاده الوجدانية ، إذ إنها الدليل المادي على المعنى ، وجزء منه أيضًا ، وبذلك جاء اختيار التعبير باليد ؛ لأنها وسيلة الإعطاء ، وأخص الأعضاء بهذا الفعل ، فكان إيجاز العبارة مع إيحائها وتصويرها

المعنى صورة تُرغب في العطاء ، وتَحض على الصدقة ؛ حتى يتحقق لحوق المحب للبذل والعطاء برسول الله ﷺ ، وهو أقصى ما يطمح إليه المسلم ، حيث المنزلة العليا التي يسعى المسلمون لبلوغها .

قال ابن حجر في فوائد الحديث :" فيه جواز إطلاق اللفظ المشترك بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة ، وهو لفظ " أطولكن " إذا لم يكن محذورًا ، قال الزين بن المنير : لما كان السؤال عن آجال مقدرة لا تعلم إلا بالوحي أجابهن بلفظ غير صريح ، وأحالهن على ما لا يتبين إلا بآخر ، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية (٥٠) .

وذكر الشريف الرضي أن الكناية في هذا الحديث هي من المجاز ، وعلل ذلك بقوله :" جعلن يتذارعن ، ينظرن أيهن أطول يدًا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش الأسدي ... وكنايته ﷺ عن هذا المعنى بطول اليد مجاز ، لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيرَه من الرفد والبر ، أن يعطيه ذلك بيده ، فسمّى النَّيل باسم اليد ، إذ كان في الأكثر إنما يكون مدفوعًا بها ، ومجتازًا عليها . (٥١)

ومن روائع المجاز المرسل بعلاقته الجزئية ، قوله ﷺ :" **دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ على مسكين، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ ، أعظمها أجرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ** ". رواه مسلم .

يدعو الحديث إلى الإنفاق على هذه الأصناف الأربعة ، وبخاصة الأهل ، لما في ذلك من أجر عظيم ، وقد آثر سياق الحديث استخدام الفعل " أَنْفَقْ " مع الأصناف الثلاثة ؛ ليدل على أن الإنفاق واجب عليهم ، في حين استخدم السياق الفعل " تَصَدَّقْ " مع " المسكين " ليدل على أن المقصود بالإنفاق عليه في الحديث هو من باب التطوع ؛ لأن الصدقة تقال : للمتطوَّع به (٥٢) .

وسلك الحديث مسلك التصوير بالمحسوس من قبيل الإيجاز والتوسع في الإيحاء والدلالة ، وذلك بإطلاق الرقبة على ذات الرقيق في " وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ " ليكون ذلك أدعى إلى سرعة استجابة المنفق للإنفاق على عتق الإنسان المملوك ، وقد عبر عنه باللفظ الانزياحي المظل الذي يحرك الذهن وهو " رَقَبَةٍ " من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وكان اختيار الرقبة مناسبًا ودقيقًا ؛ لاتصالها الوثيق بالمعنى والسياق ، فهي من أهم أعضاء الإنسان ، ورمز له دلالته على معاني الحرية والعزة والكرامة والإباء .

يبقى أن نشير إلى مظهر بلاغي آخر يبرز في الجملة التي بها المجاز ، وهو حذف المضاف " تحرير " فالأصل " تحرير رقبة "،وذلك لدلالة معنوية هي الاهتمام بالمذكور المضاف إليه "رقبة" والتركيز عليه ، بما يدل على الحث على الإنفاق والبذل في سبيل حصول الإنسان المملوك على حريته المشروعة التي فرضها الإسلام ، وإنقاذه من الذل والخضوع والعبودية التي تستحوذ على رقاب العباد ، وتمنعهم من العزة والكرامة ، والرقبة هي مناط ذلك ورمزه ، فغدت المركز الجمالي الحسي الذي يضيء السياق بفاعلية نفسية مجسمة ، وما كان لهذا الناتج المعنوي أن يتحقق لو جاء المضاف في موقعه الأصلي ، أو غدت الصياغة "تحرير رقبة ".

هذا فضلًا عن الناتج اللفظي للحذف الذي يتصل بجمال التناسب الإيقاعي الذي وقع بين كل جملتين في الحديث ، بين : "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ الله " " وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ به " وبين " دينار أنفقته في رقبة " " وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ " ، فقد أضفى هذا التناسب والاتساق على النص لونًا من الإيقاع الصوتي المنسجم الذي زاد الأسلوب رونقًا وجمالًا وتأثيرًا في نفس المتلقي ، وما أضفاه من أثر عميق في توضيح المعنى المراد بثه له ، حتى يرسخ في ذهنه ، ويجعل التلقي في هذه الحالة

مصحوبًا باللذة والمتعة ؛ مما يدفع المتلقي إلى الرغبة في المزيد من ذلك التلقي المشبع والممتع في آن ، وهنا تتحقق حيوية التلقي ، وبذلك يكون الحذف أضفى على سياق الحديث قيمة دلالية وجمالية بالغة الأهمية، وأدى دورًا بارزًا في بناء نص مكثف ومتماسك ، فضلًا عن ارتباطه بأبعاد المرسِل القصدية ..

ومن هذا القبيل قوله ﷺ :" **عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ باتت تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله** " .

فقد آثر الحديث استخدام لفظة العين للتعبير عن الإنسان من باب إطلاق الجزء على الكل ، وهذا الإيثار له دلالته المعنوية والبيانية التي يتطلبها المعنى والسياق ، حيث ترسم لفظة " العين " في الموضعين صورة حية للإنسان ، ففي الأول صورة من يخشى الله ويراقبه في كل أعماله ، فلا يفتأ تذرف عيناه الدموع خوفًا من الله ﷻ، وفي الموضع الثاني : صورة من يحرس في سبيل الله ، فلا يزال يرسل بصره ، ويجيل عينيه طوال الليل في يقظة وانتباه ، وحذر وترقب ؛ حماية وصيانة للممتلكات والمقدسات والثغور .

وبدأ الحديث بالنكرة المثناة " عَيْنَان " لسر بلاغي هو التشويق والتعظيم ، حيث يتطلع المتلقي بشوق كبير لمعرفة هاتين العينين العظيمتين اللتين لا تمسهما النار ، فأي شيء أعظم من ذلك ، وفي إيثار التعبير " لا تَمَسُّهُمَا " دون أن تصيبهما ، دلالة على أنه لا يلحقهما أدنى عذاب ، ولا أقل سوء ، وقد نُكرت العين في الموضعين تعظيمًا لها ، ثم وصفت الأولى بأنها بكت من خشية الله ، والثانية بأنها باتت تحرس في سبيل الله ، وفي ذلك مزيد من التعظيم لهما .

ومما يزيد المعنى وضوحًا مجيء التعبير بصيغة الماضي في اللفظين : بكت ، باتت ، للدلالة على تحقق وقوع البكاء والسهر من الإنسان المؤمن ، وبصيغة

المضارع في اللفظ : تحرس ، دلالة على أن هذا العمل هو ديدن صاحبها ، وأنه متجدد منه باستمرار طوال حياته .

أما أسلوب الحديث فقد انبنى على الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام والاستمرار ، أي أن عدم مس النار دائم ومستمر لهاتين العينين التي بكت من خشية الله ، والتي باتت تحرس في سبيل الله .

بقي أمر آخر وهو أن الأسلوب الذي قام عليه الحديث هو أسلوب التوشيع ، وهو نوع من الإيضاح بعد الإبهام ، حيث جاء المعنى في صورتين : الأولى : مجملة مبهمة في بداية الحديث " عينان ..." والثانية : مفصلة موضحة بعد ذلك في " عَيْنٌ بَكَتْ ... وَعَيْن باتت " ، وفي ذلك تهيئة للمتلقي وتشويقه للوقوف على تفصيل المعنى بعد إبهامه ، مع تمكين المعنى وتقويته في ذهنه ونفسه ، هذا فضلًا عما يقوم به التفصيل بعد الإجمال من الربط الدلالي الذي يسهم في تماسك النص وترابط عناصره.

ومن ألوان المجاز المرسل العلاقة "المحلية " في قوله ﷺ :" إن مكة حرَّمها الله " فذكر " مكة " وهي المكان ، وأراد أهلها الذين يحلون فيها ، فعلاقته : المحلية .

أما المجاز المرسل بعلاقته الحالية فجاء في قوله ﷺ :" **الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبِيضَ ، فإنها من خير ثيابكم ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ** ". رواه الترمذي .

فالبياض لا يستقل بأن يلبس فهو حال ، والثياب محله ، فالمقصود بالموصوف البياض ؛ لأنه هو الذي يلبس ، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية ، حيث أطلق الحال وهو البياض ، وأراد المحل وهو الثياب .

ومن الأحاديث التي تضم نوعين من المجاز قوله ﷺ :" اخْتَصَمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ فِي غُلَامٍ . فَقَالَ سَعْدٌ : يَا رَسُولَ الله هَذَا ابْنُ أَخِي عُتْبَةَ بْنِ

أَبِي وَقَّاصٍ ، عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُ ابْنُهُ ، أُنْظُرْ إِلَى شَبَهِهِ . وَقَالَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ : هَذَا أَخِي يَا رَسُولَ الله ، وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِي مِنْ وَلِيدَتِهِ ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى شَبَهِهِ ، فَرَأَى شَبَهًا بَيِّنًا بِعُتْبَةَ فَقَالَ : **هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنَ زَمْعَةَ ، الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ . وَاحْتَجِبِي مِنْهُ يَا سَوْدَةُ** فَلَمْ يَرَ سَوْدَةَ قَطُّ " . رواه الترمذي.

{ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ } أَيْ تَابِعٌ لِلْفِرَاشِ أَوْ مَحْكُومٌ بِهِ لِلْفِرَاشِ. { وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ} . قِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ : أَنَّ لَهُ الْخَيْبَةَ مِمَّا ادَّعَاهُ وَطَلَبَهُ

ففي قوله عليه السلام "الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ": مجاز مرسل علاقته المحلية ؛ لأن الفراش محل الوطء المشروع الذي ينسب الولد إليه ، فهو من إطلاق المحل ، وإرادة الحال ، وفي قوله ﷺ : " وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ ": مجاز مرسل علاقته الآلية ؛ لأن الحجر آلة حد العاهر بالرجم ، فهو من إطلاق اسم الآلة وإرادة ما هي له .

وهناك نماذج كثيرة دالة لهذا المسلك الأسلوبي من مسالك التصوير البياني التي تكسب السياق جمالًا وروعة وإيجازًا ودقة .

الصورة الإشارية :

يمارس الإنسان عملية التواصل عبر وسيلتين : لفظية ، وغير لفظية ، إذ لا تكتمل نظرية الاتصال إلا بعلامات لغوية من كلمات وعبارات ، وعلامات بصرية من نظرات وإشارات وحركات جسمية ، وتعبيرات وجه ونحوها من وسائط اتصالية لها حيويتها وفاعليتها التبليغية في عملية التخاطب بين أفراد الجماعة الكلامية ؛ فالكلام المنطوق يخبر والحركة تقيم الاتصال ، وأحيانًا تحل محل الكلام . (٥٣)

وعلى الرغم من أن الاتصال اللفظي هو الذي يُراعى أساسًا في علم اللغة النصي ، من جهة أن النصوص تتكون عادة من علامات لفظية ، فإن للعلامات الإيمائية أو الجسمية التي تصاحب اللغة المنطوقة وظيفة دلالية جمالية تجمع بين التواصل والإيحاء ؛ فهي ترتبط بالبنية اللغوية ارتباطًا مباشرًا ، من حيث إنها تظهر شكل العلاقة أثناء الاتصال وتقويه ، وتؤمن له نظامه ، وتحفظ له إيجابيته ، كما أنها تشير إلى الموقف الشخصي والسلوك الانفعالي الذي يسلكه أحدهم تجاه الآخرين ، أو ضد الآخرين ، وهذا لا شك يدل على علاقة التكامل بين قنوات الاتصال المختلفة (٥٤) .

ويطلق على الاتصال غير اللفظي مصطلح " السلوك الحركي " بما يتضمن من حركات وإشارات وتعبيرات وأوضاع وهيئات جسمية سواء كانت مرتبطة بالسياق اللفظي أم منفصلة عنه ، وقد صار هذا المصطلح أكثر استخدامًا عند محللي الخطاب والسيميائيين واللغويين في العصر الحديث .

ولم يكن موضوع الوظيفة الاتصالية للإشارة أو السلوك الاتصالي الحركي وليد العصر الحديث ، بل له جذوره الممتدة في التراث العربي ، ولعل الجاحظ يعد

أول من لفت الأنظار إلى الإشارة ، وأهمية استخدامها في السلوك الكلامي ، ودورها في تعضيد البيان ، وتقوية دلالاته ، وقد استطاع أن يفصّل أنواعها من خلال إدراكه العميق لوسائل البيان التي عددها في خمس وسائل في قوله : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني بلفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد (هو الحساب دون اللفظ والخط ، كمعرفة الحسابات الفلكية) ، ثم الحال التي تسمى نصبة (هي الحال الناطقة بغير اللفظ كالجامد والصامت...)"(٥٥).

ويشترط الجاحظ لبلاغة المعنى توافق الإشارة مع اللفظ وعدم تنافرهما ، فيقول : "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور كانت أنفع وأنجع" (٥٦).

والتفت الجاحظ إلى أهمية الإشارة في السلوك الحركي ، ووظيفتها في علاقتها باللفظ ، فجعلها قسيمة له ، أو تنوب عنه كثيرًا في التواصل والبيان ، وقد تكون أبعد منه بلاغة ، بل جعل الإشارة علامة من علامات البلاغة " البلاغة في وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة " (٥٧) .

ويحدد الجاحظ أعضاء الإشارة الجسمية ، بأنها : اليد ، والرأس ، والعين ، والحاجب ، والمنكب ، بل يتسع مصطلح "الإشارة" عنده ، ليشمل جميع أشكال السلوكيات الحركية كتعبيرات العين والوجه ، والحركات الجسمية ، والأوضاع البدنية الدالة ، والإشارة عنده أيضًا قد تكون بالثوب والسيف . (٥٨)

كما نالت الإشارة أهمية عند ابن جني ، فنظر إليها من منظور لغوي ، كان فيه أكثر قربًا إلى نهج السيميائية الاجتماعية ، بؤرته معرفة أغراض المتكلمين ومقاصدهم في ضوء مشاهدة الأحوال .(٥٩)

ولا تختلف ظاهرة الإشارة عند العرب عن مثيلاتها عند الغربيين ، وإن كانت الدراسات الحديثة تناولتها بصورة معمقة ودقيقة لدورها في التواصل والتفاعل الاجتماعي ، حتى صارت علمًا جديدًا هو علم : " الإشارة الجسمية " أو علم " الكينات " أو " السيمولوجيا " أو " السيميائيات " .

وقد يأتي الخطاب مكونًا من اللغة المنطوقة ، واللغة غير المنطوقة في آن حسب السياق الذي يجري فيه ، وينتج المرسل خطابه عبر استراتيجية مختارة ؛ لينجز به فعلًا ، كما يقتضي دور الخطاب في المنهج التداولي ، وعليه غدت الصورة الإشارية تمثل عاملًا مهمًّا في تكوين بنية الخطاب من خلال قيامها بدورها التواصلي ووظيفتها الجمالية والدلالية ، فهي تجمع بين التوصيل والإيحاء ، حيث يمزج المرسل بينها وبين اللغة المنطوقة ، وقد يأتي بها مستقلة عنها ، وفي الحالتين تقوم بتبليغ دلالات الخطاب إلى المرسل إليه ، والتأثير فيه أيضًا ؛ استجابة للدواعي السياقية ، والمقتضيات الحالية .

وجاءت الإشارات في الحديث الشريف ، لتجسيد استراتيجية خطابه عليه السلام، وإبلاغه واضحًا ومؤثرًا إلى المتلقي ، تحقيقًا للغاية الإيضاحية لبلاغة الحديث في جمعها بيت التوصيل والإقناع ؛ وفي سبيل ذلك استخدم ﷺ الحركات الجسمية ، ومنها : الأصابع واليد ، والأذن والعين ، والأنف والفم ، والصدر والحلق ، كما استعمل بعض الوسائل الخارجية التي منها : الرسم ، والحصى ، والعصا ، إلى جانب استخدامه التواصل اللمسي أيضًا ، إلى غير ذلك من وسائل الاتصال غير اللفظي .

وكان لكل وسيلة منها أثرها الدلالي والجمالي الذي يختلف باختلاف السياق أو الموقف الكلامي ، وهو ما يجعلنا نتناول بالتحليل بعض النماذج للصورة الإشارية المصاحبة للسلوك الكلامي التي يحفل بها الحديث الشريف ، بوصفها

عنصرًا مهمًّا ، وأساسًا جوهريًّا من مكونات النص ، وتشكيل دلالته بالتآزر مع بقية مكوناته وعناصره البنائية الأخرى ، وهو ما يفيد في تفسير النص وفهمه .

ومن نماذج التصوير الفني التي ارتكزت على براعة الإشارة الإيمائية بديلًا عن اللغة ، بل غدت أبلغ دلالة في توضيح المعنى المطلوب ؛ فكان فيها للتجلي الحسي فاعلية وتأثير واضحان في الأبصار والنفوس ، ما رواه سعد بن سهل عن النبي ﷺ قال :" **أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**"، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، وفرج بينهما شيئا . رواه البخاري .

ويبرز الحديث علاقة التلازم والمصاحبة بين النبي ﷺ وكافل اليتيم في الجنة ؛ ليسعد بهذه المنزلة التي هي أقصى ما يطمح إليه الكافل في حياته .

وقامت الإشارة بالسبابة والوسطى بدور المشبه به ؛ لأنها أبلغ في البيان ؛ إذ لفتت أنظار المتلقي وشدتها بقوة لرؤية كلا الإصبعين اللذين يبرزان في المشهد؛ ليرى – عن كثب – قربهما وتلاصقهما معًا ، وما يرمزان به إلى القرب الروحي الذي يجمع بين النبي ﷺ وبين هذا الإنسان الرحيم كافل اليتيم ولصوقه به في الجنة ؛ مما يدل بالمشاهد أمام العين على تأكيد أجر الكافل وتقرره .

ولا ريب فإن هذا المشهد يجعل المتلقي أكثر تجاوبًا وتفاعلًا مع التعبير الانزياحي أو الانحرافي الكامن في عنصر التصوير الإشاري ؛ إذ يستحضر الصورة الذهنية لعلاقة القرب بالنبي ﷺ في الجنة ، وحبه العظيم للكافلين ؛ جزاءً وفاقًا لعطائهم وعطفهم ؛ تعويضًا لما أصاب اليتامى من آلام الفقد ؛ وبذلك ينفتح النص لتخيل عالم الجنة الغيبي ، وما فيه من نعيم الخلد ؛ فيكون هذا أدعى إلى الحث والحض على كفالة اليتيم في فعل منجز ، وبذلك يتحقق الدور الإنجازي والتداولي للخطاب النبوي عبر استراتيجية الصورة الإشارية ، وهو ما يؤكد أهمية

استعمالها في عملية التواصل التبليغي التي تهدف إليها الغاية التعليمية في الحديث الشريف .

ويعلق الدكتور عز الدين السيد على الحديث بقوله : " فالمعية أو المصاحبة في جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزاء الذي يدل عليه كمال العبارة ، وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثلى ، ثم التعجيل بأصل المجازاة – وهو الوجود في الجنة – توثيقًا لمفهوم هذه المعية المستفادة من الواو أو المصاحبة ، وليست هي الغاية أو الممثل به أو المسند في العبارة ، بل هي تابعة المقدم عليه لتعجيل المسرة .

أما الجانب المحمول والممثل به ، فقد صور صورتين : إحداهما : لفظية ، والأخرى : فعلية ، وكانت اللفظية اسم الإشارة " هكذا" المفتتح بحرف التنبيه ، والذي توسطه أداة التشبيه ، ووقع هو بعد ذلك بالموضوع المقرب ؛ ليلفت الأذهان بشدة إلى الصورة الشاخصة القريبة من العين ، المرافقة للنطق ، وهي السبابة والوسطى ، الممتدتان مع قبض غيرهما لتمام التمييز ، والمفترق ما بينهما لكمال تمكن النظر ، ولتأكد رؤية الجوار بلا فارق محس ، وتقرر مشاهدة الأصل الذي بسقتا منه "(٦٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن ابن حجر يبين الحكمة من تشبيه منزلة كافل اليتيم في الجنة بالقرب من منزلة النبي ﷺ بقوله :" ولعل الحكمة في كون كافل اليتيم شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي أو منزلة النبي ، لكون النبي ﷺ شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم ، فيكون كافلًا لهم ، ومعلمًا ومرشدًا ، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ، بل ولا دنياه ، ويرشده ويعلمه ، ويحسن أدبه ، فظهرت مناسبة ذلك "(٦١) .

والأحاديث التي تعتمد على تصوير المعنى باليد كثيرة ومتنوعة ، وفيها تأتي اليد معبرة ومدعمة لعملية التجسيم في الصورة من أجل إيصال المعنى المطلوب للمتلقي واضحًا جليًا ، وممزوجًا بالجمال الفني ، فيستقر في نفسه المعنى المجرد والمعنى الحسي معًا ، وهذا من أقوى المؤكدات والمؤثرات ، ومن ذلك قوله ﷺ :" **الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ المرّصوص يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا** " وشبك أصابعه . رواه البخاري .

ويصور التشبيه في الحديث علاقة المؤمن بأخيه والتآلف معه ، تلك العلاقة التي تزداد متانتها وقوتها بالتعاضد والتكاتف بإخوانه ، ولن تتأتى مطلقًا من ذاته وحدها ؛ لأنه غير قادر بمفرده أن يحقق ما يرغب فيه لدينه ودنياه ؛ فهو قليل بنفسه ، كثير بإخوانه المؤمنين ؛ إنه في ذلك كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، إذ ينضم الجدار إلى جدران وبيوت من حوله محيطة به ؛ فيعطيه ذلك قوة ومتانة ورسوخًا .

أما قوله ﷺ :" يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا " فبيان لوجه الشبه ، ولكنه لم يقتصر فيه على اللغة المنطوقة ، بل أشرك معه الحركة الإشارية المتمثلة في تشبيك الأصابع في وصف قوة العلاقة ومتانتها بين المؤمن وأخيه ، حتى بدت هذه الحركة أكثر دقة في تصوير هيئة المؤمنين في تماسكهم وتآزرهم تصويرًا مرئيًّا وملموسًا ، وصار المؤمن إلى جانب أخيه المؤمن كالشيء الواحد ، امتزاجًا ولحمة ، وقوة واتحادًا .

بالإضافة إلى ما تدل عليه كلمة " الْبُنْيَانِ " من شدة التماسك والترابط والإحكام ، وما تجسمه كلمة " مرصوص " من جمال يتبدى في انتظام هيئة البنيان وتناسقها .

كما تتجلى الملاءمة بين هيئة السلوك الحركي " وشبك أصابعه " والفعل السلوكي المنجز الذي تضمنه محتوى المنطوق الذي سبقها وهو الحض على الحب والإخاء ، وترسيخ روح الجماعة ، والتنفير من الأثرة والأنانية ؛ فلا قيمة للفرد إلا

في إطار الجماعة بتشكيلها البنائي المتماسك بأوامر الدين ونواهيه ، وفي هذه المواءمة ما يوطّد التضافر بين الحركة الإشارية غير المنطوقة ، وبين اللغة المنطوقة في إيصال المعنى مصحوبًا بالجمال الفني ؛ فيغدو أكثر تأثيرًا وإقناعًا ، وهو ما يقرر إسهام الصورة الإشارية في تشكيل الخطاب النبوي الاقناعي والتأثيري .

وقد تأتي الصورة عن طريق الإيماءة باليد ؛ لبيان هيئة الشيء أو كيفية حدوثه ؛ فتكسبه وضوحًا أكثر ، وتهبه دلالة أقوى ؛ فيغدو لها دورٌ بالغ التأثير في لفت انتباه المتلقين ، وإثارة نفوسهم ، لسرعة إدراك المعنى المقصود ، وتكثر النماذج التي تعتمد على تصوير المعنى بحركة اليد ، ومنها قوله ﷺ :" **يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ**" قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْهَرْجُ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ . رواه البخاري.

قال العسقلاني : " قوله : " فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ " هو من إطلاق القول على الفعل . وقوله " فحرفها " الفاء فيه تفسيرية ؛ كأن الراوي بين أن الإيماء كان محرفًا .

وقوله :" كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ " ؛ كأن ذلك فهم من تحريف اليد وحركتها كالضارب ، لكن هذه في معظم الروايات ، وكأنها من تفسير الراوي عن حنظلة ؛ فإن أبا عوانة عن عباس الدوري عن أبي عاصم عن حنظلة ، وقال في آخره : " وأرانا أبو عاصم كأنه يضرب عنق الإنسان "(٦٢) .

فالرسول ﷺ لم يعط السائل إجابة لفظية عن معنى الهرج ، بل استخدم وسيلة الاتصال غير اللفظي أو السلوك الحركي بيده الشريفة ، وكان لهذه الحركة الجسمية التي تصور المعنى ، وتلخصه ، وتسرع به ، دلالة واضحة على ما يرمي إليه ﷺ ، وهو تجسيد عملية القتل أمام الأبصار ، وبهيئة ملموسة ؛ ليرسم من خلال السياق هذا المشهد مصاحبًا للألفاظ الدالة على الفوضى ، وهي أفعال مضارعة تدل على التجدد والاستمرار : " **يُقْبَضُ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ** ،

وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ "؛ ليستحضر المخاطبون ، عبر أكثر من حاسة ، ذلك المشهد الذي يسيطر عليه الفزع والقلق والاضطراب ؛ حتى يتنبهوا إلى ما يحاك ضدهم من مؤمرات وفتن وشرور ، وما يجب أن يفعلوه تجاه القضاء عليها .

وبذلك أفصحت الحركة الإشارية عن المعنى المراد بها لا تفصح عنه الألفاظ المنطوقة ، مع قدرة بالغة على الإيجاز والاختصار والاختزال لكثير من الألفاظ والعبارات ؛ مما يبرز دورها في تصوير المعنى المحذوف تصويرًا أوقع وأعمق من خلال السياق الذي وردت فيه ؛ فالإشارة من العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي ؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها .

كما يحفل البيان النبوي ، إضافة إلى حركة اليد ، بنماذج كثيرة من مشاهدات الواقع والبيئة التي استعان بها في تشكيل صوره الإشارية الدالة ؛ بغية توضيح المعنى وتقريره في أذهان المخاطبين ونفوسهم ؛ حتى تغدو في حالة تيقظ وانتباه لا ينتهي .

ويمثل ذلك ما رواه جَابِر بْنِ عَبْدِ الله ، " أَنّ رَسُولَ الله ، ﷺ ، مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ :" **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟** " قَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَ : **أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ** ؟ قَالُوا : وَالله لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا فِيهِ أَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ قَالَ :" **فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ** " . رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (كنفه : جانبه – أسك : صغير الأذن).

فقد صور عليه السلام في الحديث الدنيا وتفاهتها عند الله بالقياس إلى الآخرة بالجدي الأسك الميت بما له من شكل قبيح ، وما ينبعث منه من رائحة كريهة ، إنه يثير حاستي الشم والبصر بما يجمع بين القبح الحسي والذهني معًا سواء كان حيًّا أو ميتًا .

أما إشارة الرسولﷺ وهو يأخذ بأذن الجدي بيده الشريفة ، فقد كانت أكثر دلالة ، وأوقع أثرًا ، إذ جمعت بين أمرين هما : الوسيلة التوضيحية ، واللغة المنطوقة ؛ حتى يضاعف من استيعاب المخاطبين للمعاني المبتغاه ، كما ينمي استخلاصهم لها ، فضلا عن أنه يثبتها في نفوسهم ، ويرسخها على نحو أعمق في عقولهم؛ حتى تتحول الغاية من تلك الوسيلة الإشارية إلى فعل منجز في الواقع الفعلي في حياة المخاطبين ، وهو عدم تعلقهم بالدنيا الفانية ، واتجاههم صوب الآخرة الباقية .

وشكل اسم الإشارة المبهم " هذا " حضورًا قويًّا في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ به ، وذلك ما أعطاه دوره التداولي في استراتيجية الخطاب ؛ كما تتجلى فيه الإحالة الظاهرة التي أدت إلى الترابط الدلالي وتقوية أواصر التركيب ، حتى أصبح الحديث بتركيبه بمنزلة الجملة الواحدة .

كما لا يخفى ما في اسم الإشارة وتكراره من دلالة قوية على هوان شأن الدنيا في مقابل الآخرة ، وقد أسهم استخدام اسم التفضيل " أهون " في إبراز تلك الدلالة ؛ لما ينضوي فيه من نفي المشابهة بين الدنيا والجدي الميت ، وإن كان أساسًا يدل على المفاضلة بين أمرين .

ولا ريب فإن البلاغة النبوية في هذا الحديث قد عدلت بالمعنى من اللغة المجردة إلى الوسيلة التوضيحية التربوية المتمثلة في الجدي الأسك الميت ؛ لتبرز قيمة الدنيا التي يتهافت عليها الناس ، إنها غدت مجسدة محسوسة أمام العيون لتراها على حقيقتها المنفرة ؛ حتى تصل الرسالة التي أرادها الخطاب النبوي واضحة قوية للمخاطبين والتأثير المباشر الذي لا يمحى من ذواكرهم ، مع تقوية التواصل وخصوصيته بين طرفي الرسالة : المرسل والمستقبل .

ومن هنا يصبح التصوير بالحركات الإشارية والمشاهد الحسية الواقعية أبلغ في رسم المعاني وإيصالها واضحة ومؤثرة ، وهذا يعني أن جميع الحواس تشترك في العملية التربوية ؛ مما يجعلها في حالة تيقظ وانتباه متواصلين .

أما الوسائل الخارجية التي استعان بها عليه السلام في عملية الإبلاغ والتوجيه ، فمنها : الرسم بالخطوط ، والحصى ، والعصا ، وهي وسائل تربوية وجمالية تصور الفكرة وتبين المراد منها على نحو أسرع في التوصيل ، وأقوى في التأثير .

ومن النماذج التي اعتمدت فيها الصورة التشبيهية على الرسم بالخطوط ؛ لتوضيح المعاني المجردة ، حديثه ﷺ عن الأمل وطوله بالنسبة إلى الأجل ، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : **خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا.** رواه البخاري.

وفي هذا الحديث يستعين الرسولﷺ بالرسم على الرمال ؛ ليوضح مفهوم الأجل والأمل ، حيث يشير الخط المربع القريب إلى الأجل ، والخط البعيد الذي هو خارج عنه يشير إلى الأمل ؛ فالأجل في الحقيقة أقرب إلى الإنسان من الأمل ، إذ يكون الأمل دائمًا لدى الإنسان أوسع من الأجل بنسب متفاوتة من شخص الآخر .

ويشير الحديث إلى تنبيه الإنسان إلى ما ينبغي أن يسلك في كافة أعماله ؛ ليعد العدة، ويحسب حسابه للموت الذي ينتظره ، كما أنه يحمل تحذيرًا من خطورة مجاوزة الحد في عقد الآمال العريضة في أموره الدنيوية التي تستحوذ على كافة أفعاله وسلوكياته ، فقد تؤدي به إلى الانحراف عن جادة الصواب ، وتعرضه إلى الهلاك والضياع .

ونتيجة لاهتمام الرسول عليه السلام بقضية الأجل والأمل التي تمثل ملخص الحياة البشرية ، فقد سلك عليه السلام أكثر من طريقة لتصويرها ، منها طريقة التمثيل الحسي باستخدام الحصى مع الإشارة ؛ لينقل للمتلقين بعد المسافة بين الأمل والأجل ، فقد أشركهم معه في تصوير البعد بين الطرفين ، حيث أخذ حصاتين ، فرمى إحداهما قريبة ، والأخرى بعيدة ، ثم استثار أذهانهم ، ولفت انتباههم بالسؤال عما يرونه أمامهم من بعد بين الحصاتين.

ثم بين عليه السلام للمخاطبين المراد من هذا التصوير بأسلوب تعليمي تربوي يجعل الذهن متأهبًا لتلقي المعنى واضحًا جليًّا ، كما جاء في حديث بريدة ، قال : قال النبي ﷺ :" **هل تدرون ما مثل هذه وهذه ؟** " ورمى بحصاتين . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :" **ذاك الأمل ، وهذا الأجل** " . رواه الترمذي .

كما استعان عليه السلام بالعصا وسيلة للتعبير عن المعنى وتجسيمه في صورة محسوسة ؛ ليستحوذ على الأذهان والأبصار ، ومن النماذج الدالة على ذلك ما رواه أنس ابن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ ، فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ ، فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ ، فَقَالَ :" **إِنَّ الْحَمْدَ لله ، وَسُبْحَانَ الله ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَالله أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا يَتَسَاقَطُ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَة**". رواه الترمذي .

ولم يأت المعنى في الحديث بطريقة مجردة ، بل جاء مجسدًا عن طريق الاستعانة بوسيلة تربوية جمالية هي العصا ؛ ليجعل المعنى المراد إبلاغه مستقرًّا في ذهن المتلقي وأمام عينيه ، وهو أن التسبيح يُحدث في الإنسان ما تُحدثه العصا بأوراق الشجرة ، حيث صور تساقط الذنوب عن طريق التسبيح ، كتساقط الأوراق عن طريق العصا ، وبذلك دل بتساقط الأوراق على غفران الذنوب ، كما دل بالتتابع في التساقط أي الغفران ، على الاستمرار في التسبيح والمداومة عليه ، حتى يكتمل الغفران .

وبذلك كانت وسيلة الإشارة الإيضاحية من أنجع الوسائل المجسمة لدور التسبيح والمعبرة عنه في تطهير الإنسان من ذنوبه وخطاياه .

ولعل هذه النماذج التي أوردناها قد أوضحت أن الصورة الإشارية في الحديث الشريف بوسائلها المصاحبة للألفاظ أسهمت بدور بارز في التعبير عن المعاني وتوضيحها ، ونقل العواطف والانفعالات مع قوة الإيحاء والتأثير ؛ فكانت جزءًا رئيسًا في عملية الاتصال بين الرسول ﷺ والمتلقين ، كما ارتبطت في أداء وظائفها المتنوعة بما يقتضيه السياق ، ويتطلبه المقام ؛ فكانت لها أهميتها الكبرى في تشكيل الصورة في الحديث الشريف.

الهوامش :

1. ينظر : استراتيجيات الخطاب ص٢١ .
2. ينظر : البهي الخولي : تذكرة الدعاة ص٦٨ .
3. ينظر : أسرار البلاغة ص٩٢:٩٦ .
4. السابق ص ٩٦ .
5. السابق ص٩٧ .
6. عمدة القاري ٢/ ٢٠.
7. النووي : شرح مسلم ١٥/ ٤٧:٤٨.
8. فتح الباري ١/ ١٣٠.
9. الأدب النبوي ص٢٤ .
10. الكاشف ١/ ٣٦٢٢.
11. وحي الرسالة ٣/ ٨٣.
12. وحي القلم ٣/ ٨.
13. النص والخطاب والإجراء ص٣٠١ .
14. أسرار البلاغة ص٢٠ ، ص٥٥ .
15. السابق ص٣٠ .
16. ينظر : د. سعد مصلوح : في النص الأدبي .. دراسات أسلوبية إحصائية ، ط٣، عالم الكتب ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م ص١٩٤.
17. ينظر تفصيل ذلك في : د.شفيع السيد : التعبير البياني .. رؤية بلاغية نقدية ،ط١ ، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠٧م ص١٦٧:١٦٨.
18. أسرار البلاغة ص٤٣ .
19. السابق ص٤٢:٤٣.
20. ينظر : دلائل الإعجاز ص٤٣٧ .
21. د. أحمد محمد ويس : الانزياح وتعدد المصطلح ، مجلة عالم الفكر ، الكويت مج٢٥ ع٣ ١٩٩١م ص٢٧ .
22. ينظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٤٣٨:٤٣٩.

٢٣. المجازات النبوية ص٢٧١ .

٢٤. السابق ص١٤٧:١٤٨ .

٢٥. ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص١٦١.

٢٦. ينظر : لسان العرب ١٤/ ٢٦٢.

٢٧. فتح الباري ١٠/ ٤٣٩.

٢٨. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص١٦٠ .

٢٩. دلائل الإعجاز ص١٠٥ .

٣٠. ينظر : د. مجيد عبد المجيد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ١٩٨٤م ص١٢٩ .

٣١. ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٢٤٦:٢٤٧.

٣٢. أسرار البلاغة ص١٣٩ .

٣٣. المنهج لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ٣/ ٥٢٥:٥٢٦ .

٣٤. ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، صححه : محمد زهري النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٦م ، ١/ ١٣٢ .

٣٥. ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٢٥١ ، ود.هيفاء عربية : الكناية في البلاغة العربية .. النظرية والتطبيق بحث ماجستير ، جامعة حلب ١٩٩١م ص٢٠٩.

٣٦. قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٧٨م ص٦٦ .

٣٧. ابن أبي الإصبع : تحرير التحبير ، تحقيق : حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣ م ص ١٤٢ .

٣٨. ينظر : د. عيد بلبع : محاضرات في البلاغة النبوية ، ط١ ، مكتبة الرشد ٢٠٠٨م ص٩٥.

٣٩. ينظر : المبرد : المقتضى ٢/ ٥٨ .

٤٠. د. عودة خليل أبو عودة : بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، ط١ ،دار البشير ، عمان ١٩٩٠م ص٥٥٦.

٤١. ينظر : محمد الأنطاكي : المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ،ط٣، دار الشرق العربي ، ، بيروت (د.ت) ٢/ ٧٠.

٤٢. ينظر : موفق الدين بن قدامة ، المغني ، ط٣ ، تحقيق : عبدالله بن عبد المحسن التركي ، وعبد الفتاح محمد الحلو ، دار عالم الكتب ، الرياض ١٩٩٧م ٢/ ٩٨.

٤٣. ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ص١٥٩.

٤٤. ابن دقيق العيد : إحكام الإحكام ،ط١، تحقيق : مصطفى شيخ مصطفى ، ومدثر سندس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ٢٠٠٥م ٢/ ٤٨٦.

٤٥. الفائق في غريب الحديث ٢/ ٤٣٠.

٤٦. ينظر : حاشية السندي على سنن النسائي ٦/ ٩٣:٩٤.

٤٧. ينظر : الطيبي :المشكاة (الكاشف عن حقائق السنن) ٢/ ٩٨٢.

٤٨. ينظر : المجازات النبوية ص٢٥٥ .

٤٩. ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٢٦٨.

٥٠. فتح الباري ٣/ ٢٨٨.

٥١. المجازات النبوية ص٥٩:٦٠.

٥٢. ينظر : الراغب الأصفهاني : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم . تحقيق : نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت) ص٢٨٦.

٥٣. ينظر : العبارة والإشارة ص٧.

٥٤. السابق ص١٠٩:١١٠.

٥٥. البيان والتبيين ١/ ٥٦.

٥٦. السابق ١/ ٧٧.

٥٧. السابق١/ ٧٨.

٥٨. السابق ١/ ٣٩.

٥٩. ينظر : العبارة والإشارة ص١٥٣ .

٦٠. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص١٥٩.

٦١. فتح الباري ١٣/ ٤٩٦.

٦٢. السابق ١/ ١٨٢.

الفصل الرابع

التشكيل البديعي

- الإيقاع وإنتاج الدلالة
- مستوى الإيقاع الصوتي
- مستوى الإيقاع الداخلي

١٨٦

الإيقاع وإنتاج الدلالة :

تشكل الألوان البديعية دورًا بارزًا في بناء الحديث الشريف ، وإنتاج دلالته ، حيث تحتل فيه الدلالة مكانة كبرى ، وتمثل المرمى المستهدف ، بيد أن الدلالات تتعدد في الأحاديث النبوية ؛ لأنها مرهونة بمستوى وعي المخاطبين ، فتأتي الصورة الصوتية للحديث متلائمة مع حركات النفس ، وقفزات الوعي .

ومن ثم كان للتشكيل البديعي فاعلية مؤثرة في زيادة معرفة القصد من دلالة اللفظ ؛ فالدلالة هي أصل الارتباط بين اللفظ والمعنى ؛ لأن مفهوم الدلالة – كما يذكر الدكتور صلاح فضل – لا يقتصر على معنى كل عنصر من العناصر ، التي تدخل في تكوين العمل الأدبي، وليس على شبكة العلاقات بينها، إذ لا بد أن تشمل طريقة أدائها لوظائفها ، وكيفية انتظامها في هذا النسق ؛ لتحقيق فاعلية جمالية خالصة [1] .

ولذلك تتعالق في النص الحديثي البنية اللفظية الخارجية بالبنية الداخلية العميقة ؛ فجمال الألفاظ لا يكمن إلا في تعلقها بالمعاني التي تتطلبها وتستدعيها ، وحسن المعاني لا يكمن إلا في وجودها داخل التركيب ؛ ومن ثم يغدو لكل حديث إيقاعه الخاص به وبعناصره ومستوياته الدالة ، التي تعمل على تشكيل خطابه ، بما يستلزمه سياق المعنى ، ويدعو إليه ، وتستريح إليه النفوس.

وقد أشار إلى تلك النظرة التكاملية بين اللفظ والمعنى ، الإمام عبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن وظيفة الجناس ، وذلك في قوله :

" وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولًا ، ولا سجعًا حسنًا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلًا ، ولا تجد عنه حولًا " . [2]

كذلك يؤدي المُرسَل إليه دورًا بارزًا في بناء الخطاب في الحديث الشريف ، إذ إن العناية موجهة إليه في المقام الأول ؛ لتحقيق هدف المُرسِل من الخطاب وذلك بالتأثير فيه ، ولذلك كان المُرسَل إليه حاضرا في ذهن المُرسِل ﷺ عند إنتاج الخطاب في الحديث الشريف ، واختيار الاستراتيجية المناسبة لإنجاح عملية التواصل التبليغية ، وتحقيق هدفه المنشود ، ومن ثم تختلف دلالة المستوى الصوتي باختلاف الحدث والسياق والمخاطب .

وعلى هذا الأساس ينبغي ألا ينظر إلى ألوان البديع في الحديث الشريف على أنها من قبيل المناسبة اللفظية ، والغاية التحسينية ، فهي نظرة – لا شك – محدودة ، لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ ؛ لأن التحسين ليس غاية ، وإنما هو نتيجة ، ومن ثم لا يجب أن يصرفنا عما يحتوي من أسرار بلاغية دقيقة في أعماق تلك الألوان البديعية .

أما مستويات الإيقاع فتتمثل في مستويين : إيقاع الصوت ، وإيقاع المعنى .

مستوى الإيقاع الصوتي :

حفل الحديث الشريف بعدة ألوان من الإيقاع الصوتي تميل إليها النفوس بالفطرة ، وتأنس بها ، وتخلع عليها راحة يوحي بها المعنى والمضمون ؛ مما يسهم في إنتاج الدلالة للحديث النبوي ، ومن هذه الألوان :

السجع :

يعد السجع من الألوان التي برز فيها جليًّا التأثير الجمالي والدلالي في تماسك الحديث الشريف وترابط أجزائه ، وهو ذلك اللون التعبيري المنوط بنهاية الفواصل التي تمثل السكتة الدلالية الطبيعية في الأداء اللغوي ، ويأتي عن طريق حركة المعنى التي يطلقها الذهن خلال تحويلها إلى صوت محسوس ، ويعمل التشابه في نهاية الجمل على إعطاء الذهن فرصة أقوى للتلقي والاستجابة المناسبة عن طريق التكرار الصوتي ، وقال عنه ابن جني : " سمي سجعا ؛ لاشتباه أواخره وتناسب فواصله ، وأصل السجع : القصد المستوي على نسق واحد [٣] .

وهذا اللون لم يكن يحفل به الرسول ﷺ ولم يحرص عليه لذاته، وإنما كان يقع في كلامه ﷺ منسجمًا سلسًا، ينساب بين جنباته طبيعيًّا دون تكلف، حسبما يتجه خطابه ﷺ خاصة فيما يتعلق بالوجدان والمشاعر والعظات والزواجر، فيصادف موقعه على نحو أبلغ دلالة ، ويؤثر في النفوس تأثيرًا بالغًا بروعة موسيقاه التي تطرب لها الأذن ، وتهش لها النفس ، فيتمكن المعنى في الأذهان ، ويقر في العقول ، ولا يخفى أن الاقتناع عن طريق السجع كان من المفاهيم الثابتة في الثقافة العربية التراثية .

فالسجع صورة نغمية يراد بها جعل الكلام بصيغة متوافقة ،تصنع حدودًا واضحة للإطار ، كما تؤثر بالإيجاب ، إذ إنه يمثل وسيلة من وسائل الإقناع التي

يرضى بها المتلقي ، ويتقبل من خلالها قول الآخر ، وقد وظف البيان النبوي هذه الطاقة الوظيفية في صياغة بعض الأحاديث الشريفة في جمل قصيرة ومسجوعة؛ ليكون وقعها في الأسماع أسرع ، وأكثر انتظامًا ؛ فتحدث تأثيرًا أقوى وأشد في نفوس المتلقين لقبول الدعوة الإسلامية ، وهي بذلك من العناصر التي تحقق الإعلامية للنص بشكل واضح .

ومن بين الأحاديث الشريفة التي جاء السجع فيها يمثل المظهر الصوتي لتماسك عناصر الإطار الواحد، ما رواه عبد الله بن سلام، قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، فجئتُ في الناس لأنظر إليه، فلما تبينتُ وجهه، عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلم به، أن قال : " **أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ** ". رواه الترمذي .

فقد وردت سلاسل السجع في الحديث بما يتطلبه سياق المعنى أو يسوق نحوها أو يدل عليها في تناغم وانسجام في الإيقاع بين الألفاظ، والتآلف بين مخارج حروفها، فجاءت الموسيقا تنساب في أسلوب الحديث انسيابًا ممتعًا، بحلو جرسها، وحسن إيقاعها ؛ مما يدل على قدرة الرسول ﷺ التي بلغت قمة الإعجاز البشري، في اختيار الألفاظ ذات الإيقاع الموسيقي المحبب إلى النفوس، وما تحمل بين طياتها من معانٍ وأفكار ودلالات تعبر عن المحبة والتسامح والتماسك بين أفراد الأمة ، ولذلك رغب البيان النبوي في الحفاظ على أكبر درجات التماثل الصوتي ، التي تضع حدودًا واضحة للإطار ، وتؤثر إيجابًا في قبول القارئ لمضمون الحديث .

وإذا كان للسجع فاعلية تتجه إلى إبراز الجانب النغمي في الحديث ، فإن له فاعلية تتجه إلى إنتاج الدلالة أيضًا ، ثم المزج بين الإيقاع والدلالة ، ويتجلى ذلك في

أروع صوره وأشكاله في الحديث الشريف في قوله ﷺ: " **كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**". رواه مسلم .

وانتهت فواصل الحديث: اللسان ، الميزان ،الرحمن ، بحرفين هما : الألف والنون ، والألف صوت لين ، ومده له دلالته الهادئة، والنون حرف متوسط الجرس ، وهو شبيه بأصوات اللين ، إلى جانب ذلك تكررت الفاصلة الداخلية : كلمتان ، خفيفتان ، ثقيلتان ، حبيبتان .

وارتبطت جماليات هذه النغمات التي سيطرت سيطرة شبه كاملة على مستوى الحديث ومجرياته ، بحالة المتلقي النفسية التي تأنس وترتاح لتلك النغمات ، لما تحمله بين طياتها من تشويق وتلهف وغبطة وسرور ؛ لاستقبال هاتين الكلمتين " سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " ، وما يحملانه من أجر كبير وثواب عظيم .

ومن السجع الذي ورد في أحاديث الدعاء، حيث التضرع والابتهال إلى الله ﷻ قوله عليه السلام : " **اللهمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ : وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، اللهمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ** ". رواه البخاري ومسلم.

وتبدو موسيقا السجع هنا هادئة سلسة تناسب جو الليل الهادئ، إذ يسلم المرء نفسه في تضرع إلى خالقه ﷻ بهذا الدعاء، وهو يأخذ مضجعه لينام في طمأنينة وسكينة، وقد تنوعت فاصلة السجع مابين الكاف والتاء تِبعًا للمعنى والسياق الذي يشير إلى أهمية التوكل على اللهأ وضرورة الإنابة إليه ، وكان للتكرار الختامي " إليك " أثر كبير في توافر الجانب الموسيقي ، كما كان له من القيمة السجعية ما هو أكبر من تكرار الحرف الواحد ؛ إذ يؤدي دورًا من حيث المدى التأثيري الذي

يتركه في صميم تشكيل البنية ، وتكثيف ناتجها الدلالي والإيقاعي في خاتمة الجمل.

وتكررت كلمة " إليك" بإيقاعها العذب ست مرات ، ولم يكن هذا التكرار عفويًّا ، وإنما جاء ليحمل دلالات عظيمة يتجلى فيها الشعور بالراحة والأمان والطمأنينة في كنف الخالق الأعظم ، وعنايته العليا ، وجاء السجع ليؤكد هذه الدلالات ، ويثبتها في الأذهان ؛ ليبين أهميتها الكبرى ، ويلفت الانتباه إليها من خلال هذا التكرار المكثف الذي يمثل إحدى وسائل الإقناع التي يرضى بها المتلقي ، ويتقبل من خلالها مضمون الحديث .

وما كان للناتجين الدلالي واللفظي أن يتحققا إلا بمجيء الكاف والتاء في تلك الفواصل من الحديث، ومن أجل ذلك آثرت الصياغة النبوية في هذا السياق استخدام الصيغة منتهية ما بين الكاف والتاء في فواصل الحديث بدلًا من مجيئها دونهما، كما قصد الحديث ذلك قصدًا .

أما موسيقا السجع التي تميل بوضوح إلى القوة والشدة الممزوجة بالإشفاق، بناءً على ما يتطلبه المعنى، ويستدعيه السياق، فمنها قوله ﷺ لأَبِي ذَرٍّ عندما قال : يَا رَسُولَ الله أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ قَالَ: " **يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** ". رواه مسلم .

ومن أجل جلاء المعنى وتوضيحه ؛ لمناسبة السياق الذي سيق فيه السجع واستحضار الموقف، وبيان حالة الإنسان في سياق التنبيه والتحذير، قصد البيان النبوي ورود اللفظين " أَمَانَةٌ " و" نَدَامَةٌ " على هذا الشكل المتوازي في الإيقاع ؛ ليضيف معنىً زائدًا في المبالغة في الأهمية وشدة العناء لمن يتولى هذا العمل ، ويتحمل تلك المسؤولية ، وما يترتب عليه من التبعات في الآخرة .

وبرزت الكثافة المعنوية ، والسعة في الدلالة في جمل الحديث ، على الرغم من قصرها ، فكان مجيء السجع تحقيقًا لنواتج دلالية في المقام الأول، وما يترتب عليه من الاتساق بين فاصلتي الحديث في شكل منسجم ومتناسب، وهو ناتج لفظي له أثره الفاعل في إشباع حاجات المُرسَل إليه الجمالية، والإسهام في ترسيخ المعنى في ذهنه ، وبذلك اشترك السجع اشتراكًا فاعلًا في التشكيل الدلالي ؛ فتحقق الانسجام التام بين بنية الإيقاع ، وبنية الدلالة ؛ مما أدى إلى التناسق في التشكيل العام لهيكل الحديث ، وإلى تماسكه النصي .

ومن أبنية السجع في البيان النبوي السجع المتوازي الذي يمثل العنصر الجوهري في السجع ، وهو من أشرف أنواعه ، إذ يزيد المعنى وضوحا ، والألفاظ عذوبة وجمالا ، والمراد به أن تتفق اللفظة الأخيرة " الفاصلة " مع نظيرتها في الوزن والتقفية ، وذهب بعض البلاغيين إلى أن أفضل أنواع السجع ما توازى جزآه وتعادلا ، فلا يزيد أحدهما على الآخر ، إذ إن هدف الحديث من خلال هذا اللون الإيقاعي الحفاظ على قدر من الاستقرار السمعي للمتلقي يساعد في سرعة إدراكه للمضمون والهدف المبتغى من الحديث ، كما يقدم له جوانب بلاغية جمالية مؤثرة في الوقت نفسه .

وتتجلى أروع صور السجع المتوازي في قوله ﷺ: " **الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ** ". رواه البخاري .

ويبرز التوازي واضحًا في الجملتين : " مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ " ، " وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ " ، حيث جاءت كل كلمة في الجملة الأولى تقابلها كلمة من الجملة النهائية على التوازي الدقيق ، دون زيادة أو نقصان ، إذ انبسط التوازي في الحديث ليس في الفاصلة فحسب ، وإنما في جميع مكونات الجملتين ، فالأحرف متساوية في العدد ، والكلمات متوازية توازيًا كليًّا ؛ حتى غدا الحديث كأنه لوحة فنية

هندسية ؛ مما يترك أثره في نفوس المتلقين ، ويقع فيها موقع الاستحسان ، فتميل بطبيعتها إليه دون إشغال الفكر ، وإمعان النظر .

ومن هذا القبيل أيضًا قوله ﷺ:" **اللهمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ ، وأعوذ بك من شرورهم** ". رواه مسلم .

فجاء التوازي الإيقاعي بين الجملتين مع اتفاق الفاصلة في حرف واحد ، لدلالات بلاغية ودواع سياقية وإيقاعية ؛ للمواءمة بين النص والموقف الذي يعبر عنه ، حيث ظهر التلاؤم والتلاحم في الشدة والقوة بين جرس الأحرف ومعاني اللفظين ؛ لما تتطلبه الدلالة النصية في السياق ، فمنح روي الفاصلة في الحديث جوًّا من الموسيقا الشديدة الصاخبة ، التي تلائم حالة الحرب وطابعها العام من الشدة والبأس التي تصاحب دعاء الرسول على أعدائه .

ومن الأحاديث الشريفة التي يتوازى فيها الطرفان ، قوله ﷺ:" **اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا قَدَّمْتُ ، وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قدير** ". رواه البخاري .

فالتوازي الإيقاعي بين طرفي الحديث جاء واضحًا وجليًّا ، أضف إلى ذلك ما تميز به الطرفان من الفواصل الداخلية في ثنايا الجمل ، وكانت في تكرار حرف " التاء " في: " أَسْرَرْتُ ، أَعْلَنْتُ ، قَدَّمْتُ ، أَخَّرْتُ " ؛ مما كشف جانبي الإيقاع والدلالة .

وأمثلة السجع المتوازي كثيرة في الحديث الشريف ، منها ﷺ: "... **اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا** " متفق عليه، وقوله ﷺ : " **أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا** ".

رواه مسلم، وقوله أيضا :" **يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا** ". رواه البخاري .

ومن ألوان التوازي التي جاءت في أروع صورها في الحديث الشريف ما يسمى توازي التكرار أو التكرار المتوازي ، ويكون عن طريق تكرار بعض الأصوات أو الكلمات أو الجمل في أنساق معينة من أجل التوازي الإيقاعي ؛ بغية تعزيز الدلالة المراد إبرازها ، ولفت الانتباه إليها من قبل المتلقي ، كقوله ﷺ: "**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله : خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ : خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ الله وَالْغَدْوَةُ : خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عليها** ". رواه البخاري.

فقد تكررت جملة " خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عليها " ثلاث مرات ، وكان لانسياب ألفاظها وسهولتها أثر بالغ في إثراء إيقاع الحديث ، كما كان الإيقاع السريع دلالة على حقارة الدنيا وتفاهتها ، وسرعة زوالها ، وأنها بزينتها وجمالها لا تساوي رباط يوم في سبيل الله ، وفي هذا تسهيل لأمر الدنيا ، وتعظيم لأمر الجهاد .

وبذلك يجذب الإيقاع المتوازي النفس ، ويكون محببًا إليها ،ويجعلها أكثر قبولًا له عن طريق هذا الجو الموسيقي الذي يشعر النفس بالمتعة والجمال .

ومن أبنية السجع من حيث الوزن أيضًا : المتوازن ، وهو مراعاة الوزن في مقاطع الكلام دون التقفية ، ويعرف القزويني الموازنة بقوله :" وهي أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية (٤) " .

ومن نماذجه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبيّ ، فقال : "**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ** ". رواه البخاري.

فالكلمتان : غريب، وسبيل، متفقتان في الوزن، ومختلفتان في التقفية، وهما

تدلان على قصر الأمل في الدنيا، فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا ؛ فيطمئن إليها ، ويتعلق بها/ بل ينبغي عليه أن يكون فيها على جناح سفر، يهيئ نفسه، ويستعد للرحيل ؛ ليكون من أبناء الآخرة المقبلة الخالدة، لا من أبناء الدنيا المدبرة الفانية .

ومن ثم يغرس الحديث في نفس المؤمن فكرة الاغتراب في الدنيا ؛ ليشير إلى أن له غاية أعظم وشعورًا أسمى وهو الاستقرار في الجنة ، ولذلك يقول الإمام العيني :" قوله : "كأنك غريب " هذه كلمة جامعة لأنواع النصائح ، إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد ، والعداوة والحقد ، والنفاق والنزاع ، وسائر الرذائل منشؤها الاختلاط بالخلائق ، ولقلة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة والأهل والعيال التي هي منشأ الانشغال عن الخالق " .(٥)

ولذا يجب على المسلم أن يبادر بالأعمال الصالحة، ويتزود منها بما ينفعه عندما يعود إلى وطن إقامته الدائمة، وهي الآخرة بأبديتها ؛ فيغتنم الدنيا لعمل الآخرة ، والمراد أن يكون المرء مستعدًّا للموت في كل لحظة ؛ ومن أجل هذا اتكأ البيان النبوي على لفظتي : غريب، وسبيل، بما توافر لهما من إيقاع موسيقي ، كان له أثره الواضح في بناء الحديث، وإنتاج دلالته .

ومن ثم يأتي التصوير بالتشبيه لبيان أن الدنيا دار غربة فلا يركن إليها ، ولا يتعلق بها ، حيث شبه الحال التي يجب أن يكون عليها الإنسان في الدنيا بحال الغريب أو عابر السبيل ، كما جاءت الأداة (كأن) لتوضح النسبة التي يشبه خلالها الإنسان المؤمن بالغريب أو بعابر السبيل ؛ إذ لا يهمل كل دنياه ، فإن لنفسه عليه حقًّا ، ولذلك اقتضت البلاغة النبوية وضع (كأن) في هذا التشبيه ؛ لحمل حال بحاجة إلى أن تقرر على أخرى مقررة معلومة ، وهذه العبارة أقرب إلى طبيعة الناس والحياة ، مما لو كانت العبارة (إنك في الدنيا غريب أو عابر سبيل).(٦)

كما أشار الإمام الطيبي إلى أن " أو" ليست للشك بل للتخيير والإباحة ، والأحسن أن تكون بمعنى " بل " حيث شبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يؤويه ، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل القاصد لبلد شاسع ، وبينهما أودية مردية ، ومفاوز مهلكة ، فإن من شأنه ألا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة (٧) .

أما الإمام العيني فيرى أن العطف بالحرف "أو" للتنويع ، ووجه العطف يكمن في أن العبور يستلزم الغربة والمبالغة فيه أكثر ، لأن تعلقاته أقل من تعلقات الغريب ، وهو من عطف الخاص على العام.(٨)

ولذلك يمثل حال عابر السبيل زيادة في الزهد ، وتعمقًا في اليقين الديني ، ومن ثم فهو أقل تعلقًا من الغريب بالدنيا ، وحاله أخص من حال الغريب ؛ لأنه يمر عليها مرورًا سريعًا.

ومن الموازنة ما جاء في قوله ﷺ: " **لَعَنَ الله الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ** ". رواه البخاري .

وقوله ﷺ: " **أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ** ؟ " ، قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : " **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** ". رواه مسلم .

وقد يجمع الحديث بين السجع والطباق أو المقابلة، كما في قوله ﷺ: " **اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ عَلانِيَتَهُ وَ سِرَّهُ** ". رواه مسلم .

حيث اقترن السجع بالطباق في : " دِقَّهُ وَجِلَّهُ " و " أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ " و " عَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ " وجاء ذلك تفصيلًا لما قبله " اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي " ؛ مما كان له أكبر الأثر في جمال المعنى والدلالة عليه .

وبناء على ذلك جاءت ألوان الموسيقا النابعة من السجع في فواصل الحديث النبوي، دليلًا على دقة اختيار البيان النبوي لألفاظ الفواصل من حيث بواعثها

ومقتضياتها المعنوية والسياقية في المواضع التي وردت فيها، تحقيقًا لنواتج دلالية وجمالية، فضلًا عن هذا فكان لها دورها في صنع التماسك الإيقاعي والدلالي في نص الحديث الشريف .

أما موقف الرسول ﷺ من السجع، فقد كره ﷺ سجع الكهان، ونهى عنه، قائلًا ﷺ : " **إياكم وسجع الكهان** "، أو " **أسجعا كسجع الكهان ؟!** " وذلك لما فيه من تكلف وتصنع، وإيهام المعنى، وغموض العبارة، وغرابة الكلمات وحوشيتها، والاعتماد على إيقاع الألفاظ الرنان، بيد أنه ﷺ لم ينه عن السجع في حد ذاته على الإطلاق، وإلا ما كان ورد في حديثه ﷺ، كما أنه لم يقل ﷺ" أسجعًا " ثم سكت، بل علق نهيه على سجع الكهان فحسب ، وبذلك يكون ذمه للسجع الذي مثل سجع الكهان لا غير .(٩)

ومما سبق يتضح أن السجع أسهم في انسجام الخطاب النبوي في الحديث الشريف ، وترابط أجزائه من خلال استمرار بنيته في فواصل متتابعة ، بحيث أصبح وسيلة أساسية في تشكيل جمل النص على مستوى تركيبي أشمل .

الجناس :

ومن فنون البديع الموسيقية التي تجلت في البيان النبوي، وأضفت على المعنى وضوحًا ، وعلى الألفاظ عذوبة وجمالًا، فن " الجناس " بما توافر له من إمكانات تعبيرية ثرية تعمل على المستويين الخارجي والداخلي في حركة تحويلية تنطلق من اللفظ نحو المعنى.

ويعد الجناس من المنبهات الأسلوبية التي ترتكز على القيم الصوتية التي تفرز إيقاعات معينة ذات تناسب صوتي ودلالي ، ويعتمد على التماثل أو التشابه في الشكل والاختلاف في المعنى، ويحسن في الكلام إذا صدر عن طبع، وجاء عفوًا، وقاد إليه المعنى، ولم يكن مقصودًا في نفسه، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر في قوله :

" أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مرمى الجمع بينهما مرمى بعيدًا، فقد تبين لنا أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الإكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني، والمصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى ، كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين.."(١٠)

ويعرف الجناس بأنه اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه، مع اختلاف معانيهما"(١١) أبيد أن أهميته لا تكمن في خلق مساحات متتابعة في سطح النص من التشابه الصوتي ، وإنما فيما يفيده في إبراز بعض الكلمات المهمة بشكل واضح ، بما يعني وضوح معانٍ معينة يرغب المرسِل في تكثيف تواجدها دلاليًّا على وجهٍ أخص .

ومن صوره التي جاءت في الحديث الشريف " تجنيس الاشتقاق " ، وهو أن يكون اللفظان لهما أصل واحد في اللغة، كقوله ﷺ: **" اتقوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "**. رواه مسلم .

وقد برز في هذا الحديث الشريف، عمل بنية الجناس بين لفظي : " الظُّلْمَ " و " ظُلُمَاتٌ " في الربط بين المستويين : الصوتي والدلالي ؛ مما أضفى على بناء الحديث ثراءً إيقاعيًّا واضحًا، وعمق من ناتجه الدلالي الذي يتدفق في مجرى الدلالة الأساسية ، والسياق الكلي للحديث الذي يحث كل مسلم - حاكمًا أو محكومًا - على إقامة أهم مقصد من مقاصد الإسلام ، وهو العدل، واجتناب الظلم ؛ لأن العدل أساس الملك، كما أن الظلم سبب رئيس في انحطاط الأمم، ودمار حضارتها في الدنيا، وسبب لسخط الله وعقوبته في الآخرة .

والنظرة المتأنية في الحديث تبين أنه قدم صورة حالكة شديدة تغطي أنحاء المشهد كله ، لبيان أثر الظلم ، وقد استخدم الرسول ﷺ أسلوب الأمر " اتقوا "؛ ليدل على أهمية ما يأتي بعده، ووجوب تنفيذ ما يشير إليه عليه السلام، وهو الابتعاد عن الظلم، وجاء التعريف في كلمة " الظُّلْمَ " ليفيد معنى الاستغراق، حيث شمل جميع أنواع الظلم وألوان التعدي على النفس ، وعلى الغير، وأعظم الظلم هو الإشراك بالله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان)، ومعنى الظلم هو : مجاوزة الحد والتعدي بكل أشكاله .

ثم علل ﷺ السبب في اتقاء الظلم ؛ لأنه ظلمات يوم القيامة، حيث أفادت " لأن" التعليل والتوكيد مع الإشارة إلى أهمية الخبر وعنايته به ، وبيان خطر الظلم يوم القيامة ؛ ولذلك أكده بأكثر من مؤكد "إن" والجملة الاسمية .

وتضافر التشبيه البليغ مع الجناس في " الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ " حيث شبه الظلم وهو معنوي بالظلمات وهي حسي ، لوجه الشبه في كل وهو التخبط وعدم الاهتداء إلى طريق الحق ، وعدم الوصول لغاية أو تحقيق هدف مع سوء المصير المحتوم ، وقد حذف وجه الشبه حتى يجعل النفس تذهب في تخيله كل مذهب .

كما أن هناك علاقة بين معنى اللفظين : الظُّلْمَ " و " ظُلُمَاتٌ "، فالظلم من معانيه : الكفر والشرك والنفاق، والظلمات هي : السواد والظلمة والضلال، وهي صفات تلازم الكافر أو المشرك، أو المنافق، كما أن كلمة " ظُلُمَاتٌ " جاءت جمعًا ونكرة، لتفيد التهويل والتعظيم لشأنها ، ولم يربطها بكلمة الليل ؛ لتكون أشد تأثيرًا ، فهي ظلمات مغايرة غير معهودة لنا حتى في الليل ، إنها حالكة شديدة، تمتد لتغطي كافة الأنحاء ، وبذلك جاء لون الظلمات مرتبطا بالسياق الكلي للحديث ، ويخدم فكرته الرئيسة ، وله أثره النفسي في نفس المخاطب الذي هو أحد طرفي الاتصال، أما تقييد الظلمات بيوم القيامة ؛ فجاء ليزيد المعنى هولًا

والمصير سوءًا ، ويشعر الإنسان بالرهبة من هذا اليوم المهيب ، حتى يقلع عن الظلم الذي أمر الرسولﷺ بتركه والابتعاد عنه .

وبذلك تبين عن طريق بنية الجناس مقدار العذاب الذي يواجهه الظالم يوم القيامة ، كما نلمح الملاءمة القوية بين دلالة الجناس ودلالة الفعل الإنجازي الذي أراده النهي الذي سبقها ، وهو التحذير ، وهذه المواءمة تدعم المعنى ، وتجعله أشد بروزًا للمتلقي .

وتتحرك بنية الجناس - غالبا- في الأحاديث الشريفة ما بين جملة أو جملتين، وقد يبرز ظهورها في منطقة الفاصلة ؛ وهذا التعالق بين الجناس والسجع في تلك المنطقة ، من شأنه تدعيم العنصر الصوتي للجوانب الدلالية للإطار الأكبر ، فهو إذ يذكر الكلمات المرتبطة بالمعاني المحورية من خلال الجناس ، فإنه يعرض هذه الكلمات في نهايات التراكيب أو الفواصل ؛ حتى يكون لعرضها على هذا الشكل وقع أشد تأثيرًا لدى المتلقي .

فالوقوف عليها في الفواصل يظهرها دلاليًّا دون منافسة من بقية البنى المشاركة لها في التركيب ، فضلًا عن هذا فإن موقعها المكاني يؤكد أنها آخر ما يسمعه المخاطب ؛ فيكون أثرها أكثر حضورًا وحيوية من سواها من الكلمات التي يتشكل منها الحديث، كما في قولهﷺ: " **اللهمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي** ". رواه النسائي ، فالحروف في لفظتي " خَلْقِي" و "خُلُقِي " جاءت متساوية في تركيبها وترتيبها، ولكنها مختلفة في أمر واحد هو التشكيل .

وفي قوله ﷺ: " **رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي ، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي** ". رواه الترمذي .

ومثله قوله ﷺ: " فيما يروى أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه، فقال رسول الله ﷺ: " **خلوا بين جرير و الجرير** " أي دعوا زمامه .

وتتعدد شواهد الجناس في الأحاديث الشريفة، وتتنوع ألوانها، ومنها قوله ﷺ: **" الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ "** متفق عليه .

فالجناس بين " الْمُسْلِمُ " و"سَلِمَ " يمثل وسيلة أساسية اتكأ عليها الحديث إيقاعًا ودلالة في بناء خطابه الذي يضعنا أمام قضية كبرى تتعلق بحياة الناس الاجتماعية، وتغرس فيهم حقيقة الإيمان المقترن بصالح الأعمال، فالمسلم الكامل في إسلامه يكون حريصًا في أقواله وأفعاله على أن يعيش مع الناس في سلام ومحبة وتعاون على البر والتقوى بلا ضغينة أو حقد أو كراهية وحسد، ويعطي كل ذي حق حقه، وبذلك يحبه الخالق والمخلوق .

ومن أروع صور الجناس ما جاء في قوله ﷺ: **" الْخَيْلُ معقودٌ بنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الأجر والمغنم "**. رواه البخاري .

فاللفظتان : " الْخَيْلُ " و " الْخَيْرُ " جناس غير تام، حيث اتفقتا في حرفين، واختلفتا في حرف مع اختلاف معانيهما ، بيد أن التجانس الصوتي بينهما ، جاء ليوحي بتماثل الطرفين ، إذ جعل الحياة عند المسلم وما يمور فيها من نشاط وخير وصلاح مرهون بركوب الخيل التي هي إحدى وسائل الجهاد ؛ مما يدل على أن السياق يحث على إعلاء كلمة الله ، ونشر تعاليم دينه ، وذلك من خلال استخدام وسيلته المحببة إلى العربي وهي " الخيل " ، التي وسمها بالخيرية العامة ، ثم خصها بالأجر والثواب ؛ ليسمو بها على الرغائب الدنيوية الزائلة إلى الخيرية الأخروية الباقية ، ومن هنا جاء التجانس الصوتي بين " الْخَيْل " و " الْخَيْر " ، ليمزج بينهما مزجًا يدل على الأجر والمغنم في الدنيا والآخرة .

كما نلحظ أن السياق قد ركز على الناصية من جسم الخيل ، وهي أعلى ما فيه ؛ ليدل على سمو العمل ، وعزة المسلم وشموخه وكبريائه ، فالرأس هو أشرف

الأعضاء ، إلى جانب ذلك فقد قدمت كلمة " معقودٌ "، تجسيدًا للخير ثابتًا للرؤية ، وهو ما توحي به الصيغة الاسمية لاسم المفعول " معقودٌ " مما يدل على أن السياق العام للحديث يشتمل على القوة والظهور والخير الدائم. (١٢)

وبذلك أسهم السبك الصوتي المتولد من بنية الجناس في إشعار المتلقي بتماسك النص وترابطه لحظة أدائه ،، فالمتلقي يستهويه -أول ما يستهويه- البعد الموسيقي للغة خصوصًا إذا كان الأداء الصوتي للنص يسير وفق نمط إيقاعي منتظم في جمل النص المتتابعة .

التصدير :

من ألوان الإيقاع اللفظي التي وردت في ثنايا البيان النبوي، " التصدير " أو " رد العجز على الصدر " ، وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين به، في أول الفقرة والآخر في آخرها (١٣).

فالتصدير شكل من أشكال السبك والتماسك المعجمي في النص الحديثي، مع تأكيد الفكرة وتقريرها ، حيث يعتمد على إعادة ذكر اللفظ في بداية النص وفي آخره ، وهذا الامتداد أو الإحالة بالعودة يحدث ترابطًا بين عناصر النص ، كما أنه يفيد في تحديد الجمل الأساسية والثانوية في النص ، وتحديد الكلمات المحورية التي يميل المرسِل إلى تكرارها غالبًا ؛ لتسهم في تأكيد أهمية تمييز هذه الجمل بإشارتها إلى القضية الأساسية ؛ مما يوضح التأثيرات البنائية والدلالية لبنية التصدير في النص الحديثي ، فضلًا عن تأثيراتها الإيقاعية.

ومن صور التصدير في الحديث الشريف قوله ﷺ : " **الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ شعب الْإِيمَانِ** " متفق عليه .

وتنهض بنية التصدير هنا في الحديث، بدورها التوكيدي للمعنى من خلال الربط بين طرفيها، عن طريق رد المعنى من الطرف الثاني إلى الطرف الأول ؛ لإحكام العلاقة بين البداية والنهاية بالأصوات ذاتها التي بدأ بها الحديث ؛ مما يكثف من إيقاعها الصوتي، وناتجها الدلالي ؛ ليمتد ويتواصل على مستوى الحديث كله ؛ فيتحقق تماسك النص وترابط أجزائه .

ويؤكد الحديث أهمية الالتزام بالإيمان وخصاله وشعبه التي يكمل بعضها البعض ، وهي متفاوتة ، فأعلاها وأفضلها كلمة التوحيد ؛ لأنها مفتاح الدخول إلى الإسلام ، أما أدناها فإماطة الأذى وإبعاده عن الطريق ، وهو من أنواع الإحسان القولي والفعلي من حيث جلب المنافع ، ودفع المضار عن الناس .

ثم يأتي ما بين الأعلى والأدنى خلق الحياء ، الذي هو خلق الإسلام ، والسبب الأقوى والأهم للقيام بجميع شعب الإيمان ، فمن استحيا من الله لنعمه وفضله عليه ، ابتعد عن الحرمات وامتنع عن المعاصي ، وقام بالواجبات والمستحبات ، ولذلك خصه الحديث بالذكر من بين سائر الشعب ، فهو الداعي إليها جميعًا ، وقد يكون من الحياء ما هو اكتساب ، ومنه ما هو بالطبيعة ، وعنه قال النبي ﷺ : " **الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ** " و " **الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ** " .

وبذلك يتضح جليًّا أن التصدير ملمح أسلوبي يسهم في تماسك النص الحديثي وترابط أجزائه ، كما أنه يكثف دلالته ، ويضيف في كل مرة معنى جديدًا للفظ المكرر بما يقتضيه سياقه الذي يرد فيه ؛ مما يجعله مميزًا عن مثيلاته.

مستوى الإيقاع الداخلي :

وتتعدد ألوان الإيقاع الداخلي وتتنوع في الحديث الشريف ، ومن أهمها :

التقابل (الطباق والمقابلة) :

تعد بنية التقابل من البنى الإيقاعية التي تجلت في الحديث الشريف بصورة واضحة [١٤]، وهي من الوسائل الثرية بأثريها الدلالي و الإيقاعي التي عبرت عن موضوعات البيان النبوي أصدق تعبير، وساعدت على تكثيف الإيقاع المعنوي المركب، واتساقه مع هذه اللغة التقابلية .

ولذلك كانت هذه الوسيلة من أبرز وسائل التماسك الدلالي في الحديث الشريف ، وظهرت بوضوح في كثير من نماذجه ؛ مما يدل على أهميتها التي تكمن في الوظيفة البراجماتية التي تقوم بها من حيث العمل على ربط الجمل بالسياقات التي ستكون ملائمة لها ، إذ إن البراجماتية في أبسط تعريفاتها هي دراسة العلاقات بين اللغة والسياق تلك العلاقات القائمة على فهم اللغة [١٥] .

ومن بين هذه الصور التعبيرية لبنية الطباق بإيقاعها الدلالي المركب ما جاء في قوله ﷺ :" **اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ** ". رواه أبو داود وأحمد والترمذي وغيرهم .

فالطباق جاء بين كلمتين موجزتين جامعتين هما : " السَّيِّئَةَ " و " الْحَسَنَةَ " ؛ ليعبر عن علاقة المسلم بخالقه ﷻ وأن هذه العلاقة يجب أن تقوم على أساس من التقوى، وهو الخوف من الله، والعمل بما يرضيه من اتباع أوامره، وتجنب نواهيه ؛ مما يقتضي أن يبادر المسلم بفعل الحسنات والإكثار منها ؛ لتمحو السيئات التي اقترفها، ثم يكتمل هذا كله بما يجب أن يتحلى به المسلم في علاقاته مع الآخرين من معاملة حسنة طيبة، وخلق مهذب كريم .

ونلاحظ أن الحركة التقابلية هنا تبدأ بالعمل السلبي " السَّيِّئَةَ "، ليتولد عنه تقابل ايجابي يفضي إلى نقيضه " الْحَسَنَةَ " بمعنى أن اقتراف الذنب والإثم، وكل ما يبغضه الله و يعاقب عليه، يجعل المسلم القوي الإيمان يندم ويتحسر على ما قام به، فيسارع إلى تكفير هذه الذنوب ببذل الحسنات ؛ ليمحو بها آثار السيئات ويطهرها ؛ ومن هنا تصبح للسيئة ثنائية مضادة هي الحسنة، إذ إن من مكفرات الذنوب، الحسنات يذهبن السيئات، لقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود)، وقد يراد بالحسنة التوبة من تلك السيئة.

وهذا يدل على أن البيان النبوي قد حرص من خلال البناء الدلالي لثنائية السيئة والحسنة، على أن يرسم الطريق الأمثل للمجتمع المسلم وسلوك أفراده، وكيفية تطهير سلبياته، وتهذيب أخلاقه، إذ إن أكمل الناس إيمانًا أحسنهم أخلاقًا ، وبذلك تحقق التماسك الدلالي للنص الحديثي ؛ نتيجة لتفاعل تلك الثنائية التقابلية.

ومن نماذج بنى الطباق ما جاء في قوله ﷺ: " **مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ** ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وقد انبسط الطباق على مساحة الحديث، مضيفًا أبعادًا دلالية ثرية، أبرزت المعنى ووضحته من خلال الألفاظ المتضادة : " الدُّنْيَا -الْآخِرَةِ "وتكرارها، و" يَسَّرَ - مُعْسِرٍ " وهذا يعطي بعدًا ثريًا في تعميق الإحساس بحب أبناء المجتمع، والدعوة إلى التمسك بالتعاون بينهم، والحث على تنفيس كرباتهم، والتيسير عليهم، فخير الناس أنفعهم للناس ، ورحمة الناس رحمة في الدنيا والآخرةا فالجزاء

من جنس العمل ؛ ومن ثم كان للتقابل المكثف أهميته في الربط بين الجمل المتتابعة عبر النص على المستويين الشكلي والدلالي .

ومن صور المقابلة التي ظهرت في قوله ﷺ: " **عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ إِلا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَشَكَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ** ". رواه مسلم .

فالبنية التقابلية في الحديث الشريف تعبر عن حال المؤمن نحو ما يواجهه من أحداث الحياة وأقدار الله، وهو حالة الرضا الدائمة، إذ يشكر في السراء، ويصبر على الضراء ؛ مما يؤكد شمول الخير لحاله في كافة ما يلاقي من أحداث على امتداد حياته الدنيوية، وهذا نابع من رؤيته اليقينية العميقة للأمور ؛ فيرى أن ما يصيبه هو قدر من الله لحكمة أرادها ﷻ ؛ ومن ثم فإن أمر المؤمن كله خير، وهذا لا يتأتى إلا للمؤمن الحقيقي .

فالتقابل هنا جاء بين الجملتين الأخيرتين ، ومع قيامه على أساس دلالي كما هو الشأن فيه، فإنه يتضمن أيضا لونًا من التوافق الصوتي الناشئ من الاتفاق في الصيغة والوزن بين : " خَيْرٌ" و" شَرٌّ"، وبين " شَكَرَ " و "صَبَرَ " ؛ مما يجعل البنية في النهاية بنية دلالية صوتية تمارس تأثيرها المزدوج في توليد الإيقاع ؛ وهو ما يسهم بدور فاعل مع بقية العناصر الأخرى في دعم التماسك النصي .

وتتعدد ألوان المقابلة بأبعادها الدلالية في الحديث الشريف، وهي تفصح في كافة الأحوال عن جمال الأسلوب، ووضوح المضمون، وجودة السبك، وتعالق اللفظ والمعنى تعالقًا متناغمًا، ومن شواهدها قوله ﷺ: " **إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**". رواه مسلم .

وقوله ﷺ:" إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ ، وَلا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ ". رواه مسلم .

وقوله ﷺ:" حُفَّتْ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ". رواه البخاري .

وقوله ﷺ:" بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا ". رواه الترمذي.

ومن الأحاديث التي جمعت بين الطباق والمقابلة قوله ﷺ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا لا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ". رواه البخاري .

ونلاحظ أن الحديث اشتمل على أكثر من طباق، وأكثر من مقابلة، بهدف بيان أهمية إقامة المجتمع المسلم على أساس ديني سليم .

ومنه قوله ﷺ:" دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ ، فَإِنَّ الشَّرَّ رِيبَةٌ ، وَالخَيْرَ طُمَأْنِينَةٌ " متفق عليه .

فالطباق السلبي هنا بين : " يَرِيبُكَ " و " لا يَرِيبُكَ "، والمقابلة بين : " الشَّرَّ رِيبَةٌ " و " الخَيْرَ طُمَأْنِينَةٌ" .

وهكذا تتوالى بنى التقابل في النص الحديثي ؛ لتعمل على توليد الإيقاع الناشئ عن تضادها ، وعن تواشج عناصرها ؛ مما يحدث إيقاعًا خاصًّا يكون له تأثيره البالغ في نفسية المتلقي ، وفي لفت انتباهه إلى المواطن الجمالية التي تتجلى

واضحة في النص وهو ما يسهم في تحقيق تماسكه بالتضافر مع بقية العناصر الدلالية ، ويؤدي إلى التواصل الإيجابي بين المرسِل والمرسَل إليه .

فنون أخرى :

ويفيض البيان النبوي بالأحاديث التي تزدان بفنون البديع بأثريها الدلالي والإيقاعي أومنها :

التقسيم: وهو أن يستوفي المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث يذكرها جميعًا، ولا يترك منها قسمًا، ويسمى هذا اللون بصحة الأقسام (١٦)، كما في قوله ﷺ: " **لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أو تصدقتَ فَأمضيْتَ** " . رواه الترمذي .

وقد استوفى الحديث ما يكون للإنسان من ماله ، فليس له منه إلا المذكور : إما للأكل أو اللبس، أو للتصدق، وليس هناك رابع لهذه الأقسام ، وهذا يدل على أن القسم الثالث هو أفضل هذه الأقسام ؛ ولذا يجب على الإنسان أن يحرص على الإنفاق في سبيل الله ، فيتصدق ويمضي ، لأن القسمين الأول والثاني ينتهيان، فالأكل يفنى ، واللبس يبلى .

كما تعالق في انسجام تام ، ونسيج محكم ، حسن التقسيم مع الإيقاع الموسيقي للسجع المنبعث من انتهاء الجمل في نص الحديث بتاء الخطاب المسبوقة بياء ساكنة : " فَأَفْنَيْتَ ، فَأَبْلَيْتَ ، فَأمضيْتَ " ؛ مما كان له أثره في تثبيت المعاني وتمكينها في وجدان المتلقين ، وتحقيق الترابط بين أجزاء النص .

الجمع : وهو الجمع بين متعدد في حكم واحد (١٧)، ومنه قوله ﷺ :" **مَنْ أَصْبَحَ مُعَافَىً فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بحذافيرها** ". رواه الترمذي . [السرب : يطلق على النفس، وعلى الجماعة من النساء والبقر

وغيرهما . الحذافير : النواحي، واحدها حذفار].

فقد جمع الرسول ﷺ بين الأمن ومعافاة البدن، وقوت اليوم في حكم واحد، وهو حيازة الدنيا، وامتلاكها جميعًا، والغرض من هذا الجمع، هو بيان أن الدنيا ما هي إلا أمن ومعافاة، وقوت يوم، فمن ملك هذه الأمور فقد ملك الدنيا كافة ؛ وهذا يدل على أن الدنيا يجب ألا تُعطى أكبر من حجمها، وألا تشغل هم المسلم، ولا تسيطر على عقله وقلبه بأكثر مما تستحق؛ فهي أهون من ذلك بكثير، وما هي بالنسبة إلى الآخرة إلا كما قال ﷺ :" **مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِع**". حديث مرفوع .

كما يبرز واضحًا في الحديث الإيقاع الموسيقي المنبعث من الجمل الثلاث ، حيث تنتهي كل جملة منها بهاء قبلها كسرة : بَدَنِهِ ، سِرْبِهِ ، يَوْمِهِ ، وهو مايثير النفس ويحركها نحو المعنى ؛ فتمتلئ به ، ويتأكد لديها ، وحرصًا على امتداد هذا الإيقاع في الجملة الأخيرة ، فقدم لفظ " عِنْدَهُ " وهو المسند ، على المسند إليه " قُوتُ يَوْمِهِ" ، إذ لو جاء على الأصل "قوت يومه عنده " لضاع هذا الإيقاع النغمي .

ومنه أيضًا قوله ﷺ:" **مَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ** " . ثُمَّ سَكَتَ، فَقَالُوا : مَا بَالُهُ ؟ فَقَالَ : " **أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** " .

فجمع عليه السلام بين : الصابر على البلاء ، والشاكر على العطاء، والغافر لمظلمة وقعت عليه، تحت حكم واحد، هو الأمن والهداية ، وجاءت هذه الأزواج اللغوية ؛ لتعبر عن المضمون بالحجة القوية المقنعة ، ونتيجة لتفاعلها المعجمي ، تحقق التماسك النصي على نحو واضح .

تأكيد المدح بما يشبه الذم : وهو أسلوب يقوم على مفاجأة المتلقي بصفة من صفات المدح، حيث كان يتوقع صفة ذم، وذلك باستخدام أداة من أدوات

الاستثناء أو الاستدراك [18]، ومن ذلك قوله ﷺ:" **أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ** ". رواه الطبراني .

حيث وصف الرسول ﷺ نفسه بصفة مدح من صفات الكمال، وهي الفصاحة ، ثم اتبع هذه الصفة بأداة الاستثناء "بيد" بمعنى "غير" بما يشعر أنه يريد إثبات وصف بعدها مخالف لما قبلها ، فلما أثبت أنه من قريش في قوله " أني من قريش " ، وقريش - كما نعلم – أفصح العرب ، كان ذلك تأكيدًا للمدح بأسلوب أَلِفَ الناسُ سماعه في الذم ، فكان ذلك مدحًا مضافًا إلى مدح ، فأثبت فصاحته عليه السلام بأسلوب فيه تأكيد وتقوية للمعنى من خلال علاقة دلالية تجمع بين أطراف النص ، وتربط بين متوالياته على أساس من الربط العكسي ؛ لإفادة التماسك بينها ؛ مستهدفًا بذلك تحقيق درجة معينة من التواصل مع المتلقي الذي يحمله على التفاعل مع الرسالة على نحو مقنع .

المذهب الكلامي : وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام أو احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه أي تكون المقدمات مستلزمه للمطلوب [19]، وهذا النوع نُسبت تسميته إلى الجاحظ.

ومنه ما جاء في قوله ﷺ:" **والذي نفس محمدٍ بيدهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا** ". رواه البخاري .

ويكون تمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيرًا، وبكيتم قليلًا ؛ فلم تعلموا ما أعلم .

اللف والنشر : وهو ذكر متعدد على جهة الإجمال أو التفصيل، ثم ذكر أشياء على عدد ذلك كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم من غير تعيين، اعتمادًا على أن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق به [20]، ويمثله قوله ﷺ:" **إِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ يَوْمَ**

الْقِيَامَةِ مِنْ إِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا مِنْ شُبْهَةٍ فِي الدِّينِ ارْتَكَبُوهَا ، أَوْ شَهْوَةٍ لَذَّةٍ آثَرُوهَا ، أَوْ غَضْبَةٍ لِحَمِيَّةٍ عَمِلُوهَا ، فَإِذَا لاحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ فَاجْلُوهَا بِالْيَقِينِ ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَكُمْ شَهْوَةٌ فَاقْمَعُوهَا بِالزُّهْدِ ، وَإِذَا عَنَتَ لَكُمْ غَضْبَةٌ فَادْرَءُوهَا بِالْعَفْوِ " . رواه أحمد.

فاللف في قوله ﷺ:" **إِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ...** " والنشر في قوله :" **فَإِذَا لاحَتْ لَكُمْ شُبْهَةٌ...** " .

وتتمثل بلاغة هذا اللون في أن ذكر اللف يهيئ نفوس المُرسَل إليهم، ويعدها لاستقبال ما يذكر بعده من النشر، فإذا ما ذكر النشر بعد ذلك وقع في النفوس موقعه، وتمت الفائدة، وتحقق الغرض المقصود منه ، أبلغ تحقيق ؛ لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلبة ، وله مترقبة ، وفي ذلك إثارة لانتباه المتلقي ، وتنشيط لذهنه ؛ لتحقيق التواصل الفاعل بين المبدع والمتلقي ، فضلًا عما يحققه هذا اللون من روابط دلالية بين عناصر النص ، مما يدعم تماسكه وانسجامه .

الإرصاد: هو أن يجعل المتكلم في كلامه ما يدل على نهايته ويُشعر به، فمتى قرع سمع الإنسان أول الكلام، فإنه يفهم آخره [٢١]، ومن أمثلته في الحديث الشريف، قوله ﷺ: " **مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى يَرْجِعَ** ". رواه الترمذي . وقوله ﷺ: " **فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا من دَارٍ إِلا الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ** ". رواه مسلم .

وأدى هذا اللون دورًا في تماسك أجزاء الحديث الذي ورد فيه ، فصار وحدة متلاحمة مترابطة يدل بعضه على بعض ، وأفاد تأكيد المعنى وتقويته ، وتكمن بلاغة هذا التشكيل البديعي في دلالته على آخر الكلام قبل الوصول إليه ، فالكلام الجيد – كما قال القدماء – ما دلت موارده على مصادره ، وكشف أوله عن آخره ، حتى قالوا : البلاغة أن يكون كلامك دالًا على آخره ، وآخره مرتبطًا بأوله .

مراعاة النظير : وهي الجمع بين الشيء وما يناسبه من نوعه ، أو ما يلائمه من أحد الوجوه ، بأن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضا ؛ رعاية لحسن الجوار والمناسبة ، ويسمى هذا النوع التناسب والائتلاف ، ويؤخذ من معناه وجه التسمية (٢٢) .

ومن أمثلته الجمع بين الرفث والصخب الذي نهى الصائم عنهما ، بغرض التنفير منها، وكذلك الجمع بين المسابة والتقاتل وصياغتهما على (المفاعلة) دلالة على المشاركة ، وتحذيرًا من مجاراة الساب أو القاتل ؛ حفظًا لحالة الصائم ، وذلك في قوله ﷺ: "**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصِّيَامُ فَهُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِنْ كَانَ صَوْمُ يَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ أَحَدٌ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ**". رواه البخاري .

ففي الحديث تبرز واضحة علاقة التلازم الذكري المتمثلة في الأزواج اللغوية بين : "يَرْفُثْ" و "يَصْخَبْ" و "سَابَّهُ" و"قَاتَلَهُ"، للتعبير عن المضمون بالأدلة الواضحة ، إلى جانب دورها الأساس في سبك النص وتماسك عناصره .

التوشيع : المراد به أن يأتي المتكلم بمثنى أو جمع في حشو العجز، ثم يفسره بمعطوف ومعطوف عليه أو أكثر، بما يدل على معناه، ويجعل الأخير هو الفاصلة (٢٣)، كقوله ﷺ:" **نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**". رواه البخاري .

حيث بدأ الحديث الشريف بالنكرة المثناة " نِعْمَتَانِ " الموصوفة بالغبن " مَغْبُونٌ "؛ وذلك للتشويق والتعظيم، والتفاؤل والرضا ؛ لأن المتلقي يترقب توضيح هاتين النعمتين اللتين غُبن فيهما كثيرٌ من الناس ، ثم يأتي قوله في نهاية الحديث : " الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ " للتوضيح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال ؛ لأن النعمتين معنى مُبهم غير واضح، وقد خص ﷺ هاتين النعمتين بالذكر لأهميتهما

في حياة المسلم، وأنه يؤجر عليهما إذا اغتنمهما في طاعة الله ؛ لقوله ﷺ:" **اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**".(٢٤)

وعلى هذا يكون المعنى قد ورد ذكره بصورتين :

الأولى : مجملة مبهمة، والثانية : مفصلة موضحة ، بهدف تمكين المعنى وتقويته ، وإظهار القضية بشكل جلي ، فيؤكد على وجودها بأن يظهرها مفصلة بعد أن أوردها مجملة مكثفة، فضلًا عن تشويق المتلقي وتهيئة ذهنه لمعرفة تفصيل المعنى بعد إبهامه ؛ ومن ثم كان التفصيل بعد الإجمال من الروابط الدلالية القوية بين عناصر النص الحديثي التي تؤكد تماسكه الداخلي.

ومنه قوله ﷺ:" **يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ : الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ** ". رواه البخاري .

ويبرز في الحديث طرفان متناقضان نفسيًّا وجسمانيًّا ، الأول : الإنسان الهرم الآخذ في الذبول والتضاؤل ، والثاني: الحرص الشاب الآخذ في النضوج والكمال ؛ حيث كثرة المال ومباهج الدنيا ، وطول العمر ، ولكن الطرف الثاني يشب ويعيش في كنف الأول ، وكأن هذا الحرص إنسان داخل الإنسان ، بيد أنه ينمو ويكبر حتى يسيطر بقوته على ضعف الإنسان وهرمه ، فيقضي عليه .

أما عبارة " وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ " فتأخذ –كما يذكر الدكتور أحمد ياسوف– مظهرًا كريهًا بهذا النمو البطيء الذي يثير الذعر في النفوس ، وكأنه ثعبان داخل الإنسان يتحرك ببطء، حتى إذا ما وصل ابن آدم إلى قمة عجزه وضعفه ، ظهر هذا الإنسان الداخلي بمنتهى قوته ، فها هنا تعارضٌ خفي رهيب ، وحرص كريه ، ومظهر بشع للأنانية غير النافعة ، وهذا مما يثير الكراهية والسخرية ، والشعور

بالسخف في آن واحد؛ لأن العمر على مشارف النهاية ، وكأن هذا الإنسان يجمع التراب الذي سينهال على جسده الذي ينذر بالموت في كل لحظة .[٢٥]

أسلوب الحكيم : وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يتطلب ، ويرجع استخدام هذا الأسلوب إلى العدول في الجواب عن موجب الخطاب ؛ لحكمة شريفة يقتضيها المقام ، أو نكتة لطيفة يرتضيها ذوو الأفهام ، فهو يحقق أغراضًا منها: الإجابة بما فيه فائدة المخاطب ، والتأدب ، والاستعطاف ، والتخلص ، وإظهار القدرة على المحاورة والجدل ، والطرافة والهزل .[٢٦]

ومن شواهده حديث علي ﵁ أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فلم تصادفه ، فذكرت ذلك لعائشة ، فلما جاء عليه السلام أخبرته عائشة رضي الله عنها . قال الإمام علي ﵁ : فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبنا نقوم ، فقال :" على مكانكما" فجاء فقعد بيني وبينها حتى وجدتُ برد قدميه على بطني .

ولعل فاطمة رضي الله عنها اعتقدت حينما طلبت من النبي عليه السلام خادمًا أنه سيعطيها إياه ، ولن يرد طلبها ، بيد أن النبي ﷺ تلقاها بغير ما تترقبه ، فقال لها ولعلي : " **أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ** ". رواه البخاري .

وهذا كلام على طريقة الأسلوب الحكيم ، يتضمن لفتهما معًا إلى ما هو أولى لهما ، قال الطيبي : " علمها ما هو الأهم بحالها من التسبيح والتحميد والتكبير من طلبها الرقيق ، فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يتطلب ، إيذانًا بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد والتجافي من دار الغرور والصبر على مشاقها ومتاعبها[٢٧] .

ومن ذلك إجابة السائل بأكثر مما سأله ، وذلك في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم: مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟ ، وكان الظاهر في الجواب أن يعدد النبي عليه السلام ما يجوز للمحرم لبسه ، غير أن النبي ﷺ عدل عن ذلك إلى ما لا يجوز له ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لاَ تَلْبَسُوا الْقُمُصَ، وَلاَ الْعَمَائِمَ، وَلاَ السَّرَاوِيلاَتِ، وَلاَ الْبَرَانِس، وَلاَ الْخِفَافَ. إِلاّ أَحَدٌ لاَ يَجِدُ النّعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسِ الْخُفّيْنِ. وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ. وَلاَ تَلْبَسُوا مِنَ الثّيَابِ شَيْئًا مَسّهُ الزّعْفَرَانُ وَلاَ الْوَرْسُ". رواه مسلم .

واعتمد أسلوب الحكيم هنا على العدول ، حيث جاء جواب النبي عليه السلام مناقضًا للسؤال ؛ لأن مقتضى الظاهر أن يكون الجواب مطابقًا للسؤال ، فإذا نقض فقد خالف الظاهر ، وكانت المناقضة في الحديث لأكثر من فائدة ذكرها الطيبي عن البيضاوي ، يقول :" إنما عدل عن الجواب المطابق إلى هذا الجواب ؛ لأنه أخصر وأحصر ، فإن ما يحرم أقل وأضبط مما يحل ، أو لأنه لو قال : يلبس كذا وكذا ، فربما أوهم أن ليس شيء مما عدده من المناسك ، وليس كذلك ، فعدل إلى ما لا يوهم ذلك ، أو لأن السؤال كان من حقه أن يكون عما لا يلبس ؛ لأن الحكم العارض المحتاج إلى البيان هو الحرمة ، وأما جواز ما يلبس فثابت بالأصل ، معلوم بالاستصحاب ، فلذلك أتى بالجواب على وفقه تنبيهًا على ذلك (٢٨)".

ولا يخفى ما يضفيه هذا اللون الأسلوبي على النص من ترابط بين أجزائه من خلال علاقة دلالية تجمع بين جمله المتوالية على أساس الربط العكسي بين السؤال والجواب .

وهكذا جاءت ألوان المستوى الخارجي والداخلي في الحديث الشريف وسائل تعبيرية فاعلة بأثريها الدلالي والإيقاعي على مستوياتها المختلفة، في التعبير بوضوح ودقة عن مضامين الدعوة المحمدية وأهدافها ؛ مما يدل على إعجاز البيان

النبوي في توظيف هذه الفنون بما تحمل بين جوانبها من دلالات بلاغية معينة تختلف من نموذج لآخر، وعلى هذا يكون لكل حديث مستوياته الدالة التي تعمل على تشكيله بما يتطلبه معناه، ويقتضيه سياقه، ومراعاة للحال في الوقت ذاته .

وبذلك يغدو للحديث قيمة فنية جمالية خاصة تستهدف خلق إثارات وتأثيرات في المتلقي، لا تعتمد على توضيح المعنى أو تحقيقه ، وإنما تخلق معنى خاصًا يفيض بإيحاءاته ودلالاته الممتدة التي لا يتسنى للتعبير المنطقي أن يفي بها ، ومن ثم يمثل التشكيل البديعي جانبًا فاعلًا من جوانب البلاغة في الحديث النبوي الشريف .

الهوامش :

١. ينظر : د. صلاح فضل : إنتاج الدلالة الأدبية ، ط٥، المركز الحضاري العربي ، القاهرة ٢٠٠٢م ص٥ .

٢. أسرار البلاغة صـــ١١ .

٣. ينظر: لسان العرب مادة: سجع.

٤. القزويني : الإيضاح ، ط٢ ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة (د.ت) ٦/ ١١٢ .

٥. عمدة القاري ١٥/ ٥٠٠.

٦. ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص١٤٤ .

٧. ينظر : عمدة القاري ١٥/ ٥٠٠.

٨. ينظر : جامع الأصول ، حاشية المحقق ٤/ ٣٩٢.

٩. ينظر تفصيل ذلك في : المثل السائر ١/ ١٩٣، الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، ط٤ ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ صـــ٩٨، إعجاز القرآن صـــ٦٥:٢٧٥، والبيان والتبيين ١/ ٢٨٧:٢٨٨.

١٠. أسرار البلاغة صـــ٥ .

١١. العلوي : الطراز ،ط١، مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت١٩٩٥م ٣/ ٣٥١ .

١٢. ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص٣١٧:٣١٨.

١٣. ينظر : الإيضاح ٦\٢٩٤ .

١٤. الفرق بين الطباق والمقابلة هو أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين، أما المقابلة فتكون – غالبًا – بالجمع بين أربعة أضداد : ضدان في صدر الكلام، وضدان في عجزه، وقد تصل المقابلة إلى الجمع بين عشرة أضداد، خمسةٌ في الصدر، وخمسةٌ في العجز، وكذلك الطباق لا يكون إلا بالأضداد، أما المقابلة فتكون بالأضداد وغير الأضداد .

ولا يحتاج الأمر في هذا اللون البديعي إلى ذلك التقسيم ووضع الحدود للتفريق بين الطباق والمقابلة ؛ لأن الأساس الذي يقوم عليه الطباق هو نفسه الذي تقوم عليه المقابلة . وهو التضاد في المعاني ، فكلاهما يتناول موضوعًا واحدًا، وما هذا إلا ذاك، ولا فرق بينهما إلا في العدد فقط ؛ ومن ثم يفضل أن يندرج اللونان تحت تسمية واحدة، ولتكن "المقابلة " لأنها أعم من المطابقة، حيث تشمل

التقابل بالأضداد وغيرها، وكذلك النفي والإيجاب، وعليه نكون قد ابتعدنا عن التفريع والتنويع للون واحد .

١٥. ينظر : منال النجار : مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات ص٦٣ ضمن كتاب : التداوليات – علم استعمال اللغة ، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي ، ط١ ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ٢٠١١م .

١٦. ينظر : الصناعتين صـ٢٣٠، الإيضاح ٦/ ٤٧ .

١٧. ينظر :الإيضاح ٦/ ٤٥ .

١٨. ينظر : ابن المعتز : البديع ، ط٢، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، رابطة الأدب الحديث ، مكتبة النجاح ، ١٩٥٨م صـ٦٩٤، ابن رشيق : العمدة ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٦٣م ٢/ ٤٥ ، الصناعيين صـ٤٠٨ .

١٩. ينظر : الصناعتين ٤١٠، الإيضاح ٦/ ٦٥، تحرير التحبير ١١٩، عروس الأفراح ٤/ ٣٦٨ .

٢٠. ينظر : الإيضاح ٦/ ٤٢:٤٣ .

٢١. ينظر : الصناعتين صـ٢٧٣، الإيضاح ٢٥١٦،تحرير التحبير ٢٢٨، الطراز ٣/ ٧٠ .

٢٢. ينظر : الإيضاح ٦/ ١٩ ، معاهد التنصيص ٢/ ٢٢٧ .

٢٣. ينظر : تحرير التحبير صـ ٣١٦ ،بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن (شروح التلخيص) ٣/ ٢١٦ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٧م .

٢٤. الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٨م ٥/ ٤٣٥ كتاب الرقاق.

٢٥. الصورة الفنية في الحديث الشريف ص٤٨٦.

٢٦. ينظر : ابن كمال باشا : رسالة في بيان الأسلوب الحكيم ص١١٧ .

٢٧. الكاشف عن حقائق السنن ٥/ ١٤٢، وينظر : فتح الباري ١١/ ١٢٤ .

٢٨. الكاشف عن حقائق السنن ٥/ ٣٢٩، وينظر : فتح الباري ١/ ٢٣١،٣/ ٤٠٢ .

الفصل الخامس

فنون العرض في الحديث النبوي

- مدخل.
- الحوار.
- القصة.
- الخطابة.
- الرسالة.

مدخل :

يهدف الحديث النبوي إلى الإبانة والتبليغ للدعوة الإسلامية ، والتمكين لها في نفوس المخاطبين ، وفي سبيل ذلك اختار الرسول ﷺ لخطابه من فنون العرض وطرائقه ما يناسب المخاطبين ويحقق حاجاتهم إلى الإقناع والتأثير أو التمكين ، وكانت هذه الفنون والطرائق رافدًا من الروافد التي تنمي الإطار الأكبر للغاية التعليمية التبليغية للحديث الشريف التي تتمثل في الأمر والنهي .

أما أهم ما يميز تلك الفنون فهو التلوين والتنويع في أساليب الأداء ، وعدم الالتزام بنمط واحد محدد ، فضلًا عما تتميز به من قدرة على المزج بين الحقيقة الدينية والغرض الأدبي تحقيقًا للبعد الفني في التعبير الذي يعين المتلقي على تقبل الخطاب والاستمتاع به ، وتمكينه في نفسه .

وتُعنى هذه الدراسة بالتناول الموجز لفنون العرض وطرائقه في الحديث النبوي ، وبيان أهم أهدافها ، وخصائصها الأسلوبية التي تتميز بها ، وقد اخترت أربعة منها ؛ لدورها البنائي والدلالي في الخطاب النبوي ، وهي : الحوار ، والقصة ، والخطابة ، والرسالة ، وفيما يلي عرض موجز لكل نوع منها .

الحوار:

هو أسلوب رفيع من أساليب الاتصال اللغوي ، وطريقة من طرائق التربية النفسية والفكرية للإنسان ، وجاء في اللغة : الحوار بمعنى المراجعة والتجاوب والخطاب .(١)

أما في الاصطلاح ، فهو نوع من الحديث بين طرفين أو أكثر يتم تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة ، ويغلب عليه التفاهم والهدوء ، والبعد عن الخصومة والتعصب وفرض الرأي ، أو هو تبادل الحديث بين طرفين عن طريق طرح السؤال والجواب عليه ، كما يطلق على المحادثة والمناقشة بين الأشخاص ، كما يطلق على الجدال والمجاوبة ، وهناك الحوار القائم على تبادل الحديث بين الشخصيات في القصة والمسرحية .(٢)

وكان الحوار وسيلة مهمة من وسائل الدعوة العملية الواقعية التي لجأ إليها الرسول ﷺ كوسيلة تعليمية لها غايات وأهداف محددة ؛ ليستطيع من خلالها التعرف على واقع الصحابة النفسي والفكري والاجتماعي ، ومعالجة القضايا ، وحل المشكلات التي تواجههم ، وتفسير بعض الأمور أو تصحيحها ، والإجابة على بعض الأسئلة وغيرها .

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان يختار في دعوته وتعليمه أفضل الأساليب ، وأوقعها في نفس الصحابة ، وأقربها إلى فهمهم وإدراكهم ، وأشدها تثبيتا للموضوعات في أذهانهم ، وأكثرها مساعدة على إيضاحها لهم .

أما المهارات التي يقصدها الحوار فهي تكمن في توجيه القدرات والطاقات ؛ واكتشاف الميول والرغبات ، وإعمال الأذهان ، وكد الفكر ، وإيقاظ الهمم ، وإثارة الانتباه ، وتشويق النفس ؛ للإقبال على متابعة الحوار ؛ مما يجعل المتعلم

قادرا على فهم الموضوع وإدراكه بعمق وتركيز ، ليصل من خلاله إلى مستويات عليا من التربية الفكرية والنفسية والاجتماعية ؛ لأجل الوصول إلى معرفة الصواب والعمل به ، وهو ما يشغل مجال البحث العلمي في النظريات التربوية المعاصرة .

ونتيجة لأهمية الحوار وجوانبه الإيجابية في الدعوة والتعليم ، فقد سلك النبي ﷺ في الحديث الشريف طرائق متعددة ومتنوعة من الحوار بحسب طبيعة الموقف ، ومقتضيات السياق ، ومراعاة حال المخاطبين.

ومن النماذج التي تبرز فيها ملامح من الحوار النبوي وبلاغته وتوجيهاته التربوية ، بهدف الإقناع الفكري للمتعلم ، واستنتاجه النتيجة السليمة بنفسه ، عن طريق إعمال فكره بأسلوب بلاغي ، وتسلسل منطقي للأمور ، وإقامته الحجة والدليل ، وقياس الأمور على الأشباه والنظائر ، ولم يكن الحوار هنا متعمدا من الرسول ﷺ ، وإنما أملته واقعة معينة ؛ ولذا جاء الحوار على هيئة توجيه سلوكي قبل حصول الانحراف الخلقي ، وذلك في خطابه ﷺ التربوي للشاب الذي غلبته شهوته، وطغت على عقله وعواطفه ، فجاء من تلقاء نفسه طالبا منه الإذن له بالزنا ، وذلك فيما روي عن أبي أمامة قال :

أَنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا !! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ؛ قَالُوا : مَهْ مَهْ !!

فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ادْنُهْ** ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا .

قَالَ : فَجَلَسَ .

قَالَ : **أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟!**

قَالَ : لا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ .

قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ .

قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ ؟!

قَالَ : لا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ .

قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ .

قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ ؟!

قَالَ : لا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ .

قَالَ : وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ.

قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟!

قَالَ : لا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ .

قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ.

قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟!

قَالَ : لا وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ .

قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ .

قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ .

فَلَمْ يَكُنْ الْفَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ) رواه الإمام أحمد .

[مَهْ : اسم فعل أمر معناه:اكفُفْ – ادْنُهْ : فعل أمر من الدنو ، وهو القرب ، والهاء فيه للسكت ، جيء بها لبيان الحركة].

أما الرسول ﷺ فقد أظهر استيعابه لحالة هذا الشاب من خلال أسلوب الحوار والمساءلة ، وإشارته إلى الصحابة بالتوقف عن زجره وتوبيخه ، وعدم الطعن في عقله أو دينه ، ودون سرد لأدلة الوعيد والتحريم ، فضلا عن حرصه

على الحوار معه مغلفا بالرحمة ، والوصول إلى النتيجة الإيجابية المرجوة من اللقاء .

وهذا ما تدعو إليه التربية الحديثة في " أنه يجب تجنب عرض نقاط الاختلاف ؛ لأنه يوقف الحوار من أوله على أقل تقدير ، وينحى به منحى التحدي ، ويكون نصرة الذات لا بلوغ الحق هي الهم الأوحد ، فلتبدأ الحديث بنقاط الاتفاق ، تجعل محاورك يقتنع بحديثك دون أن يشعر ، وقد كان سقراط حكيم اليونان يسأل محاوره أسئلة لا يملك الإجابة عليها إلا بنعم ، ويظل يكسب الجواب تلو الجواب ، حتى يجد مناظره نفسه مقتنعا بفكرة كان ضدها منذ خمس دقائق " (٣)

وعلى هذا النحو كان الحوار والمساءلة والموازنة العقلية من أبرز أساليبه ﷺ للحض على إعمال الفكر للجواب ؛ ليجتث الباطل من نفس مستحسنه ، ولذلك استأصل الرسول ﷺ من نفس الشاب تعلقه بالزنا ، وأقنعه بما أقره الشرع بخطابه التربوي عن طريق المحادثة والمحاكمة النفسية ، والموازنة العقلية الهادئة التي استخدم فيها ﷺ بلاغته ، فالبلاغة هي فن الإقناع بالخطاب الذي يعرّف بأنه " كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودًا مخصوصًا " .(٤)

وعلى هذا يتكون الخطاب من مرسِل ، ومرسَل إليه ، ونص موجه من الأول إلى الثاني يحمل في طياته معنى مرسلا ، يركز فيه على الأثر الذي تتركه الرسالة في المتلقي ؛ أي درجة العلاقة التفاعلية بين المرسِل والمتلقي (٥) ويستوي في ذلك الخطاب بشقيه : المكتوب والشفاهي ، كما يستوي المرسَل إليه الحاضر أو المستحضر ، فلا يقتصر توجيهه إلى المرسَل إليه الحاضر عيانا ، بل يتجاوز توجهه إلى المرسَل إليه الحاضر في الذهن (٦) .

والمرسِل هنا هو الرسول ﷺ ومكانته معروفة في نفوس الصحابة والمسلمين ، والمرسَل إليه هو الشاب (في اللحظة الآنية) ، أما الاستراتيجية التي استخدمها

الرسول ﷺ في خطابه للشاب ، فهي استراتيجية الإقناع .

ومن ثم أخذ الخطاب يتنامى ويصل الأمر بهذا الشاب إلى أن يمتثل لما أراده ﷺ . ويقال إن هذا الشاب لم يعد لمثل هذا الفعل الفاحش مرة أخرى ؛ لأن ختمه ﷺ لهذه المحاورة بالدعاء الصادق كان له أكبر الأثر في تقويم سلوكه وتعديله .

وهذا يدل على أنه ينبغي للمربي أو العالم إذا رأى من يخل بواجب أو يفعل محرما أن يترفق في إرشاده ويتلطف به ، لأن ذلك أقرب إلى الفهم وأوقع في النفس ، كما في هذا إرشاد لضرورة اللجوء – أحيانا – إلى العقل مع بعض المخاطبين ، إذا كانت الحالة تستدعي ذلك ، كحالة هذا الشاب الذي طهر النبي ﷺ قلبه من الزنا بتلك المحاورة العقلية الهادئة .

ولعل في عدم إخضاع الطرف الآخر جبريا للرأي السلطوي ، يجعلنا نذهب إلى أهمية الحوار الراقي المهذب الذي لا يمتعنا فحسب ، بل إنه يقنعنا بشكل فاعل وجاذب ، مما يزيد من فرص التواصل المثمر البنَّاء مع المتلقي له في كل زمان ومكان .

لأن أسلوب طرح الأسئلة في الحوار من أقوى أساليب الإقناع ؛ إذ يرقى بالمتلقي من أسلوب التقليد الأعمى إلى أسلوب إعمال الفكر ، وإيضاح الحقائق ، والحرية في مناقشة ما يعترضه من أفكار ؛ حتى يجد الحل الذي يتمشى مع الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح ، دون أن تفرض عليه بالقوة . (٧)

وكان بإمكان الرسول ﷺ تلاوة آيات تحريم الزنا أمام هذا الشاب وحسم الأمر ، ولكن الموقف والمقام كان يقتضي توجيها أخلاقيا وتربويا ، تمثل في عدم غضبه ﷺ واتجاهه إلى الحوار الهادئ المنطقي ، الذي لا يملك الطرف الآخر حياله إلا الإذعان ، دون المساس بحقه في التعبير ، حيث وجد الرسول ﷺ أنه من

الأجدى أن يسوق للشاب الاقتراحات مجردة ، وأن يدعه يتوصل إلى الرأي الصحيح من تلقاء نفسه ، وأن الرسول ﷺ وجد منذ اللحظة الأولى في مناقشة القضية أهمية أن يشكل رسالته تشكيلا يلائم عقلية الشاب ، وينجح في إقناعه ، عن طريق توجيه أسئلة ذات طابع معين ، بطريقة مفيدة ، تقود إلى نقاش لب القضية المطروحة ..

وقد أشار إلى ذلك بعض الباحثين بقوله :" فأفضل الأفكار وأصدقها ، وأكثرها نفعا تلك التي يمكن للمستمع أن يقارنها بالأفكار التي يعرفها مسبقا أو يشعر بها ، فإذا كانت جملتك الأولى تتفق مع ما يجده في ذاكرتهم ، فسوف يوافقون عليها ، ولن يعترضوا ، بل سيبتسمون ، ويومئون برؤوسهم ... فإذا أردت إقناع مستمعك ، يجب أن تعرف تلك القوة الموجهة في تكوينه الشخصي ، والتي تتطابق كثيرا مع أهدافك ".[٨]

فاستخدام الرسول ﷺ لأدواته اللغوية في الحديث الشريف مردها إلى معرفته ﷺ الظروف النفسية التي يمر بها الشاب ويفصح عنها الموقف ، فهو شاب ومعروف أن هذه الفترة في عمر الإنسان تتأجج فيها شهواته وتقوى ، وكان ذهابه إلى الرسول ﷺ يستشف منه رغبته في الطاعة ، ومحاولته اجتناب المعصية .

ومن ثم وضع الرسول ﷺ في خطابه الطريقة الصحيحة في تربية النشء التربية الجنسية السليمة وفق المنهج الإسلامي ، فنجده ﷺ أعطى الشاب أمنا نفسيا ومنحه تعاطفا وودًّا قبل إدارة الحوار ، مما جعل الشاب يصغي إليه ﷺ بقلبه وعقله .

وتمثل هذا الأمان النفسي في منع الصحابة من زجر الشاب ، وتقريبه إليه ، ثم إقامة الحوار معه دون الحجر على رأيه ورده ؛ مما جعله يصل بالشاب إلى الحقيقة

التي يريدها من أقصر طريق إلى الفهم ، وبأقل وسيلة في الإقناع ، وبذلك كان الحوار خصيصة من خصائص الخطاب النبوي ، لجأ إليه ﷺ للوصول إلى معرفة الحقيقة ، وهو أسلوب محبب إلى النفوس ؛ لأنه ينشط الذهن ، ويوقظ الفهم ، ويبعد الملل والسأم ، ويجذب انتباه السامع للإقبال على متابعة الكلام ؛ مما يجعله قادرًا على فهم الموضوع وإدراكه بعمق وتركيز شديدين .

وعلى هذا الأساس جاء المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في تصحيح الواقع الاجتماعي والأخلاقي ، قائما على أساس تصوره لطبيعة الإنسان ولاحتياجاته الفطرية ، وأهمية تحقق التوازن في إشباعاته النفسية والحسية في إطار الدور المحدد لها، وفي نطاق المنهج الإسلامي ، شأنها في ذلك شأن القضايا والمشكلات الأخرى التي تواجه الفرد والمجتمع .

وثمة أحاديث أخرى كثيرة يعد فيها الحوار وسيلة من وسائل التربية النفسية والفكرية والاجتماعية للنفس البشرية ، وقد سلك فيها النبي ﷺ طريقة طرح السؤال على طائفة من الصحابة ، بقصد الاستماع إلى إجاباتهم ، وهي نوع آخر من إثارة أذهان الصحابة يختلف عن طريقة الطرح والإثارة التي جاءت في الحديث النبوي السابق ، حيث يعمد فيها الرسول ﷺ إلى مناقشة إجابات الصحابة مناقشة يشحذ من خلالها أذهانهم ، ويعمل فكرهم تجاه قضية معينة ؛ ليتوصلوا إلى معرفة وجه الصواب فيها ، أو الحلول المناسبة لها .

ويؤدي الحوار النبوي دورا بارزا في الدعوة والإرشاد والتوجيه والإصلاح ، إذ يقصد منه غايات عليا ، تتمثل في تنمية قدرات الصحابة العقلية في تقليب الأمور ، والنظر إليها من وجوه مختلفة ومتعددة ، وكذلك التعمق في البحث في جوانبها وأبعادها ، دون الوقوف عند مظاهرها أو معانيها السطحية ، فضلا عن

أن الحوار ينمي قدراتهم على المقارنة والتقييم وغيرها من القدرات التي تحقق لهم طلاقة في الرؤى والأفكار، وطلاقة في التعبير على حد سواء[٩].

ومن نماذج ذلك السؤال الذي طرحه الرسول ﷺ على مجموعة من الصحابة، في بداية الحديث الشريف، وهو يعلم أن إجابتهم ستأتي وفق قدراتهم الناقصة في موضوع الجواب الذي يريد شرحه لهم، ثم يعرض عليهم الجواب الصحيح بعد أخذ جوابهم، وفي ذلك باعث قوي لإثارة فطنتهم، وتحريك ذكائهم للسؤال، وتشويق نفوسهم إلى الإجابة الصحيحة التي ينتظرون معرفتها، وحضهم على إعمال الفكر للجواب؛ ليكون جواب النبي ﷺ أقرب إلى الفهم، وأوقع في النفس.

وعلى هذا النحو حرك السؤال المفهوم الخطأ العالق بأذهانهم ليطرحوه، ثم يعيد عليه السلام وضعه وضعًا صحيحًا يحقق الغاية التعليمية التبليغية التي تصل بالإبلاغ إلى حد الإقناع والتمكين في نفوسهم.

وكان السؤال الرئيس الذي استهل به ﷺ الحديث يتناول أمرًا معروفًا للناس، وهو الإفلاس؛ فيبادر المتلقين بقوله: "**أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟**" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "**إن الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بصلاة وصيام وزكاة، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**" رواه مسلم.

وبدأ الرسول ﷺ حواره مع الصحابة بجملة استفهامية فيها حركة وإثارة، واستحضار للعقل، وتحفيز للانتباه، وإثارة للصحابة، عن المفلس .. ما هو؟ ويكثر التشويق عادة بالاستفهام في الحوار النبوي، ويبقى معه الكلام مفتوحًا لبقاء الكلام في حاجة إلى جواب بالقول أو استجابة بالفعل، أو ما من شأنه أن يبقى الكلام مفتوحًا غير مغلق.

ويبدأ الاستفهام بالهمزة غالبًا ، ويأتي كثيرًا في سياق التقرير ، فتأتي الإجابة هنا مؤكدة " إن المُفْلِسَ " ، لتكون راسخة في وجدان الصحابة وأذهانهم ، لأن مفهوم الخبر فيه تحويل للمخاطبين من مفهوم يعرفونه ومستقر في أذهانهم عن " المُفْلِس " إلى مفهوم ديني يجهلونه ، وقد يقع منهم موقع الاستغراب .

وقد آثر الحديث دخول الهمزة على فعل الدراية " تدْرُونَ " لما فيه من إمعان النظر والفكر ، فهو أدل على المعنى المراد ، إذ يدرك الرسول ﷺ أن الصحابة لا يعرفون معنى " المُفْلِس " الحقيقي بمفهومه الأخروي لا الدنيوي المتعارف عليه لديهم، وهو من لا درهم له ولا متاع .

أما (ما) الاستفهامية ، فيجوز أن يسأل بها عن العاقل وغير العاقل ، ولكنها هنا جاءت للسؤال عن العاقل وهو المفلس ، وما هيئته وحقيقته ، وهذا جائز ، وقد يكون استخدام (ما) التي لغير العاقل دون (من) التي للعاقل إشارة إلى أن المفلس الذي يقصده الرسول ﷺ ضعيف العقل أو فاقده ، وذلك لعدم حرصه على حسناته وتضييعها بإيذاء الناس .

وعقب توجيه السؤال إلى الصحابة ، جاءت إجابتهم بما يعرفون من أمور دنياهم ، فكان تفسيرهم للمفلس بالإجابة المتوقعة بأنه الذي لا يملك شيئا من المال ، ولا من نعيم الدنيا ومنافعها ، فهم يحصرون الإفلاس في إطار محدود هو المال والمتاع فحسب ، ثم لا يلبثون أن يتشوفوا إلى ما يخبر به النبي ﷺ عن حقيقة " المُفْلِس " ، وبذلك تنتفي عن السؤال دلالة الاستفهام أي طلب الفهم ؛ ليصبح الغرض من السؤال هو الإفهام وليس الاستفهام ، وهنا يخرج السؤال عن حقيقته إلى معنى التنبيه والتوجيه والتعليم بغرض تصحيح المفاهيم وترسيخها في عقولهم وقلوبهم .

أما إجابة الرسول ﷺ فجاءت ؛ لتقويم نظرة الصحابة القاصرة إلى مفهوم" المُفْلِس " وحقيقته ، ودعوتهم إلى البحث والتفكير ؛ لتتجلى لهم الحقيقة واضحة بارزة ، وتلفت أنظارهم – في الوقت نفسه- إلى ما هو أعمق وأوسع وأسمى في تصور مفهوم " الإفلاس " الحقيقي وجوهره ، وهو إفلاس المرء من الحسنات يوم القيامة ، ودون النظر إلى مظهره السطحي .

وبذلك يتحول الخطاب النبوي إلى الإضراب عن التعريف الذي صرح به الصحابة ، إلى تعريف الرسول ﷺ للمفلس بقوله " إن المُفْلِس مِنْ أُمَّتِي " حيث جاءت الجملة الخبرية لتزيد المتلقي انتباها ويقظة واستحضارا ؛ لتغيير الرسول ﷺ لمفهوم المفلس المستقر لدى المتلقين إلى المفهوم الجديد ، حيث وضع ﷺ مفهوما اصطلاحياً محدداً للمفلس من خلال المنهج الإسلامي ، والذي يدل على ذلك قوله ﷺ " من أُمَّتِي " .

ومن ثم يحذر الرسول ﷺ من هذا الإفلاس الحقيقي الذي يكون عقابه النار يعذب فيها بسبب سلوكه وأفعاله مع الناس ، على الرغم من أنه عمل أعمالا صالحة في الدنيا من صلاة وزكاة وصيام وسواها من أعمال ، بيد أن ثوابها قد ضاع ، لظلمه الآخرين ، وإيذائهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من غير حق ، فهو شخصية تؤدي العبادات ، ولكنها ظالمة مؤذية على المستويين ، المعنوي : المتمثل في الشتم والقذف ، والمادي : المتمثل في أكل أموال الناس ، وسفك دمائهم ، وإيقاع الضرب عليهم .

وقد جاءت الألفاظ : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، بصيغة النكرة للدلالة على التعظيم ، إذ هي من أركان الإسلام وأعمدته .

وبناء على هذه الصورة المتناقضة لشخصية المفلس التي تجمع بين التدين والظلم والإيذاء في الدنيا ، تأتي صورته في الآخرة يخيم عليها الذل والانكسار

والحزن والألم ، حيث تؤخذ حسناته التي استحقها في الدنيا بأعماله الصالحة ؛ لتعطى إلى من ظلمهم ، وأضيروا بأذاه وعدوانه ؛ سدادًا لديونه المستحقة عليه في الدنيا ، إذ لا يملك سوى حسناته يوم القيامة ، فإن انتهت حسناته ، ولم تُسدد مظلماته ، يظهر حينئذ إفلاسه الحقيقي ، أي لم يعد له شيء يكافأ عليه بالثواب ، بل أصبح مدينا لأصحاب المظلمات ، ومن ثم لا يكون سدادها إلا من أخذ خطايا المظلومين الباقية ، وإضافتها إلى ذنوبه ؛ حتى يتم سداد ما عليه من ديون .

ومن هنا يستحق المفلس أن يطرح في النار ؛ ليعذب جزاء ما يحمل من ذنوب نفسه، وذنوب من ظلمهم ، دون أن تشفع له صلاته وزكاته وصيامه وغيرها من أعماله الصالحة ؛ لأن الحفاظ على حقوق العباد ، وهو مشمول بقانون العدل ، يماثل الحفاظ على أداء العبادات .

وعلى هذا النحو يظل الإنسان يوم القيامة موثقا بمظلماته التي ظلمها الناس ، حتى يتحلل منها عن طريق الأخذ من حسناته أو بحمل سيئاتهم عليه ، وهذا فيه من الحسرة ما فيه ، إذ بعد أن يجمع الإنسان حسناته في الدنيا من أعماله الصالحة ، تذهب يوم القيامة إلى خصومه الذين ظلمهم في الدنيا ، وليس هذا فحسب، بل تضاف إليه سيئاتهم التي اقترفوها ، فيصبح مُدانا مذنبا ، ولم يعد أمامه سوى النهاية المحتومة ، وهي العذاب في جهنم العذاب المهين.

ويوضح عبد القاهر الجرجاني تعريف الرسول ﷺ لمفلس الآخرة ومفارقته لمفهوم مفلس الدنيا بقوله :" ذاك أنه ﷺ بيَّن الحكم في الآخرة، فلما كان الإنسان إنما يعد غنيًّا في الدنيا بماله ؛ لأنه يجتلب به المسرة ، ويدفع المضرة ، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح ، ثبت لا محالة أن يكون الخالي – نعوذ بالله من ذلك – هو المفلس إذ قد عري مما لأجله يسمى الخالي من المال في الدنيا مفلسًا ، وهو عدم ما يوصله إلى الخير والنعيم ، ويقيه الشر والعذاب"[١٠].

واستخدم الحديث المضارع " وَيَأْتِي " ليستحضر صورة المفلس وقد جاء كاسيًا عاريًا ؛ أي: صار مدينًا ، فحمل بدينه أوزار الناس ، ثم قيد الفعل " يَأْتِي " بقوله : " يَوْمَ الْقِيَامَةِ " لتهويل الموقف ، ثم يتبع ذلك بقوله : " وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا..." ليصور حالة الخزي والحسرة التي يأتي عليها المفلس بسبب مظالم الناس ، وهنا يتجلى التناقض المؤلم بين الإتيان الأول " وَيَأْتِي... بصلاة وصيام وزكاة" والإتيان الثاني :" وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا..." .

وجاء استخدام اسم الإشارة "هذا" الدال على القريب في قوله : " وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، ... " لتمييز المعتدى عليهم ، واستحضار صورتهم ماثلة أمام العين يوم القيامة ، وهم محيطون بالمفلس من كل ناحية ، لمطالبته بحقوقهم ؛ مما يوقع في نفسه أشد الحسرة والألم على ما فعل بهم ، أما تكراره ، فيدل على تعدد أنواع المشار إليهم الذين أصابهم الظلم والأذى من المفلس ، كما أن لفظ "هذا" كناية عن موصوف هو الشخص الذي شُتم أو قُذف أو ضُرب إلخ ، وهو يدل على الإيجاز ، كذلك أسهم تكرار اسم الإشارة شكليًّا ودلاليًّا في التماسك النصي ، والربط على مستوى الجملة الواحدة ، وعلى مستوى المتواليات من الجمل بعضها ببعض .

ومن فنون البيان قوله ﷺ :" أَكَلَ مَالَ هَذَا " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه الأخذ بالأكل ، وتدل على أن المفلس الذي اعتدى على مال غيره، ليس لديه نية إرجاعه ورده إلى صاحبه، ولذلك استخدم الفعل " أَكَلَ " وهو أبلغ من أخذ ؛ لأنه أخذ بدون إرجاع ، كما أن كلمة "مال" جاءت نكرة للدلالة على التنويع ، أي أن أكل المفلس المال يأتي على صور متعددة من رشوة ، أو سرقة ، أو ربا ، أو غير ذلك من الصور والأشكال .

أما الرابط النصي "الفاء" في الفعل " فَيُعْطَى " فيدل على الترتيب والتعقيب السريع لتطبيق العقاب المعنوي على المفلس ، وهو الأخذ من حسناته ؛ لتسديد ما

عليه من مظلمات ، وهذا الرابط له دوره البنائي والدلالي في تماسك عناصر النص ، وكان إيثار استخدام الفعل " يُعْطَى " دون " يؤتى " لدلالته على الخير خاصة بالنسبة للمظلومين ، لأن " يؤتى " يكون في الخير والشر (١١) ، كما جاء الفعل " يُعطى " مبنيًّا للمجهول للعلم بالفاعل ، ولإفادة الإيجاز ، وكان اختيار الحرف " من " في قوله: " من حسناته " ليفيد التبعيض ، حيث توزع حسناته على من أصابهم بظلمه ، وهو متناسب مع السياق .

أما جملة " فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ ... أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ " فقد استخدم " إن " التي هي وسيلة للربط النصي بين الشرط والجزاء ؛ لإفادة التماسك بينهما ، كما أنها تدل على التقليل أو الشك ، وفي هذا إشارة إلى أنه يقل في المسلمين من تفنى حسناته قبل أن يسدد ما عليه من مظلمات لأصحاب الحقوق ؛ مما يدل على رحمة الله الواسعة التي يضاعف فيها ثواب الحسنات ، كما أن " من " في " من خطاياهم " تفيد التبعيض ؛ أي يؤخذ بعض خطايا المظلومين ، وليس كلها ، و " خطايا " جمع يدل على الكثرة ، أي لهم خطايا كثيرة ، كما أن جملة " فنيت حسناته " بها استعارة تصور مشهد القصاص تصويرًا معبرًا عن سوء العاقبة ، وهو تصوير مادي للخسارة مما يردع المسلم عن اقتراف المعاصي والذنوب .

كما يدل اختيار " أَنْ يَقْضِيَ " على استحضار صورة الظالم والمظلومين ماثلة أمام الأعين ، وجاءت " ما " لتفيد العموم والشمول للديون المعنوية : كالشتم والقذف ، والحسية : كأكل المال ، وسفك الدماء والضرب ، وعبر الحرف (على) في "عليه " على مدى ثقل هذه الديون التي أنهكت قوى المفلس وآلمته .

وفي جملة " أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ " تصوير مادي للخطايا ، وهي استعارة تصريحية تبعية ، حيث شبه الخطايا بشيء ثقيل كالحمل الذي تحمله

الدابة بجامع التعب والمشقة ، ثم استعير لفظ (الطرح) للحمل الثقيل ، واشتق منه " طَرَحَ " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، فكأن الذنوب تطرح عن ظهر المظلوم إلى ظهر الظالم ، فتزداد أثقاله ، ثم يطرح في النار ، وجاءت كلمة " طُرِحت " لتحمل معنى الإلقاء بشدة وقوة على كاهل المفلس إيذاء له ، واستهانة به.

كما جاء الفعل " طُرح " في جملة " ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " ليدل على شدة الإلقاء والعذاب الحسي في النار ، كما يدل على عمق قاع جهنم وهوته السحيقة حين إلقاء المفلس فيها ، كذلك جاء الرابط التركيبي "ثم" ؛ ليعمق التماسك النصي في الحديث شكليًّا ودلاليًّا، وهو يفيد الترتيب والتراخي في وقوع الحدث ، وتنفيذ العقاب على المفلس وانتقاله من العذاب النفسي المتمثل في أخذ الحسنات ، وطرح الخطايا عليه ، إلى العذاب الحسي الأقسى والأشد بالإلقاء في النار ، وفي هذا التراخي الزمني الذي عبرت عنه " ثم " تجسيد لمدى شدة المعاناة والتعذيب النفسي الذي يمر به " المفلس " انتظارًا للحظة الفاصلة التي يتم فيها إلقاؤه في نار جهنم ، وفي هذا بيان لسوء العاقبة التي يساق إليها المفلس ، كما فيه إظهار للمذلة والهوان والاحتقار لموقفه ؛ مما ينفر المسلم من الإتيان بمثل هذه الأفعال .

ذلك هو المفلس الذي شوقهم ﷺ إلى معرفته ، ولفت انتباههم إلى صفته الحقيقة ، وأنه المفلس يوم الدين ، وهو يقصد ﷺ إلى تحذيرهم من الظلم والعدوان ، وحثهم على أن يتحلل كل منهم من مظلماته التي ظلمها بعض الأفراد في الدنيا ، قبل أن يصير حاله في الآخرة مصير المفلس من العذاب والهلاك ؛ ومن أجل ذلك يجعل النفوس التي اشتاقت إلى معرفة حقيقة المفلس ، تنزجر عن صفاته ، وتقلع عن خصاله التي كانت معهودة لديها ؛ ولا سيما أنها أصبحت مهيأة للتلقي والاستجابة .

وبذلك تبرز ملامح الحوار النبوي وبلاغته ، في حديث " المفلس " وتتجلى فيه كيفية وصول الرسول ﷺ إلى نفوس الصحابة والدخول إلى أعماقهم ، كما تتعدد فيه الوظائف اللغوية والدلالية التي تتجلى أيضا في الوضوح والدقة ، والترتيب والشمول مع الإيجاز والتركيز وغيرها من ملامح البيان النبوي وسماته .

وتتعدد طرائق الحوار المتبادل بين الرسول ﷺ والصحابة ، وتتنوع أساليبه في معالجته القضايا وحله المشكلات ، وقدرته على إعادة الأمور إلى صوابها ونصابها ، وتوثيق العلاقة بين طرفي الحوار (الرسول ﷺ والصحابة) ؛ لتحقيق مقاصد معينة منها : دفعهم إلى التساؤل ، أو ترغيبهم في الجواب ، أو الاستماع إلى أجوبتهم ، ثم مناقشتهم ، وبيان وجه الصواب فيها ، وغيرها من أهداف مقصودة في الحوار النبوي .

ومن طرائق الحوار أن يطرح الصحابة السؤال على الرسول ﷺ ، ثم يستمعون إلى إجابته ، لفهم بعض الأمور التي تشتبه عليهم أو لا يعرفون الموقف منها ، وهناك أمثلة كثيرة على هذه الطريقة ، منها : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ:" **إِيمَانٌ بِالله عَزَّ وَجَلَّ** " ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : " **ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله** " ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : " **الْحَجُّ الْمَبْرُورُ** " رواه مسلم .

وقد جاء الحوار قصيراً ومركزاً ، وجاءت الإجابات مباشرة ودقيقة ، ومحققة الهدف من الحوار .

ومثله عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ :" **تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**" رواه النسائي .

ومن طرائق الحوار المشهورة ما رواه عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة، في حديث جبريل في تعليم أركان الإيمان، فقد عرض أهم أركان الإيمان على الصحابة في شكل حوار بين الرسول ﷺ وبين جبريل عليه السلام؛ ليعلمهم معالم دينهم، يقول:

" بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ". قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: " **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** ". قَالَ: صَدَقْتَ. فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: " **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** ". قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: "**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** ". قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: " **أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ** ". قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: " **يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟** " قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** " رواه البخاري ومسلم.

ومن هذه الطرائق الحوار القصصي الموحي والمعبر عن طبيعة الأحداث والشخصيات، وهو وسيلة من وسائل الدعوة والتوجيه والإرشاد، ويقصد إلى العبرة والعظة، مما يكون له أطيب الأثر، وأفضل التوجيه في نفوس المتلقين،

ويحظى منهم بنشاط كبير ، وانتباه عميق ، ومن أمثلة ذلك حديث " الغار " فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال :

"إِنَّ ثَلاثَةَ نَفَرٍ كَانُوا فِي كَهْفٍ ، فَوَقَعَ الْجَبَلُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ فَأَوْصَدَهُ عَلَيْهِمْ .

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : تَذَكَّرُوا أَيُّكُمْ عَمِلَ حَسَنَةً لَعَلَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِرَحْمَتِهِ يَرْحَمُنَا .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: قَدْ عَمِلْتُ حَسَنَةً مَرَّةً ، كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكَانَتْ لِي غَنَمٌ ، فَكُنْتُ أُطْعِمُ أَبَوَيَّ وَأَسْقِيهِمَا وَأُشْبِعُهُمَا ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى غَنَمِي ، فَأَصَابَنِي يَوْمًا غَيْثٌ فَحَبَسَنِي ، فَلَمْ أَرْجِعْ حَتَّى أَمْسَيْتُ ، فَأَتَيْتُ أَهْلِي فَأَخَذْتُ مِحْلَبِي فَحَلَبْتُ وَغَنَمِي قَائِمَةٌ ، فَمَضَيْتُ إِلَى أَبَوَيَّ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَ غَنَمِي ، فَمَا بَرِحْتُ جَالِسًا وَمِحْلَبِي عَلَى يَدَيَّ حَتَّى أَيْقَظَهُمَا الصُّبْحُ فَسَقَيْتُهُمَا ، اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا، فَانْصَدَعَ الْجَبَلُ حَتَّى رَأَوُا الضَّوْءَ وَأَبْصَرُوا .

وَقَالَ الْآخَرُ : قَدْ عَمِلْتُ حَسَنَةً مَرَّةً ، كَانَ لِي فَضْلٌ فَأَصَابَ النَّاسَ شِدَّةٌ ، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ تَطْلُبُ مِنِّي مَعْرُوفًا ، فَقُلْتُ : وَاللهِ مَا هُوَ مِنِّي دُونَ نَفْسِكِ ، فَأَبَتْ عَلَيَّ ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ فَذَكَّرَتْنِي بِاللهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا ، وَقُلْتُ لَهَا : لا وَاللهِ ، مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ ، فَأَبَتْ عَلَيَّ فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ وَذَكَرَتْ لِزَوْجِهَا ، فَقَالَ لَهَا : أَعْطِيهِ نَفْسَكِ وَأَغْنِي عِيَالَكِ ، فَرَجَعَتْ إِلَيَّ فَنَاشَدَتْنِي بِاللهِ فَأَبَيْتُ عَلَيْهَا ، وَقُلْتُ : وَاللهِ مَا هُوَ دُونَ نَفْسِكِ ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَسْلَمَتْ إِلَيَّ نَفْسَهَا ، فَلَمَّا كَشَفْتُهَا أُرْعِدَتْ مِنْ تَحْتِي ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا شَأْنُكِ ؟ فَقَالَتْ : أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، فَقُلْتُ لَهَا : خِفْتِيهِ فِي الشِّدَّةِ وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ ، فَتَرَكْتُهَا وَأَعْطَيْتُهَا بِالْحَقِّ عَلَى مَا كَشَفْتُهَا ، اللهمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا ، قَالَ : فَانْصَدَعَ الْجَبَلُ حَتَّى عَرَفُوا وَتَبَيَّنَ لَهُمْ .

وَقَالَ الثالث : قَدْ عَمِلْتُ حَسَنَةً مَرَّةً ، كَانَ لِي أُجَرَاءُ يَعْمَلُونَ عَمَلًا لِي ، فَاسْتَأْجَرْتُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِأَجْرٍ مَعْلُومٍ ، فَجَاءَنِي رَجُلٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَسْطَ النَّهَارِ ، وَاسْتَأْجَرْتُهُ بِشَرْطِ أَصْحَابِهِ ، فَعَمِلَ فِي بَقِيَّةِ نَهَارِهِ كَمَا عَمِلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فِي نَهَارِهِ كُلِّهِ ، فَرَأَيْتُ فِي الزِّمَامِ أَنْ لَا أَنْقُصَهُ كَمَا اسْتَأْجَرْتُ بِهِ أَصْحَابَهُ لِمَا جَهِدَ فِي عَمَلِهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : أَعْطَيْتَ هَذَا مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَنِي وَلَمْ يَعْمَلْ إِلَّا نِصْفَ النَّهَارِ ، قُلْتُ : يَا عَبْدَ الله ، لَمْ أَبْخَسْكَ شَيْئًا مِنْ شَرْطِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَالِي أَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شِئْتُ ، فَغَضِبَ وَذَهَبَ وَتَرَكَ أَجْرَهُ ، فَوَضَعْتُ حَقَّهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ مَرَّتْ بِي بَعْدَ ذَلِكَ بَقَرٌ فَاشْتَرَيْتُ بِهِ فَصِيلَةً مِنَ الْبَقَرِ ، فَبَلَغَتْ مَا شَاءَ الله ، فَمَرَّ بِي بَعْدَ حِينٍ شَيْخٌ ضَعِيفٌ لَا أَعْرِفُهُ ، فَقَالَ : إِنَّ لِي عِنْدَكَ حَقًّا ، فَذَكَرَهُ حَتَّى عَرَفْتُهُ ، فَقُلْتُ : إِيَّاكَ أَبْغِي ، هَذَا حَقُّكَ ، فَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ جَمِيعًا ، فَقَالَ : يَا عَبْدَ الله ، لَا تَسْخَرْ بِي ، إِنْ لَمْ تَصَدَّقْ عَلَيَّ فَأَعْطِنِي حَقِّي ، قُلْتُ : وَالله لَا أَسْخَرُ مِنْكَ ، إِنَّمَا حَقُّكَ ، مَا لِي فِيهَا شَيْءٌ ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ جَمِيعًا ، اللهمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِوَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا" . قَالَ النُّعْمَانُ : لَكَأَنِّي أَسْمَعُ هَذِهِ مِنْ رَسُولِ الله – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " قَالَ الْجَبَلُ : طَاقْ ، فَفَرَّجَ الله – عَزَّ وَجَلَّ – عَنْهُمْ فَخَرَجُوا " . رواه البخاري، ومسلم .

يتناول الحديث محنة انطباق الصخرة ، وهي قصة النفر الثلاثة الذين خرجوا إلى العمل وتحصيل الرزق ، فدفعتهم الظروف والملابسات من تغييم السماء وإنذارها بالمطر إلى اللجوء إلى الغار الذي انحدرت عليهم فيه صخرة من الجبل ، فسدت عليهم بسرعة هائلة باب الغار ، وعجزوا عن زحزحتها ؛ فهرعوا إلى طلب المخرج متآزرين متعاونين ، يفهم ذلك من قوله " فقالوا " بصيغة الجمع التي تدل على تلاقي القلوب والعقول والألسن ، ومن ثم الجوارح ، فوجدوا أنه لا ينجيهم إلا البحث عن أصدق الأعمال وأخلصها لله ؛ ليتوسلوا إليه بها ، فتوسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بصالح عمله ، وقلبه عامر بالإيمان ، واليقين

فيه ، وذلك هو الحل الوحيد إذ جاء الانحباس مفاجئًا غير ممهد لـه ، فعـانوا مـن الاختناق النفسي ، والاختناق الجسدي ، وانحصار المكان .

إذن فرت منهم الحياة ، وأتاهم الموت المحقق ، هـذا عمـود القـصة ، وقمـة الأزمة ، وهو ما يطلق عليه النقاد " العقدة " التي تحتاج إلى حـل ، وقـد دل قولـه عليه السلام " ممن كانوا قبلكم " على أمرين : الأول أن القـصة حقيقيـة ، والثـاني أنه لا يتعلق بذكر اسمهم درس ، ولا طائل من ورائه .

أما أبطال القصة ، فـالأول مـنهم ضرب مـثلاً عظـيماً في الـبر بوالديـه ، وبـر الوالدين هو أعظم ما يكون من صلة الرحم ، والثاني مـنهم ضرب مـثلاً بالغـا في العفة الكاملة ، وأنه ممن يظلهم الله في ظله يـوم لا ظـل إلا ظلـه ، والثالـث مـنهم ضرب مثلاً رائعاً في الأمانة والنصح ، وإعطـاء الأجـير حقـه ، وهـو مـن أعظـم الأعمال الصالحة .

والحديث يبدأ بالعقدة ، حيث تجتمع خيوطها ثـم تنفـرج ، ويكـون الفاصـل بين الماضي والحاضر هو تلك الصخرة المطبقة على الغار ، فنرى بر الرجل بوالديـه ، وتبدأ العقدة بنومهما ، وانتظاره لهما حتى الفجر ، حيث طول الليل وتضوّع عيالـه ، ويأتي الحل باستيقاظهما وشربهما اللبن ، أما العقدة في حـب الرجـل لابنـة عمـه ، فتبدأ بطلبها المال لحاجتها إليه على أن تخلي بينه وبين نفسها ، حتى إذا قدر عليهـا ، جاءته قوة مضادة تردعه ، ثم يأتي الحل في سراحها مع منحها المال ، على حين تبدأ العقدة في المشهد الثالث في الجمع الوفير للمال لدى غياب الأجير ، ويكون الحل في إعطاء الحق لصاحبه .

وبذلك تكون الحلـول الثلاثـة التـي تتمثـل في : الـبر والعفـة والعـدل ، مـع الإخلاص في كلٍّ ، أسبابا مباشرة للحل الأخير ، وهو زحزحة الصخرة عن بـاب

الغار ، ونجاتهم بقدرة الله تعالى ، وبذلك يعطينا الحديث منهجًا لخروج الأمة من أزمتها ، وقيمة العمل الصالح في تفريج الكروب .

وقد أدى الحوار في الحديث الشريف دورًا مهمًّا في الكشف عن طبيعة كل شخصية من الشخصيات الثلاث التي عرفت الله في حال الرخاء واليسر ، فعرفهم الله في حال الشدة والضيق والكرب ؛ فلطف بهم ، وأعانهم ، ويسر لهم أمورهم ، لأن هؤلاء الثلاثة يمثلون البعد عن الكبائر : العقوق ، والزنا ، والظلم ، وفضائلهم هي التي أنجتهم بقدرة الله تعالى ، فانفرجت الصخرة .

ولذلك يؤكد الحديث الشريف أن العمل هو المعيار ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، كما يدل على مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة ، وأن ذلك التوسل يعد من أسباب تفريج الكروب ، وفي هذا موعظة من أنباء السابقين ، علينا أن نقتدي بها.

وتميز الحوار بين تلك الشخصيات بالتركيز والعمق ، ودل على غنى وحيوية كل شخصية ، وكشف عن مشاعرها وأحاسيسها المختلفة ، وجاء مندمجًا في صلب القصة ؛ فكان بمنزلة الروح التي تسري في كيانها ، وهو يُوجز في مكان، ويطول في مكان آخر ، بما يناسب الموقف والفكرة والفاعلية الفنية .

وهكذا حفلت الأحاديث الشريفة بألوان الحوار المتبادل بين الرسول ﷺ والصحابة ، وفيه تجلت أبعاد رؤية الرسول ﷺ التربوية ومنهجيته ، وغرضه لإبلاغ الرسالة ، وتعليم العقيدة والشريعة ، وطريقة معالجته المشكلات والقضايا ، إلى جانب رغبته ﷺ في إثارة المجال الفكري والذهني للصحابة وإقناعهم ، وتنمية قدراتهم العقلية المتنوعة ، فالحوار وسيلة ناجحة للدعوة ، وتقريب وجهات النظر مع المخالفين ، وسبيل للقضاء على كثير من الخلافات بين الأفراد ، وله أثره البالغ في حياة الفرد والأمة والمجتمع .

القصة :

القصة خصيصة من خصائص البيان النبوي ، ووسيلة من وسائل التعبير والإبداع الكثيرة التي سلكها النبي ﷺ ؛ لتحقيق هدفه الأساس وهو الدعوة الدينية ، والإصلاح والتوجيه ؛ لأجل الوصول إلى عقول المتلقين وشعورهم ، وتحقيق حاجاتهم إلى الإقناع والإمتاع ؛ مما يسهم في تقبلهم الخطاب النبوي ؛ ولذلك جاءت القصة تمثل جزءًا من نسيج الأدب النبوي ، وتؤدي الغرض الديني المراد منها ، وهو الهدف الأساس الذي بعث من أجله ﷺ شأنها في ذلك شأن القصة في القرآن الكريم .

ولذلك كان هناك تشابه إلى حد كبير بين القصة النبوية ، والقصة القرآنية في الأهداف والغايات فيما يتصل بالعقيدة والتشريع أو غيرها من الغايات التي تهدي إلى سبيل الحق والرشاد ، وبأسلوب يتميز بخصائص بيانية رفيعة ، مع وجود فوارق بينهما من حيث الحجم ، فالطول في القرآنية ، والإيجاز في النبوية مع تعدد صيغ رواياتها ، لتعدد الرواة ، إلى غير ذلك من فروق بين النوعين تتعلق بتدخل الراوي ، والقصص المتتالية ، والفجوات القصصية ، وتحول الراوي إلى المتلقي ، وصيغ الماضي والمضارع ، وغيرها من فروق نجح في رصدها الدكتور إبراهيم عوض(١٢) .

ويتميز القصص النبوي بأنه قصير هادف ، ينبع من التصور الإسلامي ، والواقع التاريخي ، وتنبع فكرته من أجناس النفوس الكائنة الحية ، متسلسل الأحداث ، ويكفي كل الكفاية في تقرير الغرض ، ولا يخلو من التصوير ، ولكن بعيدًا عن جنوح الخيال الشارد الجموح ، ولا يعمد إلى التعمق المفلسف الغامض ، ولا إلى السطحية الجوفاء ، وإنما هو بسيط هادف(١٣)، يسمو بالنفس إلى عالم الخير والجمال مع إقناع العقل ، وإمتاع الوجدان .

كما أنه يقوم على الصراع بين قوى الخير والشر في النفوس ، مع أسلوبه الموجز المحبوك ، وقد يأتي فيه الإطناب بتكرار بعض العبارات ، ناهيك عن أنه جيد الفصل والوصل ، متماسك النظم ، دقيق الإشارة في الدلالة على المقصود بلا رمز ولا التواء .

وتشبه القصة النبوية القصة القصيرة من ناحية الحجم لا من ناحية المضمون ، فهي ذات زمن طويل ، وتعالج مواقف متعددة ، وتحدد مصائر مختلفة ، ولكنها تقتصر على الحدث المهم من حياة الأبطال ، كما أنه يغلب عليها التسلسل الزماني والمكاني ، ففيها البداية والعقدة والحل ، وتتخللها مشاهد توازي فن الرسم ، وتتجاوز الوصف إلى رصد الحركة الزمانية والمكانية ، وتجعل الشخصيات تقوم بذاتها بإبراز الأفكار ، وهي لوحة لأنها أقوى ما تكون من التماسك ، فلا يستغنى عن عنصر فيها ، بل الانتباه مستقرٌّ مُثار من أولها إلى آخرها .(١٤)

وتتنوع ألوان ذلك النوع الأدبي من حيث الزمن ، ومن حيث الرؤية ، وبين التمثيل والتاريخ إلى غير ذلك من أشكال .

ولا يتخذ القصص في البيان النبوي نمطًا من الأداء ملتزمًا ، وإنما يتلون تلونًا ملحوظًا ، بحيث يختار العنصر أو العناصر التي تلائم طبيعة كل قصة ، وبقدر ما تتطلبه حاجة البيان ، ويمليه مقام الفكرة ، فهناك أنواع من القصص تركز حول الأحداث أو تبرز الشخصيات وتدور حولها ، أو تعتمد على الحوار أو التمثيل ، أو غير ذلك حسب الغرض المستهدف في كل قصة .

وهي في كل ذلك جاءت وفق المنظور الفني لخصوصية القصة وتغذيتها من حيث الفكرة والأسلوب ، أو المضمون والحدث المتتابع المتماسك ، إذ تترفع عن مجرد الإخبار ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها أحاديث : الغار ، الراهب والعالم

والقاتل، والملك والساحر والغلام، والأعمى والأقرع والأبرص، وغيرها من أحاديث شريفة تدور في إطار القصة النبوية بشكلها الفني الرائع، والأهداف التي ترغب في تحقيقها .

ونتناول حديثًا من الأحاديث التي تمثل هذا النوع من البلاغة النبوية، وهو يعرض لقصة الأعمى والأقرع والأبرص التي تمثل وسيلة من وسائل الدعوة التي اعتمد فيها الرسول ﷺ على التعليم والتوجيه والإرشاد، وجاءت حافلة بالأحداث والحوار، وفي روعة الأسلوب، ودقة الأداء وحسن العرض، وفي إطار من التشويق والإثارة، بحيث يجد القارئ فيها أنه أمام مشهد يعبر عن الجانب الفكري لكل شخصية، وواقعها وتطلعها إلى المستقبل، وما تأمل في تحقيقه من أمنيات ومطالب .

حدث أبو هريرة أنه سمع الرسول ﷺ يقول :" إِنَّ ثَلَاثَةً من بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا.

فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويُذْهب عني الذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قذره، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ : أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبِلُ، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ فَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا .

ثم أَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الذي قد قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عنه، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا وَقَالَ يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا .

ثم أَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : يَرُدُّ الله إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ :

الْغَنَمُ ،فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا . فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا . فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ . فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي . فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ . أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ - بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ . أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ؟ فَقَالَ : لَقَدْ وَرِثْتُ هذا المال كابرًا عَنْ كَابِرٍ . فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ فيه .

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا . فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ فيه .. ثم أَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ له : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ - شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي ؟ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي ، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله ، فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ " متفق عليه .

["الناقة العُشَرَاء" بضم العين وبالمد : هي الحامل لعشرة أشهر ، وهي من أنفس الأموال عند العرب . "أنتج " من النتاج وهو ما تضعه البهائم ، "ولَّد هذا" هو بتشديد اللام ، أي : تولى ولادتها وهو بمعنى أنتج في الناقة ". "انقطعت بي الحبال " أي أسباب الرزق . " لا أجهدك " معناه لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالي] .

ويسرد الرسول ﷺ هذه القصة عن الأمم السابقة من تاريخ بني إسرائيل ؛

ليستخدمها وسيلة لتحقيق الغرض الديني الذي بعث من أجله عليه السلام ، ولم يعتمد في عرضه القصصي على مجرد الإخبار بما وقع ، بل تجاوز به حدود التأريخ إلى العرض القائم على التأثير والإيحاء الذي يحمل بين جوانبه عنصر التشويق ؛ لتهيئة الذهن ، واستثارة العقل ، فالنفس البشرية تتفاعل مع القصة دون التفاعل مع الفكرة المجردة .

فالقصة وصف نفسي وجسدي لشخصيات ترسخ المبادئ الدينية من خلال الحوار والسرد بدلًا من النزعة الخطابية، حيث قال ﷺ :" **إِنَّ ثَلَاثَةً مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا** " وهنا يتطلع المتلقي في شوق إلى ما سيلقى إليه من شأن هؤلاء الثلاثة وأمرهم، وبذلك بدأت القصة بتكثيف مشوق ، جاءت بعده تفصيلات وحركات ناشطة ؛ ومن ثم آثر البيان النبوي العرض الأدبي المؤثر في النفوس والعواطف ، المصور للحدث على العرض التاريخي .

وتتوالى أحداث القصة ؛ وتنتقل الشخصيات الثلاث : الأبرص ، والأقرع ، والأعمى ، من حال العاهة إلى السلامة ، ومن الفقر إلى الغنى ، وينعكس ذلك على سلوكها وتصرفاتها المختلفة من الاعتراف بفضل الله ونعمه أو التمرد عليه ، ثم يأتي رضا الله عمن يعترفون بفضله ونعمته عليهم ، وغضبه على من يجحدون ذلك ، ويتمردون عليه ، وفي هذا دليل على أن شكر نعمة الله على العبد من أسباب بقاء النعم وزيادتها ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم :٧) .

وقد ظهرت شخصيات القصة في مظهرين ، الأول ، وفيه تماثلت الشخصيات الثلاث في إحساس كل شخص بفقره ونقصه البشري الظاهر ، وألمه الوجداني الشديد لهذه النازلة ، وتلهفه القوي إلى النجاة منها .

أما الثاني ، فيصور التحول الخارق الذي انقلب بـه كـل واحـد مـنهم معـافى سعيدًا بكماله الجسمي ، وبغناه العريض الممتد ، حيث الوديان الثلاثة تمتلئ بالخير والنعم ؛ ليعرف كل واحد منهم فضل الله ، فيشكر نعمته ، ومن ثـم يرثـي لخلقـه وأحوالهم .

بيد أن الفطر تتغاير بين الثلاثة ، ولا تتماثل بينهم النتائج ؛ لاختلاف النفوس في استعدادها لمعنى الخير والشكر والوفـاء ، فـالأبرص والأقـرع يمـثلان شـعور الجحود والنكران والغرور والتنكر للماضي المؤلم الـذي أحـاط بهـما ، عـلى الـرغم من أنهما أولى بالشكر والعرفان لخطورة مرض كل واحد مـنهما ، إلى جانـب نفـور الناس منهما نتيجة القبح الشكلي ؛ ومن ثم كـان جحودهمـا أخطـر أثـرًا ، وكـان هذان الجاحدان من المبغوضين إلى الله كما في قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ (يونس: ١٢) .

أما الأعمى فيمثل شعور الصدق والشكر والعرفان ؛ فكانت شدة إحـساسه بالنعمة مضاعفة لاستحقاقه بدوامها وزيادتها ؛ ولذلك كان الأعمى خير الثلاثة ؛ لأنه نجح في الابتلاء ، فتصدق بالمال وشكر النعمـة ، وخـسر الآخـران : الأقـرع والأبرص ؛ لشُحِّهما وإنكار النعمة ، وكان الابتلاء عامًّا في نعمة الجـسد والعافيـة والمال .

وقد يرجع اختلاف موقف الأعمى عن صـاحبيه إلى فداحـة مأسـاته ، بـسبب العمى ؛ فالبصر يمثل حاجة رئيسة لا غنـى عنهـا بالنـسبة للإنـسان ، أمـا اللـون والشعر فليس لهما تلك الأهمية التي تستحقها نعمة البصر ؛ ولذلك كـان الأعمـى شديد الشعور بفضل الله عليه ، وهـذا هـو الجانـب الجديـد الـذي كـشفت عنـه شخصية الأعمى ، واختلف فيه عن صاحبيه الجاحدين .

كذلك ظهر الملك في مظهرين ، الأول: يتمثل في حال سؤاله للثلاثة والعرض عليهم ، والثاني: يتمثل في حال ظهوره أمام كل واحد منهم بصورة ما كان عليه من حاجة وفقر ، ومحاورته لكل منهم ؛ مما كان له أكبر الأثر في تلهف المتلقي إلى النتيجة التي تنتظر كل شخص منهم من حيث : الإخفاق أو النجاة والفوز .

واعتمد الحوار على السؤال والجواب زيادة في التشويق ، وقد يطول في مكان ، ويوجز في آخر حسب السياق والموقف ، ويعاد الحوار بين الملك والأعمى في نص الحوار بينه وبين الأبرص ، في حين لا يعاد ذكر الحوار بين الملك والأقرع ؛ لأنه مثل الأبرص في موقفه .

وجاء المشهد الدرامي الذي يتضمن البداية وهو تقزز الناس من قبح هؤلاء الثلاثة ، ثم نسج خطوط العقدة في مجيء الملك ، وتخليهم بقدرة الله من أمراضهم ، وتحويلهم من قبح الشكل إلى جماله ، ثم مجيء الملك مرة أخرى في هيئة رجل مسكين يطلب الإحسان والصدقة ، ويتنكر الأقرع والأبرص للنعمة ، في حين يُقرُّ بها الأعمى ، وأخيرًا يأتي الحل في إخفاق الأول والثاني ونجاح الثالث .

وجاءت القصة حافلة بالحوار القصير المركز ، وتتابع الأحداث وتشابكها ، بحيث تكاد كل فكرة تحمل من عناصر القصة خبرًا ووقفة تربوية ، الهدف منها أخذ العبرة والعظة ، والتعليم والتوجيه والإرشاد ، وجاءت في مواضعها المناسبة من الأحداث المتوالية مع حسن العرض ، ودقة الأداء ، وروعة الأسلوب ، والإيجاز والوضوح ، شأنها في ذلك شأن الأسلوب القصصي في البيان النبوي ، الذي يصور النماذج البشرية وما فيها من صراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والاستقامة والانحراف .

فالقصص النبوي منطلقه وأساسه الصدق والواقعية اللذان يستمدان قيمها

من تلك القوة التي تتضمنها مجموعة الصفات الخلقية والدينية المجتمعة في شخصية الرسول ﷺ(١٥)، حيث يسرد الرسول ﷺ القصص سواء ما تلقى مادته من الوحي في قصص الماضي والمستقبل، أو ما أنشأه من عنده من القصص التمثيلية، مستهدفا تحقيق الغرض الديني.

ومن الأحاديث التي انبنت على السرد القصصي، وتوافرت فيها العناصر الرئيسة للقصة من الشخصيات، والحدث، والحوار، والزمان، والمكان، الحديث الذي يتناول مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، وفيه يقول الرسول ﷺ: **"يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا آدَمُ يَقُولُ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوْتٍ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ قَالَ يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ -أُرَاهُ قَالَ- تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ. فَشَقَّ ذَلِكَ** عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ. ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا"** رواه البخاري. [البعث: بمعنى المبعوث الموجه إليها، ومعناه ميز أهل النار من غيرهم].

وهناك قصص أخرى كثيرة خالدة ومؤثرة في النفوس، حفل بها البيان النبوي، يمكن الرجوع إليها، والإفادة منها على نحو أفضل في كتاب القصص في الحديث النبوي.

ومن خلال ما سبق يتضح أن القصص النبوي جاء قصيرًا هادفًا، يمثل الصراع بين الخير والشر في النفوس، يزكي فيه جانب الخير، ويحث عليه،

معتمدًا على تقويم القيم السلوكية للأفراد والجماعات ، وفيه يشترك الحوار والحكاية في تكوين مشاهده الرائعة ، وهو في ذلك يعد امتدادًا لقصص القرآن الكريم ، وإلهامًا من الله ﷻ بما يقرر به العقيدة ، ويقوم به السلوك[١٦].

الخطابة :

الخطابة فن من فنون الكلام يقصد به الإقناع والتأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معًا ، ويحتاج إلى نصاعة البيان ، وطلاقة اللسان ، واستخدام البراهين العقلية ، والانفعالات الوجدانية ، وسرعة البديهة ، والمهارة في الإقناع ، وإثارة العواطف ، وتحريك أهواء النفوس ، وما يصاحب ذلك من حركات وإشارات ونبرات وتلوين الصوت بما يعطي الخطبة الصورة الواضحة مبنى ومعنى .

وكانت الخطابة من أبرز فنون النثر الأدبي الذي عرفه العرب منذ الجاهلية ، حيث كانوا يحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشدُّ أزرها . فقد استخدموها في مناظراتهم ومفاخرهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، وكذلك في الحض على القتال في الحروب .

ومع ظهور الإسلام تطورت الخطابة وازدهرت ، وغدت أوفر فنون النثر حظًّا بالنسبة للمسلمين ، والدعوة الإسلامية ، حيث فتق الرسول ﷺ معانيها ، وفجر ينابيعها ، واتخذها دعامة من دعائم دعوته ، ووسيلة من وسائل عرضها على القبائل العربية والوفود ، بل صارت ركنًا أساسًا من أركان العبادات في صلاة الجمعة والعيدين ، وموسم الحج ، وكثرت الحاجة إليها في المناسبات والمواقف المختلفة سواء في ميدان الحرب أو السلام .

وكان الرسول ﷺ إمام الخطباء العرب ، وأفصحهم بيانًا ، ولا غرو في ذلك ، فهو إمام البلاغة والبلغاء ، والفصاحة والفصحاء ، وجاءت خطبه في الناس تدعوهم إلى الوحدانية وإلى دين الله الحق ، فاستوعبت جميع الأغراض والمقاصد التي جاء بها الهدي النبوي فيما يشغل الناس من أمور الدنيا والآخرة ، واستهدفت

مقصدًا عامًا يتمثل في توجيه النصح والوعظ والإرشاد إلى جمهور المتلقين ؛ لكون النبي عليه السلام هو المعلم لشؤون الدين والدنيا .

كما حفلت خطبه ﷺ بخصائص تعبيرية وسمات بلاغية متعددة ، منها : وضوح اللغة ، وبيان الحجة ، وصفاء العبارة ، والأداء الموسيقي المؤثر وغيرها من الخصائص؛ ومن ثم جاءت نصوص الخطابة النبوية مشتملة على جميع المعايير النصية ؛ فهي تعتمد على الهدف المرجو منها ، والفكرة التي أراد عليه السلام التركيز عليها ؛ وجاء ذلك من خلال نصوص متلاحمة الأجزاء مستوفية لشروط السبك النحوي والمعجمي ؛ مناسبة للموقف الذي جاءت فيه ، موجزة قصيرة الجمل ؛ فأدى ذلك إلى نجاح عملية الاتصال من جانب المتلقي ؛ فتحقق الفهم والإدراك ؛ ومن ثم تحقق مقصد الخطبة.(١٧)

أما بناء خطبه ﷺ بوجه عام ، فتعتمد خطواته على منهج فني جمالي ، يرتكز – غالبًا– على مقدمة قصيرة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان من حيث الحمد لله والثناء عليه ، ولذلك يقول ابن قتيبة في " عيون الأخبار " تتبعت خطب النبي ﷺ فوجدت أوائل أكثرها ، الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

أما موضوع الخطبة العام ، وهو محورها ، فيعتمد على الأفكار الرئيسة والفرعية التي يُعرض من خلالها كل ما يتعلق بالإسلام ، ويهم شؤون المسلمين في دنياهم وآخرتهم ، مع مراعاة ترتيبها ترتيبًا منطقيًا ، وفي إطار لغة واضحة وصحيحة ومناسبة ، وفي أسلوب مقنع معتمدًا على الأدلة والبراهين .

ثم تأتي الخاتمة ؛ لتلخص الموضوع في عبارة موجزة ، وتنتهي الخطبة بتحية الإسلام بما تحمل من معاني الأمان والسلام والرحمة من الله ﷻ .

والمتتبع لخطابة النبي ﷺ يجدها قد تميزت بالكثرة والتنوع في موضوعاتها التي تتصل بشؤون المسلمين ، والتفاوت في حجمها بين الطول والقصر ، وذلك بما يتطلبه الموقف ، وتستدعيه المناسبة والمقام ، وكانت كلها نماذج مشرقة للخطبة الفنية البليغة التي جاءت جميعها مرتجلة ، وفيها برز فن مشافهة الجمهور وإقناعهم ، والتأثير فيهم ، والاستحواذ على اهتمامهم.

أما الحالة التي يكون عليها النبي ﷺ في موقف خطابته ، فيقول عنها جابر ﷺ : " كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ؛ حتى كأنه منذر جيش "(١٨).

وكانت خطبة الوداع من بين خطبه الطويلة والشاملة التي ألقاها عليه السلام في موسم الحج ، وقد ركب ناقته القصواء ووقف بها على جبل عرفة ؛ ليبلغ جموع المسلمين التي تحيط به في يوم عرفة ، وحي الله ورسالته ، ويلقي إليهم دستور حياتهم ، فكان لهيبة المكان (جبل عرفة) والزمان (موسم الحج) وركنه الأساس (الوقوف بعرفة) دور فاعل في جذب جمهور المخاطبين ، وضمان لصفاء تلقيهم لمحتوى الخطبة ومضامينها الجامعة ، وبلاغتها المؤثرة في نفوسهم ؛ مما يدل على دقة اختياره عليه السلام للمكان والزمان المناسبين لتوجيه رسالته إليهم.

ونحاول أن نتناول هذه الخطبة بالتحليل البلاغي ؛ بهدف الكشف عن قيمها الجمالية ، وأسرارها التعبيرية التي تبرز مواطن البراعة والدقة في فن القول في أرفع مستوياته ، إلى جانب إبراز أثرها البالغ في جمهور المتلقين ، بما أسهمت به من دور رئيس في بناء الدولة الإسلامية ، ونشر الوعي والثقافة الدينية ، في وقت لم يكن

فيه معلم للمسلمين سوى الهادي الأمين ﷺ ، كذلك ما اشتملت عليه من أصول الدين وفروعه ، ومنهج السلوك ، والتشريعات والمعايير التي تحكم العلاقة داخل الأسرة والمجتمع التي أراد الرسول ﷺ إبلاغها إلى الناس جميعًا ؛ للوعظ والإرشاد والتوجيه .

وفوق ذلك ، فقد استوفت الخطبة بمعانيها السامية ، ومضامينها السديدة – على أدق وجه ، وأوفى دلالة – القواعد الأساسية للبناء اللغوي والإيقاعي والنحوي والدلالي ، بما يجعلها نموذجًا رفيعًا للبيان النبوي في أروع صورة ، وأبهى أشكاله ؛ لتغدو تلك البلاغة العالية أمامنا المثل الأعلى في الاستهداء بفنونها المطبوعة ، والتمثل بأساليبها المحكمة الرصينة في الوفاء بالغرض المقصود .

نص الخطبة :

الحمدلله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهدِ الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أوصيكم – عباد الله – بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير .

أَمَّا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي فِي مَوْقِفِي هَذَا .

أتدرون أي يوم هذا ، وأي شهر ، وأي بلد هذا ؟ فقالوا : هذا بلد حرام ، وشهر حرام ، ويوم حرام ، فقال :

أَلا وإنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وأعراضكم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا في بلدكم هذا .

ألا وإنَّ كُلَّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوعٌ؛ وَأَنّ كُلّ دَم كَانَ فِي الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنّ أَوّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، وَإِنّ كُلّ رِبًا مَوْضُوعٌ وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ. قَضَى اللهُ أَنّهُ لَا رِبَا، وَإِنّ رِبَا عَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ .

أَمّا بَعْدُ، أَيّهَا النّاسُ، فَإِنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ بِمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ .

أَيّهَا النّاسُ إنّ النّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلّ بِهِ الّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلّونَهُ عَامًا وَيُحَرّمُونَهُ عَامًا، لِيُوَاطِئُوا عِدّةَ مَا حَرّمَ اللهُ فَيُحِلّوا مَا حَرّمَ اللهُ وَيُحَرّمُوا مَا أَحَلّ اللهُ وَإِنّ الزّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ : ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، وَرَجَبُ مُضَرَ، الّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ .

أَمّا بَعْدُ، أَيّهَا النّاسُ، فَإِنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّا، وَلَهُنّ عَلَيْكُمْ حَقّا، لَكُمْ عَلَيْهِنّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرّحٍ . فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنّ رِزْقُهُنّ وَكُسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ، فاتقوا الله في النساء، وَاسْتَوْصُوا بهنَّ خَيْرًا، فَإِنّهُنّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنّ شَيْئًا، وَإِنّكُمْ إنّمَا أَخَذْتُمُوهُنّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنّ بِكَلِمَاتِ اللهِ .

فَاعْقِلُوا - أَيّهَا النّاسُ - قَوْلِي، فَإِنّي قَدْ بَلّغت، وَقَدْ تَرَكْت فِيكُمْ مَا إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلّوا أَبَدًا؛ أَمْرًا بَيّنًا، كِتَابَ اللهِ وَسُنّةَ نَبِيّهِ .

أَيّهَا النّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ تعلمُنّ أَنّ كُلّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنّ

المُسْلِمِينَ إخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إلّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنفُسَكُمْ . اللهمّ هَلْ بَلَّغت ؟ وإنكم ستلقون ربّكم، فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالًا يضربُ بعضكم رقابَ بعض اللهمّ هَلْ بَلَّغْت ؟ ، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعضَ من يبلُغه أن يكونَ أوعى له من بعضِ مَنْ سمعهُ، وأنتم تُسألون عنّي فما أنتم قائلون ؟ قالوا:نشهدُ أنك قد بلغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ . فقال بإصبعه السبابةِ، يرفعُها إلى السماء ويَنْكبُها إلى الناس : اللهمّ اشْهَدْ (ثلاث مرات) .

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .[١٩]

الدراسة والتحليل :

اللغويات :

الأعراض : جمع عِرْض ، وهو موضع الذم والمدح في الإنسان ، سواء كان في نفسه أو في سَلَفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ، ويحامي عنه أن يُنتقص ، أو يُثلب[٢٠] .

وإذا ذكر عرض فلان فمعناه أموره التي يرتفع بها أو يسقط بذكرها من جهتها بمدح أو ذم ، ويقال : " لا تَعْرِضْ عِرْضَ فلان : لا تذكره بسوء[٢١] .

موضوع : ساقط وباطل لا قيمة له .

النسيء : التأخير ، وهو من نسأ الشيء : إذا أخره ، ونسأ الله في أجله ، وأنسأ أجله : أخره ، ومد له فيه .

والنسيء هو شهر كانت تؤخره العرب ، حيث كانوا – كما يذكر القرطبي –

يحرمون القتال في المحرَّم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرَّموا صَفَرًا بدله ، وقاتلوا في المحرم ، وسبب ذلك أن العرب كانت أصحاب حروب وغارات ؛ فكان يشق عليهم أن يمكثوا طوال هذه الفترة بلا غارات حتى لا يُهلكوا .

فكانوا إذا صدروا عن منىً يقوم منهم رجل ، يقال له القَلَمَّس ؛ فيقول : أنا الذي لا يُردُّ له قضاء ؛ فيقولون : أنسئنا شهرًا ، أي أخر عنَّا حُرمة المحرَّم ، واجعلها في صفر ؛ فيحل لهم المحرَّم .

فكانوا كذلك شهرًا فشهرًا حتى استدار التحريم على السنة كلها ، فقام الإسلام وقد رجع المحرَّم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه ، وهذا معنى قوله عليه السلام : " فإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . "(٢٢)

المحرَّم : شهر الله ، سمته العرب بهذا الاسم ؛ لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف إلى الله تعظيمًا له ، كما قيل للكعبة : بيت الله ، وقيل سمي بذلك ؛ لأنه من الأشهر الحرم . منها أربعة حرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان ، وهو رجب مُضر ، وقيل له رجب مُضر ؛ لأن ربيعة كانوا يحرمون رمضان ويسمونه رجبًا ، وكانت مُضر تحرم رجبًا نفسه ؛ ولذلك قال الرسول ﷺ :" الذي بين جمادى وشعبان "؛ حتى يبين أنه رجب مُضر لا رجب ربيعة ؛ ويقال أضيف رجب إلى مُضر ؛ لأنها كانت أشد القبائل تعظيمًا له. زيادة في الكفر : بيان لما فعلته العرب من جمعها أنواع الكفر .

ليواطئوا : ليوافقوا ؛ أي : لم يحلوا شهرًا إلا حرموا شهرًا ؛ لتبقى الأشهر الحرم الأربعة ؛ أي : ليوافقوا عدتها . إن الزمان قد استدار : أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي حدده الله يوم خلق السموات والأرض .

لا يُوطِئن فرشكم أحدًا تكرهونه : أي لا تستقبل المرأة في البيت من يكرهه

زوجها ، ولا تأذن لأحد بدخول المنزل إلا بإذنه ؛ لذلك لا يكون المقصود بوطء الفراش الزنا ؛ لأنه لو كان المقصود لصارت العقوبة الرجم ، وليس الضرب ، بدليل أن الرسول عليه السلام قال :" فإن فعلن ذلك " أي الإيطاء المذكور ، فاضربوهن ضربًا غير مبرح ؛ أي : غير جارح ، وغير شديد ولا شاق[٢٣] ، وبذلك يكون الإيطاء هنا بمعنى : الزيارة أو الجلوس في الفراش ، وليس الزنا كما قد يُتَوهم ؛ فالزنا من الكبائر المحرمة في القرآن والسنة .

فاحشة مبينة : أي : ظاهرة فُحشًا وقُبحًا .

عوان : جمع عانية ، وهي الأسيرة ؛ أي : عندكم بمنزلة الأسيرة .

ينكبها : يقلبها أو يردها إلى الناس .

الأفكار الرئيسة :

تعد هذه الخطبة إعلانًا بنهاية الجاهلية ، وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة ، حيث تناولت مجموعة من المعاني الجامعة والقضايا والمبادئ الرئيسة التي تتصل بأصول الدين ومبادئه السامية ، وترتبط بالأحكام التشريعية التي تنظم المجتمع الإسلامي ، وحياة المسلمين وسلوكهم ؛ ليعم الخير البشرية جمعاء ، وتسود المحبة بين الناس كافة ؛ ليحيوا حياة طيبة كريمة في دنياهم ، وينالوا الثواب الأوفى في آخرتهم .

أما أهم هذه المضامين فهي :

- الحرص على تقوى الله ، والعمل على طاعته .
- التدبّر فيما يلقى إليهم من موضوعات ، والتفكر فيه .
- حفظ النفس وحرمة قتلها .

- الحق في تملك المال ، دون اغتصابه ، وأكله بالباطل مع تحريم ذلك بشدة .
- أخذ الأهبة والاستعداد ليوم البعث والحساب .
- تحريم الربا والثأر .
- محاربة الشيطان وغواياته ، والانتصار عليه بقوة الإيمان .
- تحريم تحريف الأشهر ، والتلاعب بعدّتها ، ووجوب احترام الزمن .
- الالتزام بحقوق الزوجين ، وواجب كل منهما ، والتوصية بالنساء خيرًا على وجه أخص .
- التمسك بالكتاب والسنة .
- العمل على تحقيق الأخوة الإسلامية ، والمساواة بين الجميع في الحقوق ، وتحريم الظلم .
- الاستمرار في تبليغ الرسالة .

نسق التعبير :

استفتح النبي ﷺ الخطبة بمقدمة يحمد فيها الله ، ويتوكل عليه ، ويتوب إليه من الذنوب ، ويعوذ به من شرور النفس وسيئات العمل ، ويلتمس الهداية منه ، ويقرن بين الشهادتين .

ثم يوصي عليه السلام جمهور المخاطبين بتقوى الله ، والحث على طاعته " أوصيكم عباد الله " وكان في إضافة "عباد" إلى " الله " تشريف ما يعده تشريف ، ويفيد الحث على العمل بوصاياه التي فيها عماد حياتهم ، كما تشير " عباد الله " إلى عبوديتهم الخالصة التي تستلزم الخضوع له ﷻ، والاستجابة لأوامره ونواهيه ، وصولًا إلى طاعته ، وهي أسمى مراتب الاستجابة ، فضلًا عن هذا فإن في تلك الإضافة وقعًا نفسيًّا جاذبًا لنفوس جمهوره المسلم ؛ مما يرفع من مستوى انتباههم ،

كما يعزز ذلك حذف أداة النداء ، وهو يدل على قوة الترابط معهم .

ثم أردف ذلك بقوله : " تقوى الله وطاعته " حيث أعطى ملخص الرسالة مباشرة ، وحدد الهدف في وضوح ودقة بما يتضمنه من حث على تقوى الله وطاعته ، وما يستلزمها من البعد عن معصيته ؛ للوصول إلى رضاه ﷻ ، كما حرص على الربط بينهما برابط " الواو" ليدل على المشاركة بينهما بذلك الربط الجمعي ؛ مما يجعل العبد يوطن نفسه على سلوك سبل الرشد والفلاح ، ومجاهدة الشيطان .

وينتقل الرسول ﷺ بعد ذلك إلى صميم موضوع الخطبة ؛ فيعمد إلى أن يستهل خطابه بما يجذب انتباه الجماهير من خلال توجيه ندائه العام إلى الناس " أيها الناس " ليتعدى الجمهور الذي أمامه إلى أجيال لاحقة غير معينة في كل زمان ومكان ؛ مما يشير إلى عموم رسالته ﷺ وعالمية الإسلام وصلاحيته للمجتمعات كافة على مر العصور ؛ فالإسلام دين البشرية جمعاء .

وقد تكرر هذا النداء "أيها الناس " في الخطبة سبع مرات ؛ ليفيد جذب الانتباه ، وإيقاظ الأسماع والعقول ، وتهيئتها لهذا الموقف المهيب ، وترقبًا لما يصدر عنه من أمر جلل ، وما يثيره من قضايا مهمة تحتاج إلى الاحتشاد والاهتمام ، وكان حذف أداة النداء "يا" تحقيقًا للقرب والتلاحم مع المتلقين الذين زالت الهوة بينهم وبين هاديهم ومرشدهم ؛ وبذلك فهو يحمل كثيرًا من التودد والتلطف .

وجاء الأمر " اسْمَعُوا قَوْلِي " ليحفزهم على الاهتمام بما يعرض عليهم من توجيهات في الخطبة ، ثم يلفت انتباههم ، ويوجه نفوسهم إلى أهمية محتوى هذا اللقاء الذي ربما يكون الأخير بهم " فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي فِي مَوْقِفِي هَذَا " .

ويشير ذلك إلى شعور الرسول ﷺ بدنو أجله ، وقرب رحيله ؛ لأنه قد لا

يلقاهم بعد هذا الموقف ، كما يدل على حرصه على أن يُشعر المسلمين بذلك أيضًا ؛ حتى يُهيئ نفوسهم لتقبل الأمر الإلهي ؛ فلا يفزعوا ، ولا يصيبهم القلق والاضطراب حين يلقى الرسول ﷺ خالقه ﷻ.

وجاء التوكيد في جملة " فَإِنِّي لَا أَدْرِي " ؛ ليقرر عدم علمه بحقيقة موته ؛ وترك الحياة الدنيا ، وإن كان هو رسول الله الذي يوحى إليه ، ثم جاءت الفاء وسيلة للربط في " فإني" لتعلل أهمية تدبرهم وإدراكهم ، وفتح عقولهم وقلوبهم ، لما يبثه في رسالته إليهم عبر هذه الخطبة الجامعة التي قد تكون الأخيرة .

وكان ورود "الفاء" في عقب الجملة السابقة دليلًا على قوة الربط والامتزاج بين الجملتين ؛ مما يجعلها تشكل عنصرًا بنيويًّا ودلاليًّا له أثره البالغ في سبك النص والتحام أجزائه ، وترابط جمله .

وإذا كان معنى "لعل" هو الترجي ، فإنها في سياق الخطبة " لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ ..." تتضمن نوعًا من التقرير والإشعار بدنو الأجل ، لكن الرسول ﷺ أراد أن يجعل الأمر مرهونًا بالآجال التي قرر أنه لا يعلم موعدها ، وإنما الله وحده هو العليم بها .

ثم عرض ﷺ أوامر الإسلام ونواهيه التي تتمثل في حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، التي بناءً عليها يكون الإعلان عن نهاية الجاهلية في أخص تأثيراتها ومظاهرها ، وذلك في شعبها : الدماء والأموال ، والسلوك ، والشعائر ، وبذلك أرسى النبي عليه السلام دستور الحياة للدولة الإسلامية الأولى في عهده .

وقد أسهمت الوسائل البلاغية في توضيح تلك التوجيهات ، ووظفت توظيفًا دقيقًا في الجمع بين الإقناع والتأثير في ذهن المتلقين ووجدانهم ؛ بغية تهيئتهم لاستقبالها ، والاستجابة بالمبادرة إلى الالتزام بما أحله الله، والبعد عما حرمه ،

حيث بُنيت صياغة الفقرة على سلسلة من الاستفهامات المتتابعة :" أتـدرون أي يوم هذا ؟ " و" أي شهر" و: "أي بلد هذا " .

وكان سر العدول بالاستفهام عن المعلوم ، هو دلالة التقرير ، والإثارة والإيقاظ ، ولفت الانتباه والتشويق ؛ للتمهيد إلى ما يرمي إليه ، وهو تعظيم تلك المحرمات : دم المسلم ، وماله ، وعرضه التي طاولت حرمة يوم حرام في شهر حرام في بلد حرام ، وذلك فيه ما فيه من تعميق الشعور في نفوس المخاطبين بالهيبة والجلال من انتهاك تلك الحرمات أو التردي فيها ، وذلك هو جوهر الدلالة في استخدام تلك الأساليب الاستفهامية .

وتكرر الاستفهام مع اليوم والشهر والبلد صعودًا باليقظة إلى قمتها ، وتعميقًا لتأكيد هذه الحرمة من خلال دخول اليوم في الشهر في البلد ، وكأنها حرمات ذات طبقات ثلاث بعضها فوق بعض مجتمعة ، دون أن يأتي واحدٌ منها على الانفصال. (٢٤)

وبناء على ذلك جاء نظم ا بعد هذا الاستفهام المتكرر، معتمدًا على بعض وسائل الإقناع والتأثير التي منها : " أَلا وإنّ دِمَاءَكُمْ ... عَلَيْكُمْ حَرَامٌ " وهي تبدأ بأداة الاستفتاح " ألا" التي جاء من أجزائها الاستفهام ، وتهدف إلى إثارة انتباه المخاطبين ، كذلك منها وسائل التوكيد التي ارتكزت عليها الفقرة "إن" والجملة الاسمية التي تفيد الدوام والثبوت ثبوتًا للحرمة وصيانتها دومًا ، وهو ما يستبين به المسلم في جلاء فداحة ما سيكون عليه ارتكاب هذه المحارم التي حرمها الله ﷻ تحريمًا مؤكدًا بجعلها أعظم حرمة من كل جنسها ، وهو ما أقروا به على أنفسهم .

كذلك كان التكرار من العناصر الأسلوبية المهمة في بناء الخطبة وتشكيلها فنيًا ، وهو أحد وسائل الإقناع التي استعملها الرسول ﷺ بغرض تذكير

المخاطبين باستمرار الهدف من رسالته ، مع إشباع احتياجاتهم ورغباتهم النفسية في الوقت نفسه ، حيث يكشف تكرار اللفظة " حرمة " واسم الإشارة "هذا " عن اهتمامه عليه السلام بالأمر ، وتعظيمه لشأنه ، وأن هذه الحرمات الثلاث : الدماء ، والأموال ، والأعراض من القضايا الكبرى في حياة المسلم التي لها من الخطر والجلال ما لها ؛ فيجب تقريرها وترسيخها بشكل حاسم وقاطع دون تردد أو شك في القبول والتلقي ؛ لتنقية المجتمع الإسلامي من الاعتداء على تلك الحرمات .

ولا يخفى ما يمثله اسم الإشارة "هذا" من دلالة على التفخيم والتعظيم ، من حيث وروده على التتابع مع : اليوم ، والشهر ، والبلد ، وما في ذلك من إشارة واضحة على التمييز الذي تحظى به كل منها على نحو خاص ، ناهيك عن الإيقاع اللفظي المؤثر الذي زاد من جلال التوكيد ؛ نتيجة للازدواج والسجع النابع من تتابع الجمل المتوازنة الموحدة الفواصل باسم الإشارة " هذا" ، وما أحدثه من تنغيم سلك طريقه إلى النفوس بحسن جرسه وتتابعه ؛ مما يحفزها إلى استيعاب ذلك الأمر بكل أبعاده النفسية والفكرية .

فالتكرار في أساسه إلحاح على جهة معينة في العبارة بما يكشف عن اهتمام المتكلم بها أكثر من اهتمامه بسواها ، فيسلط عليها الضوء ؛ لتأكيد معانٍ محددة ، تساعده في الوصول إلى هدفه.

وكان هذا اللون الأسلوبي سنة بيانية من سنن العرب ، قال عنها السيوطي في مزهره : من سنن العرب التكرير والإعادة ، إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر ، وقد جاءت عليها أحاديث الرسول ﷺ وخطابته ، حين كان يلمس حاجة المعنى إلى إعادته ، صرح أنس بن مالك بهذه الغاية في قوله : " كان الرسول ﷺ يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه " (٢٥)

كما شكلت الصورة التشبيهية إضاءات فنية داخل النسيج العام للفقرة ، وساعدت على كشف المعنى وتوضيحه ، إذ أبانت مدى مقدار حرمة الدم والمال والعرض عن طريق التشبيه بأمور مقررة الحرمة في نفوس المخاطبين ، وذات هيبة ورهبة وإجلال في وجدانهم ، كما أن إضافة اليوم والشهر والبلد إلى ضمير المخاطبين ؛ فيه إشعار لهم باختصاصهم بها ؛ مما يزيدهم تقديرًا لها وتعظيمًا .

وكان المشبه في الصورة هو حرمة الدم والمال والعرض على الانفصال ؛ أي: شبه كل واحد منها على حدة ، والمشبه به هو اليوم والشهر والبلد مجتمعة ، مما يدل على خطورة التعدي على تلك الحرمات .

وجاءت أداة التشبيه " الكاف " ، بوصفها بوابة فنية تضمر خلفها حالة متحركة واسعة الأرجاء ؛ لتشكل الربط المباشر بين الطرفين ، والمرتكز الأساس الذي يوحي للمخاطبين أن المشبه به في هذا السياق : اليوم الحرام ، والشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ما زالت له في وجدانهم منزلته السامية المتجذرة ، وأن المشبه : الدم والمال والعرض ، ملحق بتلك المكانة تعظيمًا لحرمته ؛ لأن المشبه به يكون أعلى حالًا من المشبه ، لتحصل المبالغة التي تقتضيها طبيعة التشبيه .

ولذا تطلبت البلاغة النبوية وضع الأداة "الكاف" في التشبيه هنا ؛ لحمل حال بحاجة إلى أن تقرر على أخرى مقررة معلومة في الأساس لدى المخاطبين التي تحرص الخطبة على استجلابهم ، والتفاعل مع أفهامهم ومشاعرهم ، وكذا العناية بفهمهم حدود المعاني وإدراكها على نحو واضح ؛ وبذلك حققت الصورة التشبيهية الغاية الإيضاحية لبلاغة الخطبة النبوية .

وفي هذا قال الإمام العيني :" إنما شبهها في الحرمة بهذه الأشياء ؛ لأنهم لا يرون استباحة تلك الأشياء ، وانتهاك حرمتها بحالٍ، وقيل : مثل باليوم وبالشهر وبالبلد ؛ لتوكيد تحريم ما حرم من الدماء والأموال والأعراض " (٢٦) .

ويتجلى في الخطبة ، وهي تمثل قمة الاتصال اللغوي الفعال ، استعمال أساليب لغوية متنوعة للإقناع ؛ للوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير في الجمهور ، وشد انتباهه بالكامل ، وجعله في غاية درجات الاستثارة ، وفي التحكم في وجدانه وعقله ، ومن ذلك تناوله للنموذج الأمني والاقتصادي للمجتمع المسلم عن طريق التدرج ، حيث بدأ بإعلان تعميم حكم التحريم على كل ما كان من أمر الجاهلية ، فوقف منه موقفًا حاسمًا ، هادفًا بذلك إلى السمو بالعلاقات الإنسانية ، والترفع بالبشرية إلى عالم تموت فيه دواعي البغضاء والتشاحن والتطاحن ، وتعمه أحاسيس المحبة ، وتشده أواصر الأخوة والتضامن.

ثم يزيد هذا التأكيد أهمية حين يعمد إلى قطع علاقة أفراد مجتمعه الجديد بما كان لهم أو عليهم من ثارات دموية ، ومعاملات ربوية في الجاهلية ، ثم يصعد بالتأكيد إلى قمته حين يقرر أنه يبدأ بتنفيذ هذه الأحكام على أهله وعشيرته الأقربين ؛ فيبطل حق المطالبة بدم ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ويسقط ربا عمه العباس ؛ لأن القرابة أمكن في النفوس ، وهو بذلك يضرب المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة لجمهوره ، ويجسد منطق الصدق قولًا وعملًا ؛ ليكون أوقع في النفوس ، وأدعى لتلبية النداء ؛ ويكون الناس على معرفة بأنه عليه السلام أول المطبقين لأمر الله ﷻ المتمسكين بعهده " **وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ... وَإِنَّ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ** " . وبذلك يبرز روح التجرد والموضوعية ، ومن ثم تأتي مصداقية رسالته التي تساوي بين الحاكم والمحكومين .

ثم ينتهي إلى تعميم الحكم بتحريم ربا الجاهلية على إطلاقه ، تأكيدًا لمدلول النص القرآني " لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ " و " قَضَى اللهُ أَنَّهُ لَا رِبَا " وهو بذلك

يبين أن المصدر والأساس التشريعي الذي يعتمد عليه فيما يقرر من أوامر ونواهي، هو كتاب الله الحكيم الذي حرم الربا وأعطى كل ذي حق حقه .

وقد حفلت الفقرة بوسائل التوكيد التي تقرر رفضه عليه السلام لمآثر الجاهلية التي اتخذها بعضهم أساسًا لسلوكهم زمنًا طويلًا ؛ ليحفظ لأمته وحدتها ووئام أبنائها وسلامتهم، ومنها : إن ، وأن ، وكله ، وتكرار الفكرة ، كما في تكرار فكرة تحريم الربا :" إِنّ كُلّ رِبًا مَوْضُوعٌ ، قَضَى الله أَنّهُ لَا رِبَا ، وَإِنّ رِبَا عَبّاسٍ ... "، إضافة إلى استخدام الجمل الاسمية التي تفيد الثبات والدوام وغيرها من وسائل تثبيت الأفكار في أذهان المخاطبين .

أما جملة " وَلَكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ " فجاءت على سبيل الاستدراك على الأموال الربوية، بإقرار الإسلام لرؤوس الأموال النافعة ؛ حتى يبقي على كيانهم الاقتصادي المشروع ، وبذلك فقد بينت أداة الربط التعاكسي "لكن" أن الربا بكافة أشكاله موضوع ، إلا رؤوس الأموال ، فهي من الأمور المحمودة التي حرص عليها الإسلام ، ومن ثم برزت أهمية الربط التعاكسي في السبك النصي للعبارة ، التي جاءت فيها الجملة الأولى تحقر الأموال الربوية وتستبعدها ، بينما جاءت الثانية تخالف الأولى ، فتقدر رؤوس الأموال المشروعة وتهتم بها ، وتحرص عليها .

وجاء تقديم الخبر "لكم" ليبعث في نفوسهم الطمأنينة ، حيث هو الأهم ، فلا بد أن يذكر أولًا ؛ لأنه إشعار بأن ما كان غير المحذور يعود إلى أصحابه ، فرؤوس الأموال حق من حقوقهم المشروعة ، دون ما يتمخض عن الربا من أموال لا يباح لهم تملكها وحيازتها ، إلى جانب ذلك فإن النفي جاء مقرونًا بالمضارع إشارة إلى تجدد النفي واستمراره حتى يظل المال في منطقة الحرمة بعيدًا عن أي لون من ألوان الظلم .

وكان التناص مع القرآن الكريم أحد التقنيات الأسلوبية المقنعة والمؤثرة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة :٢٧٩).

كما وظف وسائل التوكيد التي توضح ترسخ الدين في نفوس المسلمين ، حتى لم يعد للشيطان أمل أن يعبد بأرضهم ، ومنها : إن، وقد ، وأبدًا ، والفعل الماضي ، وهي جميعًا تؤكد وجوب مقاومة الشيطان بكل مغرياته وموجباته .

أما أداة الربط العكسي "لكن" فقد بينت أن الشيطان على الرغم من يأسه أن يعبد في مكة إلا أنه قد ارتضى منهم (أهل مكة) اقترافهم الآثام ، ولو في محقرات الذنوب التي تكون سهلة لدى الناس ، وهي خطيرة .

وفي إطار تحذيره من فتن الشيطان ، حذر من إحدى هذه الفتن وهي تحريف الأشهر ، والتلاعب بعدتها ، واعتبارهم التحريم يكمن في مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، ومن أساليب التوكيد التي اتخذها وسيلة إقناع ليصب فيها ذلك التحذير بقصد التوضيح والتقرير : إن ، وإن وقد ، والمقابلة في : " فَيَحِلّوا مَا حَرّمَ الله ، وَيُحَرّمُوا مَا أَحَلّ الله " وفي ذلك تأكيد وتقرير له دلالته على خطورة تحريف الأشهر ، ووجوب احترام الزمن بحيث يكون على هيئته يوم خلق الله السموات والارض .

كما تجلت تقنية التناص بتأثيرها الإقناعي في الفقرة مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (التوبة) .

وقد توافرت في الفقرة عدة أشكال من الروابط النصية منها : الرابط السببي المتمثل في لام التعليل في جمعها بين السبب والغاية في بيان موقف أهل الجاهلية في

عملهم بالنسيء ؛للتحايل على الاستمرار في القتال خلال الأشهر الحرم " لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله " .

ومنها أيضًا علاقات المصاحبة اللغوية التي تتمثل في الترتيب التسلسلي الواضح فيما ذكره النبي ﷺ عن عدة الشهور عند الله ردًّا على فعل الجاهليين في العمل بالنسيء ، وهي ثلاثة متواليات: ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد منها منفرد هو : رجب ، وهي مرجعية خارجية ترتبط بالسياق الذي وردت فيه الخطبة ، حيث يعتمد هذا التسلسل على علم المخاطب والمتلقي بشهور العام .

بالإضافة إلى ذلك هناك الربط بالواو بين الجمل المتعاطفة التي بين فيها الرسول خطورة النسيء ، وضرورة اتباع الترتيب الزمني الطبيعي ، والربط بين أسماء الشهور (ذو الحجة والمحرم ورجب) وعطفها على (ذو القعدة) كما جاءت الإحالة باسم الموصول (الذي) الراجعة إلى (رجب) . هذا بالإضافة إلى الرابط المعنوي الذي فيه يتحقق الربط بين عنصرين ، بحيث يصيران كالكلمة الواحدة من شدة التماسك والالتحام بينهما ، كما في قوله :" أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ " ، " ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ " ، "رَجَبُ مُضَرَ " .

وجاء تحديد "رجب" بكلمة " مضر" دليلًا على الدقة ، ودفع الشك في تسمية هذا الشهر الحرام الذي كانت بعض القبائل لا تحرمه ، وبذلك أسهمت الروابط اللفظية والمعنوية (نحوية ومعجمية) في تشكيل الخطبة وسبكها بوصفها روابط بنيوية ودلالية .

وتنتقل الخطبة من العام إلى الخاص ، من العلاقات الإنسانية بين المسلمين عامة ، إلى العلاقات الإنسانية على المستوى الأسري ، حيث تناول الرسول جوهر

العلاقات الإنسانية عبر كل مستوياتها من أوسعها مجالًا وهو مفهوم الأمة إلى أضيقها وهو مستوى الأسرة .

وبذلك يكون الرسول ﷺ استقرأ شؤون جمهوره كافة ، ما عظم منها ، وما صغر ؛ حرصًا منه على التلاحم معهم ، ومع قضاياهم ، وعلى ضمان راحتهم النفسية ، فهو يلفت أنظارهم إلى أهمية بناء الأسرة التي تمثل الركيزة الأولى للبناء الاجتماعي من داخله ، وتحرص على سلامتها من غوائل الاعتداء ، ووطأة التسلط .

ولذا يعمد عليه السلام إلى توزيع دور الزوجين فيها على أسس عادلة ثابتة بما يتلاءم والفطرة الإنسانية ، والرسالة المنوطة بكل واحد منهما ، كما وقف الرسول ﷺ على موقع المرأة من الكيان الأسري ، مما يتطلب أن يضمن لها أن تؤدي دورها الاجتماعي على أكمل وجه ، أما في حالة خطئها أو انحرافها عن السلوك المرغوب فيه ، فقد حدد لها من صور العقاب ما يضمن تراجعها إلى الصواب ، وذلك من خلال التدرج والرفق بها ، مع حرصه على التوصية بها خيرًا.

وقد استعان الرسول ﷺ بأسلوبه البليغ ، وأدائه الدقيق على توضيح أفكار هذا المحور ، والتأكيد بعدة وسائل على معانٍ بعينها ، تساعده في الوصول إلى هدفه ، وهو التحول بهذه المضامين إلى منجز سلوكي يحقق الغاية التربوية من خطبته في الواقع الفعلي في حياة المخاطبين .

وكان من تلك الوسائل التأثيرية : إن ، وإنما ، وقد تكررت في أكثر من جملة ، وأسلوب المقابلة :" فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا "، والتفصيل بعد الإجمال ، وهو من صور التكرار ، ويحمل مرجعية خلفية لما سبق إجماله :" لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا... لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ ... وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ ... " ،

وكذلك " وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًا ... فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكُسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فاتقوا الله في النساء ..." ، والتعليل " فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَان " .

كما كان الاستبدال الفعلي عنصرًا فاعلًا ومؤثرًا في تماسك النص وسبكه من خلال إحلال كلمة " فعلن " محل الفعلين السابقين عليها " يُوطِئْنَ، يَأْتِينَ " في قوله : " لكم عليهن أَنْ لَا يُوطِئْنَ... ، لَا يَأْتِينَ... ، فَإِنْ فَعَلْنَ... " وبذلك تقوم " فَعَلْنَ " بدور الفعلين في الأداء ، وهذه الاستمرارية في الأدوار في سياق البناء اللغوي للنص تمنحه قوة التماسك والسبك .

هذا فضلًا عن توافر عناصر الإحالة من خلال مرجعية الضمير المخاطب في : "فرشكم ، لكم ، عليكم ، عندكم ... " محيلة إلى الاسم الظاهر " الناس " ، وبذلك يتحقق السياج والرابط الذي يجذب بين المتفرقات ؛ فيجذب بعضها بعضًا ؛ فيكون النص ، وبذلك يصف اللسانيون السبك النصي بأنه عنصر جوهري في تشكيل النص وتفسيره .(٢٧)

وقد زاد من أهمية أساليب الإقناع والتأثير ، الإيقاع اللفظي المتولد من السجع ، وما له من دور في التأثير الوجداني والفكري ، وذلك في قوله ﷺ : " أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ الله " .

وشاركت الصورة البيانية في كشف المعنى وتوضيح علاقة الرجل بالمرأة ، وضرورة إحاطتها بالعطف والحنان ، حيث شبهت النساء بالأسيرات " فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَان " حيث ملّك الله الرجل زمام أمرها جسدًا وروحًا ، واستأمنه عليها ، فليكن رفيقًا بها ، وليرع الأمانة التي حمّلها الله إياه .

ثم يعود عليه السلام ليكرر نداءه وأمره بأن يعقلوا توصياته وتوجيهاته ، مستخدمًا أيضًا صيغة النداء العام نفسها " أَيُّهَا النَّاسُ " لعظم الموقف وأهميته ،

وكذلك الأمر "اعْقِلُوا" الذي يفيد حثهم وتحفيزهم على الاهتمام بها .

هذا فضلًا عن إيثاره استخدام أسلوب الشرط :" إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِـهِ فَلَـنْ تَـضِلّوا أَبَدًا " ، " وهو الذي يتواءم مع المقتضى التعليمي ، وما يتطلبه من الدقـة والإحكـام ؛ لما يختص به أسلوب الشرط ، من تعلق المقدمات بالنتائج ، حيث انبنـى هنـا عـلى الإغراء بالعمل ببيان جزائه ، إذ يرمي إلى بيان تعظيم التمسك بكتاب الله وسنته ؛ ليتحقق لهم النجاة من الضلال والهلاك .

وجاء جواب الشرط في بنية المضارع المقرون بـالنفي الـدال عـلى الاسـتقبال " فَلَنْ تَضِلّوا أَبَدًا " ؛ ليفيد تجدد ذلك النفي واستمراره مع تأكيد أبديته بلفظـة " أَبَـدًا " واقترن الجواب بالرابط النصي السببي الذي يجمع بين الشرط وجوابه فـيما وجهـه الرسول بضرورة التزام الاعتصام بمصدري التـشريع ؛ وبـذلك وضـعت دلالـة الشرط النتيجة على الفعل ماثلة بين يدي المخـاطبين ، وهـذه النتيجـة التـي تمثـل مكافأة ومثوبة تبلغ غايتها من الحث على القيام بهذا الفعل ، وهو العمـل بكتـاب الله وسنته ؛ ومن ثم استطاع الرسول ﷺ أن يجعـل جمهـوره ، دون أن يـأمره أمـرًا صريحًا ، يسعى حثيثًـا إلى العـودة إلى نفـسه ، متـأملًا مـضمون الـشرط بعنـاصره اللغوية تأملًا استرداديًا ، وذلك ما بينته البلاغة النبوية في براعة ويسر .

كما تتجلى البلاغة النبوية في احتـواء العبـارة للمخـاطبين ، وشـد انتبـاههم ، والتأثير فيهم باستخدام الصيغة اللفظية المؤكدة بوسيلتين " فَإِنّي قَدْ بَلّغْت " التـي هي من وسائله الخاصة في ضمان نجاح أصداء خطابـه لجمهـوره ، كـذلك تبعـث على ارتياحه النفسي ، إذ ضمن عليه السلام سلامة تبليغ الرسالة التي حمل عبأها ، كما تدل صيغة " بَلّغْت " على الحـسم والقطـع ، والإشـعار بـأن هـذا هـو الـبلاغ النهائي الذي يجب عليهم تنفيذه ، وتحمُّل مسؤوليته ، فلا بلاغ بعده .

هذا بالإضافة إلى ما جاء في تبليغه من تأكيد أن تلك الرسالة مصدرها الأساس : الكتاب والسنة، وهما ركيزتان واضحتان فيهما خير الدنيا والآخرة : " وَقَدْ تَرَكْت فِيكُمْ ... كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ " وتفيد "قد" التحقيق والتثبيت ، ويدل الفعل الماضي " تَرَكْت " على التوكيد أيضًا ، وتصدرت الجملة (بالواو) التي تفيد الجمع بينهما وبين الجملة التي تسبقها ، وتوضح ما بينهما من ترتيب زمني ، كما توافرت في الفقرة عناصر السبك التي تتمثل في إحالة الضمائر في :" فِيكُمْ ، اعْتَصَمْتُمْ ، تَضِلّوا " إحالة قبلية مرجعيتها إلى "الناس" ولا شك أن تضافر تلك الضمائر له دوره في سبك النص وانسجامه .

وفي المقطع الأخير من الخطبة يتجسد الحرص النبوي في أن تبلغ توجيهاته مكامن نفوس المخاطبين عن طريق أساليب الإقناع العقلي والتأثير النفسي ، ومنها : أسلوب الطلب " اسْمَعُوا... تَعلمُنّ..." فالسماع شرط العلم والمعرفة ؛ إذ إنه يحمّل من يسمعه ، ويتلقّى عنه المسؤولية ؛ فلا يكون لديه عذر إذا قصّر؛ وكذلك النهي المؤكد بالنون الثقيلة في " تَعلمُنّ " و " لَا تَظْلِمُنَّ " فالنون تمثل وسيلة القرع للنفس ؛ خشية أن تغفل ، فتجهل وتضلّ.

ومن أساليب الإقناع أيضًا تكرار فكرة الأخوة بين المسلمين ، إلى جانب توكيدها بالأداة " إن" وبأسلوب القصر ، وذلك في : " أَنّ كُلّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنّ الْمُسْلِمِينَ إخْوَةٌ..." ، ثم بيان العلة في :" فَلَا يَحِلُّ ..." فَلَا تَظْلِمُنَّ..." "فلا ترجعوا..." " فلعلَّ بعضَ...".

فالتعليل يعد من طرق الإقناع الواضحة في الخطبة ، وكذلك الرابط السببي " الفاء" وسيلة من وسائل دعم التماسك النصي فيها ، كما كانت إحالة الضمائر عنصرًا فاعلًا في هذا التماسك :" اسْمَعُوا ، اعْقِلُوا، تَعلمُنّ ، لَا تَظْلِمُنَّ ، ستلقون ، لا ترجعوا ..." ، وهي إحالة داخلية قبلية راجعة إلى "الناس" ، هذا فضلًا عن

وجود الرابط المعنوي الجامع بين عنصرين متضايفين في "كُلّ مُسْلِمٍ " و" طِيبِ نَفْسٍ " و" رقابَ بعض " و " بعضَ من..." ، وغيرها مما يعد من أوثق أنواع السبك والانسجام في النص .

وتأتي جملة " وإنكم ستلقون ربّكم " في إطار التقرير أيضًا ؛ لتدل على أن من أركان العقيدة أن يلقى الناس ربهم ؛ ليحاسبهم ويسألهم عن أعمالهم ، وجاء الفعل "ستلقون " مصدرًا بالسين الدالة على الاستقبال ، التي تشعر المتلقين بقرب هذا اللقاء ؛ فيدفعهم ذلك إلى أداء واجبهم تجاه دينهم .

ونتيجة لذلك استخدم عليه السلام في آخر الخطبة أسلوب النهي التحذيري من خطر الانتكاس والعودة إلى الضلال والكفر بالتناحر والتضارب التي هي من أفعال الجاهلية ، وأخلاق أصحابها ، وذلك في قوله " فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالًا " وفي ذلك حضٌّ لهم على التمسك بالإسلام والمحافظة على حدوده وآدابه ، ورعاية حرماته ومقدساته .

ثم أعقبتها مباشرة جملة " يضربُ بعضكم رقابَ بعض " وهي جملة مستأنفة مبينة لما قبلها ، وبينهما من شدة السبك ما لم يحتج إلى رابط لفظي ، وهو ما يسمى في البلاغة بكمال الاتصال ، كما تمثلت هنا المصاحبة اللغوية التي هي من عناصر السبك المعجمي في علاقة الجزء بالكل أو الخاص بالعام ، حيث جاء لفظ " الرقاب " يمثل جزءًا من كل هو الإنسان ، وخصه بالذكر ؛ لأنه موضع القتل .

كما ظهر السبك المعجمي في المصاحبة اللغوية من خلال التلازم بين لفظي "يضرب" ، و"رقاب " فلا تذكر الرقاب في سياق القتل إلا ويذكر معها الضرب ، ودليله قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ (محمد:٤) ، وبذلك تلاحمت أجزاء الفقرة ، وأسهمت العناصر النحوية والمعجمية في سبك النص بما يتطلبه الموقف ، ويستوجبه السياق ؛ للتركيز على الفكرة المستهدفة . (٢٨)

ثم تبرز الصيغة اللفظية المؤثرة في السؤال التقريري الذي يحمل بين طياته شعورًا بالرضا ، على أدائه الأمانة ، حيث يُشهد ﷺ الحق ، وهو خير الشاهدين ، على تبليغه الدعوة للناس " اللهمّ هَلْ بَلَّغْت ؟ " فقد عدل هنا عن الصيغة الإخبارية على النحو الذي ورد في الفقرة السابقة " فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْت " ؛ ليأتي التقرير أشد في النفس وأوقع ، وأدعى إلى الطمأنينة ؛ وبذلك خرج الاستفهام إلى التقرير والتثبيت ؛ ليستوثق من يقظة المخاطبين ، وتجاوبهم معه ، كما أنه يعمق الشعور بالرهبة في نفوسهم المؤمنة من انتهاك حرمات الله ، مع ضمان استمرارية ذلك بعد غيابه ﷺ ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وبناء على ذلك يأمر عليه السلام الحاضر من المخاطبين أن يبلغ الغائب من خلال المضارع المقترن بلام الأمر " ليبلغ" الذي ينبثق منه قدر هائل من الحث على المسارعة في الإبلاغ ، وصدره بالأداة "ألا" التي تبرز ما في هذا الموقف المهيب من روحانية مفعمة ، حيث تبدو من خلال مقطعها الصوتي المفتوح كأنها صيحة ترسل الصوت على امتداد متسع قد أطلقها ﷺ ؛ لتمثل قمة الإحساس بالحاجة الملحة ؛ للفت انتباه المخاطبين ، وإيقاظ عقولهم .

وقد توافرت في الفقرة عناصر الحبك الدلالي التي تضافرت مع بقية العناصر في سبك النص ، متمثلة في التضاد بين " الشاهد والغائب" إذ تمخض عنه تحقق التسوية في التبليغ بين الجميع ، إما شاهد وعليه التبليغ ، وإما غائب مُبلّغ من قبل الشاهد ، كما أن هناك حذفًا تجلى في شبه الجملة "منكم" فالتعبير بتمامه " فليبلغ الشاهد منكم الغائب " ، وهو من وسائل السبك التي تقوي تماسك النص .

ثم يبين عليه السلام لهم العلة من إبلاغ الشاهد الغائب ، وهي أنه ربما من يبلغه هذا الكلام ، ولم يمثل أمام النبي ﷺ ، يكون قلبه أكثر تفتحًا للهدى ، وأعمق تأثرًا بما بلغه من بعض من سمع منه عليه السلام ، فاستخدم في توضيح

ذلك وسيلة الإقناع العقلي المتمثل في الرابط النصي المنطقي وهو " الفاء" التي للسببية ؛ ليدعم التماسك النصي ، وذلك في قوله : " فلعلَّ بعضَ من يبلُغه أن يكونَ أوعى له من بعضِ مَنْ سمعهُ ".

ولا ينهي الرسول ﷺ خطبته حتى يستوثق من شهادة المخاطبين له أمام الله عن أداء رسالته ، باستجوابه لهم بقوله :" فما أنتم قائلون ؟" وتأتي إجابتهم في أثر سؤاله مباشرة بالقبول والشهادة والإقرار المؤكد بوسيلتين : " قد" ، والأفعال الماضية المتعددة " بلّغتَ ، أدَّيتَ، نصحتَ " ، لتكون أوقع في النفس ، وأدعى إلى الطمأنينة ؛ مما يعزز الحالة النفسية للهادي الأمين ، فقد استنطقهم عليه السلام بالحجة عليهم أنه قد بلغهم رسالته ؛ قطعًا للعذر ، وإقامة للحجة في هذا الأمر .

وكان من عناصر الإحالة النصية ، إحالة الضمير "التاء" في الأفعال الثلاثة المذكورة ، وجميعها يحيل إلى "الكاف" في : "أنك" إحالة قبلية ، بالإضافة إلى رابط "الواو" الذي يجمع بين " أديت ونصحت" عطفًا على "بلّغتَ " ؛ مما يدعم عملية السبك النصي ، هذا إلى جانب السبك النحوي المتمثل في حذف لفظة "نعم" من جملة : "قالوا: نشهدُ أنك قد بلّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ " والمراد (نعم نشهد...) اعتمادًا على دلالة السياق عليها ؛ ولا شك أن هذا الحذف يخلع على الجملة لونًا من الحبك يبعدها عن الطول ويخلصها من ذكر كلمة "نعم" التي لا تضيف شيئًا إلى المعنى، كما أن عدم ذكرها لا يحدث لبسًا ؛ فلا حاجة حينئذ لذكرها .

وبعد أن استوثق ﷺ من أنه أدَّى الأمانة ، وبلَّغ الرسالة على أكمل وجه ، أعلن على الملأ ، مشيرًا بسبابته إلى السماء ، ثم إليهم ثلاثًا ، وهو يقول: " اللهمّ اشْهَدْ " وهو نداء للتعظيم والتفخيم ؛ فقد تغيرت حالة الخطاب من مخاطبة المخلوقين إلى مخاطبة الخالق ، أما المحور فقد تغير من التبليغ ذاته إلى الإشهاد عليه .

وفي الجملة حذف تقديره " اللهم اشهد أني قد بلغت " وفيه مرجعية إلى ما

سبق ذكره ، حيث وردت البنية بتمامها "قد بلَّغت " ، قبل ورود البنية التي وقع فيها الحذف ، وينبغي أن يكون بالإمكان استرجاع البنية الكاملة في مثل هذه الحالات ؛ ليتحقق للمتلقي الإفادة الكاملة من فهم النص بتمامه ؛ لإنجاح عملية التواصل بينه وبين المرسل . (٢٩)

وكانت إشارته ﷺ باليد جزءًا لا يتجزأ من نسيج الخطبة ، حيث دعمت المنطوق " اللهمّ اشْهَدْ " ، وأسهمت في التعبير عما يريد الخطيب عليه السلام التعبير عنه بشكل فعّال ، إذ إنها قامت مقام اللسان في النظام اللغوي الصوتي ، حسب ما يقتضيه المقام ، وينسجم مع طبيعة السياق ؛ حتى يوضح عليه السلام الرؤية كاملة أمام جمهور المتلقين في لوحة فنية محسوسة ، وذلك انسجامًا مع القاعدة البلاغية المشهورة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال " .

ومن ثم كانت الإشارة في هذا الموقف أبلغ دلالة من العبارة ؛ مما يدل على أن الرسول ﷺ كان بليغ الإشارة ، كما كان بليغ العبارة على حد سواء ؛ وعلى هذا فإن عملية التواصل لا تعتمد على اللغة فحسب ، بل تعتمد أيضًا على ما يصاحبها من إشارات وحركات جسمية ، وهو ما يعرف في علم الأسلوبية الحديث بالعلامات أو السيميائيات .

وبذلك يتضح أن الرسول ﷺ عرض في خطبته أهم مبادئ الدستور الذي ينبني على أساسه المجتمع الإسلامي بصورة موجزة مركزة ، وفي بلاغة مؤثرة ، وحكمة بالغة ، وبيان ساحر ؛ مما يأخذ بمجامع القلوب ، وتهتز له النفوس ؛ فكانت خطبته مضرب المثل ، ومحل الإعجاب من أئمة البلاغة ، وأرباب الفصاحة ، ولا غرو في ذلك فإنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم ، وجاءت بلاغته قبسًا من المنحة الإلهية ، مع فطرة عريقة أصيلة ، تساندت في صقلها أقوى العوامل ، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات .

الرسالة :

بعث الله محمدًا ﷺ نبيًا ورسولًا للعالمين ، ونهض عليه السلام بتبليغ رسالته ، ونشر دعوته ، وإقامة الحجة على الناس ، فنفذ ما أمره الله به في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ (المدثر) ، وقوله : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٦٧ ﴾ (المائدة) ، وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تدعوه إلى تنفيذ هذا التكليف الإلهي .

وسلك النبي ﷺ الوسائل المختلفة ، والأساليب المتنوعة ، للتبليغ والإنذار على نحو نافع مثمر ، وكان من أهمها التبليغ بالقول من نصيحة وخطبة ومناقشة وغيرها ، وكذلك التبليغ بالفعل ، وبالعمل ، وبالقدوة ، ثم التبليغ بالكتابة إلى غير ذلك من وسائل وأساليب مناسبة ومفيدة سار عليها ﷺ في نشر دعوته .

وبدأ الرسول ﷺ تبليغ دعوته إلى أهله وعشيرته الأقربين ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ (الشعراء) ، ثم اتصل بمن يعرفهم سرًّا ، وبلغهم دعوته ، ثم جهر بها وأعلنها أمام قومه من قريش ، وكان يعرض نفسه على القبائل يبلِّغهم دعوته ، ويتصل بالناس من مختلف القبائل والبلدان في موسم الحج ، كما كان يخرج إلى مناطق أخرى خارج مكة ، ويرسل أصحابه إلى آخرين ، ويكتب الرسائل ، ويرسلها مع رسله ومبعوثيه إلى الملوك والأمراء والحكام ؛ ليدعوهم إلى الدخول في الإسلام .

وكان من أشهر الملوك والأمراء والحكام الذين أرسل إليهم ﷺ رسائله : هرقل قيصر الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس الوالي الروماني على مصر ، والنجاشي ملك الحبشة ، والمنذر بن ساوي حاكم البحرين ، وجَيْفَرُ وعَبْد ابنَي الجُلُنْدي حاكما عُمان ، وهوذةُ بنُ علي الحنفي حاكم اليمامة ، والحارث بن أبي

شمس الغساني حاكم الغساسنة ، والعاقبُ والسيدُ حاكما نجران ، وكان لكل واحد منهم موقف من رسالة المصطفى عليه السلام إليه (٣٠).

وقد احتلت الرسالة النبوية مكانة بارزة في البيان النبوي الرفيع ، وكانت صنو الخطابة ؛ لما يجمع بينهما من سهولة الألفاظ وعذوبتها ، ووضوح المعاني ، وروعة الأسلوب ، وبراعة القصد إلى الهدف بالإقناع والاستمالة ، هذا فضلاً عن التشابه بينهما في الغرض والموضوع ؛ أما الفرق بين اللونين ، فإن الخُطب أوسع مجالًا ، والرسائل أضيق دائرة ، إذ تكون الخطب في جمهور عام ، وتكون الرسائل لأشخاص مخصوصين ، ولذلك يرى أبو هلال العسكري أن الرسالة يمكن أن تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، في أيسر كلفة بينهما ؛ لما بينهما من تشابه كبير . (٣١)

أما أهم ما تتميز به الرسالة النبوية من سمات فنية ، وهي سمات مشتركة بين غالبية رسائله ﷺ ، فنتعرض لها بشيء من التفصيل من خلال تحليلنا لإحدى هذه الرسائل ، وهي رسالته التي كتبها المصطفى ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، ونصها كالتالي :"

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ،، أَمَّا بَعْدُ ..

فَإِنِّي أدعُوكَ بِدعايةِ الإسلامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ.. ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران)(٣٢).

وجاءت الصياغة في الرسالة تتميز بالإيجاز والدقة ، وسهولة الألفاظ ووضوح المعاني ، وخلوها من طرائق الاحتجاج والبرهنة ، إذ تتجه مباشرة إلى الغرض الذي سيقت من أجله ، وهو الدعوة إلى الدخول في الإسلام .

وتستهل الرسالة بالبسملة ، وهو من السنة في المكاتبات والرسائل النبوية عمومًا ، ولها دلالاتها على وحدانية الله وهيمنته على الكون ، وامتلاكه ﷻ الرحمة بعباده .

ثم يبدأ عنصرها الأول ، وهو اسم المرسل وصفته ، والمرسل إليه وصفته ، ومن حيث المرسل فهو " مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ " وفيه دلالة على تواضعه ﷺ ، وهو صفوة الخلق أجمعين ، فلم يعرف نفسه بأكثر من الاسم ، ثم يصف نفسه بالعبودية لله " عَبْدِ اللهِ " ، لكنه يعتز بأنه "رَسُولِهِ".

أما من حيث المرسل إليه وهو " هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ " ، فيذكر اسم " هِرَقْلَ " بوصفه علمًا على ملوك الروم ، ويضيف إليه الوصف " عَظِيمِ الرُّومِ " لينزله منزلته اللائقة به ، ويعلي من شأنه ، كما هو متعارف عليه في قومه ؛ لما حققه لهم من انتصارات متتابعة على أعدائهم ، وفي هذا تحبب في الخطاب ، وتأليف لقلب " هِرَقْلَ " ، وملاطفة له باللقب المحبب إليه الذي يرضي غروره ؛ ليستميل قلبه إلى الدخول في الإسلام .

ثم تأتي مقدمة الرسالة ، وتشمل التحية الإسلامية في أسلوب إنشائي غرضه الدعاء " سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى " ، وتحمل دلالة على توافر الأمن والسلام لمن اتبع الهدى ودخل الإسلام ، وفيها إشارة واضحة إلى أن صاحب الرسالة يرغب في أن يحيا المرسل إليه حياة آمنة مطمئنة بعيدًا عن الحروب وويلاتها ، وفي ذلك إغراء له ، وترغيب في دخول الإسلام الذي يدعو إلى السلام ، وينقذ من الضلال .

وجاءت كلمة " سَلاَمٌ " نكرة لإفادة العموم والشمول ، كما أن كلمة " الْهُدَى " أي : هدى الله ، المقصود بها الدين الجديد ، وتشير إلى تشويق المرسل إليه إلى هذا الدين .

وتجلت تقنية التناص في قوله ﷺ " سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى " مع القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (طه : ٤٧) ، مع حذف "الواو" منها ؛ لأنها جملة ابتدائية للتحية ؛ لإبلاغ "هرقل" بتلك الحقيقة الإسلامية ، لا سيما أنه من أهل الكتاب ؛ لتكون وسيلة من وسائل هدايته وإرشاده للإسلام دين السلام ، وفي ذلك غاية الحكمة النبوية في جعل "هرقل" يقوم بعملية استرداد نفسي ؛ ليقارن ذلك بما جاء في الإنجيل .

وجاء قوله ﷺ " أَمَّا بَعْدُ " بين المقدمة أو التمهيد ، وتفصيل الموضوع ، والأداة "أما" شرطية بمعنى " مهما " وتقدير الجملة الشرطية " مهما يكن من شيء فأما بعد " ويجب دخول "الفاء" التفصيلية على الفقرة التالية مباشرة ، " أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنِّي أدعُوك ..." .

وتنتقل الرسالة إلى صلب الموضوع والهدف منه في إيجاز شديد ، لا يتجاوز فقرة واحدة ، بعيدًا عن أي لون من ألوان الاستطراد والطرح غير الضروري ، إذ حدد عليه السلام مطلبه بوضوح ، وسلك في سبيل ذلك التدرج التسلسلي ، إذ بدأ بذكر " إني أدعُوك بِدعايةِ الإسلامِ " والمراد بالدعاية هو الدعوة ، واستعان بوسائل التوكيد " إن" والجملة الاسمية ؛ لتثبيت فكرته في ذهن المخاطب.

ثم يمضي البيان النبوي في توضيح هذه الفكرة المجملة التي تصدرت الموضوع من خلال جملتين تفسيريتين متلاحقتين يحملان ترغيبًا وتحبيبًا في الدخول إلى الإسلام ، ومع إيجازهما يكتنزان قدرًا هائلًا من الدلالات ، ويتصدران بالفعل

" أَسْلِمْ " في : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " ، "أَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ " ، ومعناهما أن في إسلامك يا هرقل السلامة والنجاة لك من كل سوء ، بالإضافة إلى ذلك فإن فيه أجرين لك ، أجر على إسلامك ، وأجر على إسلام من تبعك من رعيتك.

وبذلك جاءت الجملتان تفصيلًا لمضمون الجملة السابقة ؛ لتقوية الفكرة والترغيب فيها ، وكان للتفصيل بعد الإجمال دور بارز في تماسك النص ، وتقوية المعنى ، لما بينهما من قوة السبك المعجمي ، وهو ما لم يتطلب رابطًا لفظيًّا ، كما اعتمد الأسلوب في الجملتين على تكرار عنصر بعينه هو " أَسْلِمْ " في بداية كل جملة منهما ؛ فعمل على الربط بين سابقتها ولاحقتها ، فكان لذلك أثره في السبك والتماسك المعجمي في النص ، مع تأكيد الفكرة والحث عليها .

وساعد على توضيح الفكرة وإثرائها بالمعاني الحية ، صياغة الجملتين في قالب أسلوب الطلب الذي يقوم على إحكام الجملة ودقتها ، لما يختص به من تعلق المقدمة بالنتيجة ، إذ انبنى الطلب على الإغراء بالدخول في الإسلام ببيان جزائه وثمرته ، ولذلك توافرت في الجملتين من عناصر الحبك الدلالي الربط المنطقي بين السبب والنتيجة بدون أداة ربط بينهما ، فهو رابط معنوي يدعم التماسك النصي ، ويقوي السبك والالتحام بين أجزائه ، دون أن يحتاج في سبيل ذلك إلى رابط لفظي .

وجاء الفعل والجواب في الجملة الأولى من مادة واحدة "سلم" وأسند في المرتين إلى فاعل واحد هو الضمير المستتر الذي يعود على "هرقل"، وتناول فعل الشرط "أسلم" الحديث عن دخول الإسلام ، بينما تناول جواب الشرط "تسلم" الحديث عن السلامة والنجاة من الهلاك ، وكان وراء ذلك هدف واضح هو التركيز على بيان تعظيم الأمرين معًا : الدخول في الإسلام ، ونتائجه المثمرة.

ثم يأتي السياق بالجملة الطلبية الثانية في تدرج تسلسلي ؛ ليلفت انتباه المرسَل إليه إلى ما يحصده من خير بسبب إسلامه ، مستخدمًا في التعبير عن ذلك الفعل " يُؤْتِكَ " وما فيه من دلالة على استمرار العطاء وتجدده ، وما في كاف الخطاب من دلالة على التخصيص والإشباع النفسي لغرور " هِرَقْلَ " ، وتكرارها أيضًا مع " أَجْرَكَ " ، ناهيك عما يحمله الفعل " يُؤْتِكَ " من خفة في اللفظ ، وعذوبة في الصوت ، ومتعة في الإيقاع .

وجاء التعبير باللفظ " مَرَّتَيْنِ " بمضاعفة المثوبة ؛ ليبلغ التصعيد بالإغراء إلى أقصى درجات الاستثارة ، والتحكم في وجدان المخاطب وعقله ؛ لاستمالته إلى قبول الدعوة الموجهة إليه ، ولضمان راحته النفسية .

وبعد أن فرغت الرسالة من جانب الترغيب ، انتقلت مباشرة إلى جانب الترهيب والزجر " فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ " ، حيث أبرزت العقوبة التي سينالها "هرقل" إن رفض الإسلام ، ولم يقبل دعوة الهدى ، وأعرض عن الحق ، وهو أنه سيحمل وزرين : وزر إعراضه هو ، وأوزار إعراض أتباعه من رعيته الذين عبرت عنهم الرسالة بكلمة " الأَرِيسِيِّينَ " ، وهم الفلاحون المزارعون الذين يشكلون غالبية الرعية ؛ لأنه هو السبب في منعهم من الدخول في الإسلام .

ولذلك يقول الخطابي :" أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليدًا لك ؛ لأن الأصاغر أتباع للأكابر " (٣٣) .

ويعلل الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي لعقاب "هرقل" بعذابين بقوله :" إذا كان الله يعطي الكتابيَّ المسلم أجرين ، كرمًا منه وفضلًا ، فإنه يجعل على من كان سببًا في إضلال غيره إثمين ، حكمة منه وعدلًا ، سبحانه وتعالى " . (٣٤)

أما صياغة الترهيب فساقها البيان النبوي في قالب أسلوب الشرط ؛ ليحدد من خلاله تحديدًا صارمًا النتيجة التي سيحصدها ، والعقاب الذي يناله "هرقل" في حالة رفضه دعوة الإسلام ؛ لتكتمل دائرة الدلالة التي تحمل في طياتها نهيًا عن الإعراض عن الحق ، بتوضيح هذه النتيجة الوحيدة الحتمية له التي لا مناص منها ، ولا شك أن استحضار تلك النتيجة التي تمثل عقابًا بين يدي المخاطب ، تبلغ غايتها من النهي عن سلوك هذا الفعل السلبي .

وجاءت "الفاء" في الجواب رابطًا سببيًّا تماسكيًّا يتعالق من خلاله الشرط والجواب ، فيما وجهه الرسول ﷺ من تحذير لهرقل، ويمثل هذا الرابط اللفظي عنصرًا من عناصر الحبك الدلالي التي لها أثرها في تماسك النص وانسجامه .

ثم يقتبس الرسول ﷺ هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران ؛ ليقيم الحجة على هرقل ، إذ تدعو الآية أهل الكتاب الذين منهم "هرقل" إلى الاتفاق مع المسلمين على كلمة سواء عادلة ، وهي عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وعدم اتخاذ أحدٍ من البشر ربًّا من دون الله كاتخاذ النصارى المسيح إلهًا ، فإن قبلوا الدخول في الإسلام ؛ فلهم الثواب والأجر ، وإن رفضوا ذلك، وأصروا على فكرهم ؛ فليصارحهم المسلمون بالقول : اشهدوا يا أهل الكتاب بأنّا مسلمون .

ومما يلحظ في الآية أن سياقها كان يقتضي مجيء الوعيد والتهديد في أعقاب تولي أهل الكتاب عن قبول الإسلام ، بيد أن النص القرآني خرج عما يقتضيه الظاهر إلى ما لا يثير حفيظة نفوسهم ، من خلال أسلوب حكيم هو ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، أي : إن تولوا ورفضوا اللقاء على كلمة سواء عادلة ، فلتشهدوهم على إسلامكم .

وقد حفلت الرسالة – على إيجازها- بعناصر السبك بألوانها المختلفة ، فكان

لها إسهامها المباشر والفاعل في انسجام النص ، والتحام أجزائه ، وترابط جمله وعباراته ؛ بغية تحقيق الاتصال الجيد بين المرسِل والمرسَل إليه ، وصولًا إلى النتيجة المستهدفة من التبليغ .

ومن هذه العناصر الإحالة الداخلية التي تتمثل في إحالة ضمير الغائب "رسوله" ، وضمير المتكلم "إني " إحالة قبلية مرجعيتها إلى المرسِل " مُحَمَّدٍ " ﷺ ، وإحالة ضمير المخاطب في " أدعُوك ، يُؤْتِكَ ، أَجْرَكَ ، تَوَلَّيْتَ ، عَلَيْكَ " ، والضمير المستتر في " أَسْلِمْ ، تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ " إحالة قبلية مرجعيتها جميعًا إلى محيل واحد هو " هِرَقْلَ " .

وهناك إحالة اسم الموصول غير المحدد "من" في " سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى " ، وهو يفيد العموم ؛ لأن المراد بالتحية هو من اتبع الهدى ودخل في الإسلام ، وليس المراد بها " هِرَقْلَ " .

ومن عناصر السبك المتوافرة في النص " الإيجاز " بنوعيه بالحذف وبالقصر ، حيث آثر البيان النبوي إسقاط بعض العناصر أو قصرها من الكلام ؛ اعتمادًا على فهم المخاطب ، ووضوح قرائن السياق ، فضلًا عما يستوجبه في ذلك سياق المقام من حيث وضع المخاطب ومكانته الذي توجه إليه الرسالة ، وهو قيصر الروم .

ومن المواضع التي يتجلى فيها الإيجاز بالحذف قوله ﷺ :" أَسْلِمْ تَسْلَمْ " ، أي : أسلم لهدى الله ، وذلك بقصد توجيه نفس المخاطب إلى التركيز على الفعل ، وهو الأهم في السياق ، وعدم الانشغال بالمحذوف ؛ لكونه معلومًا ، لسبق ما يدل عليه وهو كلمة " الْهُدَى " ، أما " تَسْلَمْ " فالمقصود منها : تسلم من الحرب والقتال والدمار ، وفيه مع الإيجاز إفادة الشمول والعموم للسلامة من كل سوء وشر ، ومثله أيضًا قوله : " أَسْلِمْ يُؤْتِكَ ... " ، إذ إن المحذوف يحيل بمرجعيته – غالبًا – إلى ما سبق ذكره .

كذلك من العناصر المحذوفة ما جاء في سياق قوله ﷺ : " فَإِنْ تَوَلَّيْتَ ..." والتقدير : توليت عن الهدى ، والذي أجاز ذلك هو ذكره سابقًا ، فهي مرجعية قبلية .

إلى جانب الإيجاز بالحذف ، تميز نص الرسالة باكتناز الدلالة عن طريق إيجاز القصر من حيث نظم الألفاظ والتراكيب ، وهذا النوع من أعلى طبقات الإيجاز مكانًا، وأعوزها إمكانًا كما قال القدماء ، ومن أمثلته : التعريف بالمرسِل ، والمرسَل إليه ؛ إذ إن تعريفهما يحتاج إلى ألفاظ كثيرة ، تقوم مقام تعريفهما الوارد في الرسالة ؛ فجاءت المعاني أكثر من الألفاظ من غير حذف .

وكذلك دل قوله ﷺ " مَرَّتَيْنِ " على ما سيلقاه " هِرَقْلَ " في حالة إسلامه من أجر مضاعف ، على إسلامه من جهة ، وعلى إسلام إتباعه من جهة ثانية ، والذي دل على ذلك سياق الكلام.

وبذلك يتبين أن الخطاب التبليغي دل بالكلمات المختصرة والكلمة الواحدة على معانٍ متعددة يطول شرحها، ومن ثم شكل الإيجاز في الرسالة من اكتناز الدلالة ما تطلبه سياق المقام في مخاطبة الملوك ، فلكل مقامٍ مقال.

هذا فضلًا عن توافر عناصر السبك المعجمي التي تتمثل في علاقة المقابلة ، وما حققته من ربط معنوي بين جملتين متتابعتين :" أَسْلِمْ تَسْلَمْ " و " فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ " ، فقد جمعت بين حال من يسلم ويكون ثوابه السلامة ، وحال من يكفر ويكون عقابه الإثم والهلاك ، فالسلامة مقرونة بالإسلام ، والهلاك مقرون برفضه ، وجاء الخطاب مرتبًا ترتيبًا متناسبًا مع الواقع ، فقدم الترغيب على الترهيب ؛ لأهميته في الإغراء والتأثير وسرعة الاستجابة للدعوة ، ومن هنا تحقق السبك في نص الرسالة من خلال توافر عناصر الربط المعنوي واللفظي .

وهكذا جاءت الرسالة متمثلة جميع عناصر النصية ، حيث ركزت على الهدف الأساس المراد منها ،وهو الترغيب في اعتناق الإسلام ، من خلال نص جاء متلاحم الأجزاء ، مستوفيًا لشروط السبك النحوي والمعجمي ، ومناسبًا للموقف الذي ورد فيه ، موجزًا ودقيقًا ، قويًّا وواضحًا ، بعيدًا عن التكلف والغموض ، مصبوغًا بصبغة إسلامية لغة وتعبيرًا واقتباسًا من القرآن ؛ فكان له أثره البالغ في الاتصال الجيد بين المرسِل والمرسَل إليه ؛ وبذلك يقدم نص الرسالة نموذجًا متفردًا يُحتذى به في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام .

وتأتي – في الإطار نفسه – رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس ، فقد جاءت تشبه رسالته إلى هرقل ، ويتجلى ذلك -على نحو واضح -من خلال عرض نص الرسالة :

"بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس

سلامٌ على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبد ورسوله :

أدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين ، أسلِمْ تَسلَمْ ، فإن أبيت فإن عليك إثم المجوس " (٣٥)

ولا يخفى علينا التشابه الواضح بين الرسالتين في الغرض والموضوع ، والقصد إلى الإقناع والاستمالة من خلال البيان المؤثر الجميل ، ولا فرق بينهما إلا بعض الشيء في الصياغة والأسلوب .

أما رسالة النبي ﷺ للنجاشي ، فكانت طويلة نسبيًّا بالقياس إلى الرسالتين السابقتين ، ويبدو فيها احتفاء الرسول ﷺ بالنجاشي احتفاءً خاصًا ، وتكريمًا منفردًا

له ؛ لأنه من ملوك أهل الكتاب ، وعلى دين عيسى عليه السلام ، ولدوره العظيم في إكرام المسلمين الأوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وحمايتهم والدفاع عنهم ضد المشركين من مكة الذين أرادوا قتلهم ؛ ولذا جاءت عبارات الرسالة تتميز بالسهولة والوضوح ، والنبرة الهادئة ، كما أنها جاءت تحمل بين طياتها الحميمية والمودة والقرب والمشاركة والمؤانسة للنجاشي ، والدعاء له ، وإسباغ صفة السلم والسلام عليه ؛ ومن ثم جاءت أساليبها خلوًا من الاحتجاج والبرهنة والإقناع ، والوعيد والتهديد ، وقد حمل الرسالة إلى النجاشي جعفر بن أبي طالب ، وهذا نصها :

"بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة

أَسِلْم أنت ؟ فإني أحمد إليك الله ، الذي لا إله إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهدُ أن عيسى ابن مريم روحُ الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملَتْ به ، فخلقه من روحه ونفخَه ، كما خلق آدم بيده .

وإني أدعوك إلى الله ، وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالذي جاءني . فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلَّغتُ ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي .

والسلامُ على من اتبع الهدى " (٣٦).

وكان من نتائج هذه الرسالة وحصادها المثمر ، إسلام النجاشي (أصْحَمَة بن أبحر) ، حيث شرح الله صدره للإسلام ، وكتب رسالة إلى النبي ﷺ ردًّا على رسالته السابقة ، ونصها هو :

"بسم الله الرحمن الرحيم

إلى رسول الله محمد ﷺ من أصْحَمَة النجاشي

سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني للإسلام .. أما بعد ،،

فقد أتاني كتابُك يا رسول الله ، فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ، إن عيسى لا يزيدُ على ما قلت ثفروقًا ، وإنه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، ولقد قربنا ابن عمك وأصحابه .

وأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدوقًا ، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك ، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين .

وبعثتُ إليك بابني (أَرْها بن الأصْحم) فإني لا أملكُ إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك يا رسولَ الله فعلت ، فإني أشهدُ أن ما تقولُ حقٌّ.

والسلام عليك يا رسول الله " (٣٧)

[ثفروقًا: قمع حبَّة التَّمر] .

وبذلك حرص الرسول ﷺ على تبليغ رسالته ، ونشر دعوته ، وإقامة الحجة على الناس ؛ تنفيذًا لأمر الله له ، ثم وجه رسائله إلى الملوك والأمراء والحكام بقصد التبليغ العالمي الرسمي للدعوة بعد فتح خيبر ، وقد تفاوتت ردود أفعالهم ومواقفهم من رسائله إيجاباً وسلبًا .

الهوامش :

١. ينظر المعاجم : لسان العرب ، أساس البلاغة ، الكشاف ، القاموس المحيط : مادة : حَوَرَ .

٢. ينظر : مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٤م ص٨٩ ، ومناهج الجدل ص٣٠.

٣. ينظر : د. طارق الحبيب : كيف تحاور؟ ، مؤسسة الجريسي ، الرياض ١٤٢١هـ ص ٢٥ .

٤. طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٩٨م ص ٢١٥ .

٥. ينظر : نهاد الموسى : الصورة والضرورة في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي ، ط١، دار الشروق ، عمان ٢٠٠٣م ص ٨ .

٦. ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ، ط١، دار الكتاب الجديد ، بيروت ٢٠٠٤م ص٣٩ .

٧. ينظر : سالم بن مسفر : الإقناع في التربية الإسلامية ، ط١ ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ١٩٨٩م ص١٠٠ .

٨. جونز إرنبورج : الإلقاء الناجح، ط١، ترجمة : جمالات هاشم ، مكتبة الملك فهد ، الرياض ١٤١٨هـ ص١٥ .

٩. ينظر : د. نعمات محمد الجعفري : أسئلة الرسول في الصحيحين ، ط١ ، مكتبة الرشد ، الرياض ٢٠٠٧م ص٢٩٤.

١٠. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ص٨٦ .

١١. ينظر : الترادف بين النظرية والتطبيق ص ١٥٧ .

١٢. ينظر : د. إبراهيم عوض: القرآن والحديث .. مقارنة أسلوبية ، مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٠م ص ٥٥ وما بعدها .

١٣. ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص٤٦٢:٤٦٣ .

١٤. ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص ٧٣٠.

١٥. ينظر : الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ص ٢٥٠:٢٥٨ .

١٦. ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص٤٨٢ .

١٧. ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق .. الخطابة النبوية نموذجًا ص٣٧.

١٨. تيسير الأصول ٢٦٣/ ٢ .

١٩. ينظر : نص الخطبة في : صحيح مسلم ٤/ ٣٧، وبشرح النوري ٨/ ١٨٤، كما رواها البخاري مقطعة في أبواب متفرقة ، كذلك ورد نص الخطبة في البيان والتبيين ١/ ٣١:٣٣، وتيسير الأصول ٢٢/ ١ .

٢٠. ينظر : النهاية ٣/ ٢٠٠٩.

٢١. ينظر : لسان العرب : مادة عرض .

٢٢. ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٣٧ .

٢٣. الإمام مسلم : الجامع الصحيح ٤:١٤.

٢٤. ينظر : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص٣٦٣ .

٢٥. تيسير الأصول ١٩٨/ ١.

٢٦. عمدة القاري ص٣٥٩.

٢٧. ينظر : علم اللغة النصي .. المفاهيم والاتجاهات ص ١٤١ .

٢٨. ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق .. الخطابة النبوية نموذجًا ص٢٠:٢١ .

٢٩. إلهام أبو غزالة ، وعلي خليل حمد : مدخل إلى علم اللغة النصي (تطبيقات لنظرية دي بو جراند ولفجانج دريسلر) الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م ص١٠٢ .

٣٠. ينظر : البخاري ، ومسلم ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن كثير ، وتاريخ ابن الأثير ، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ، وسفراء النبي وكتبه ورسائله للدكتور مختار الوكيل

٣١. ينظر : الصناعتين ص١٤٢ .

٣٢. البخاري : كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٢٧٨٢/ وتاريخ الطبري ٢/ ١٨١.

٣٣. ينظر : فتح الباري ١/ ٣٩.

٣٤. د. صلاح عبد الفتاح والخالدي : الرسول المبلغ ، ط١، دار القلم ، دمشق ١٩٩٧م ص١١٠.

٣٥. الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ م ٢/ ٦٥٤:٦٥٥.

٣٦. السابق ٢/ ٦٥٢.

٣٧. ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد ، ط٢٦ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٢م ٣/ ٦٩٠ ، وأحمد بن طولون : إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ، ط١ ،تحقيق : محمود الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣م ٥١:٥٢ .

مراجــع الكتــاب

١. **إبراهيم عوض:**

- القرآن والحديث .. مقارنة أسلوبية ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٢. **ابن الأثير :**

- المثل السائر ، ط١، تحقيق : أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م .
- النهاية في الغريب والأثر ، ط١ ، تحقيق : طه أحمد الزاوي ، ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٣م .

٣. **أحمد بن طولون :**

- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ، ط١ ،تحقيق : محمود الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣م

٤. **أحمد حسن الزيات :**

- وحي الرسالة ، دار لثقافة ، بيروت ١٩٨٥م .

٥. **أحمد محمد ويس :**

- الانزياح وتعدد المصطلح ، مجلة عالم الفكر ، الكويت مج٢٥ ع٣، ١٩٩١م.

٦. **أحمد ياسوف :**

- الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، ط١ ، دار المكتبي ، دمشق ٢٠٠٢م .

٧. **ابن أبي الإصبع :**

- تحرير التحبير ، تحقيق : حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣ م.

٨. **إلهام أبو غزالة ، وعلي خليل حمد :**

- مدخل إلى علم اللغة النصي (تطبيقات لنظرية دي بو جراند ولفجانج دريسلر) الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م.

٩. **الباقلاني :**

- إعجاز القرآن ،ط٥ ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٧م .

١٠. **البدر العيني :**

- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .

١١. **أبو البقاء الكفوي :**

- الكليات ، تحقيق : عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٢١هـ-١٩٩٢م .

١٢. **بهاء الدين السبكي :**

- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ضمن (شروح التلخيص)، مطبعة عيسى البابي الحلبي ،القاهرة ١٩٣٧م .

١٣. **الجاحظ :**

- البيان والتبيين ، ط٥، تحقيق : عبد السلام هارون ، الخانجي ، القاهرة ١٩٨٣م.

١٤. **جمال الدين القاسمي :**

- قواعد التحديث ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٥م.

١٥. **ابن جني :**

- الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت)

١٦. **جونز إرنبورج :**

- الإلقاء الناجح ، ط١ ، ترجمة : جمالات هاشم ، مكتبة الملك فهد ، الرياض ١٤١٨هـ.

١٧. **الحاكم النيسابوري :**

- المستدرك على الصحيحين ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٨م.

١٨. **ابن حجر العسقلاني :**

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٩م .

١٩. **الخطابي :**

- غريب الحديث ، تحقيق : عبد الكريم الغرباوي ، مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٩٨٥م.

٢٠. **ابن دقيق العيد :**

- إحكام الإحكام ،ط١ ، تحقيق : مصطفى شيخ مصطفى ، ومدثر سندس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ٢٠٠٥م .

٢١. **دي بو جراند:**

- النص والخطاب والإجراء ، ط١ ، ترجمة : د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٩٨م .

٢٢. **الراغب الأصفهاني :**

- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم . تحقيق : نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت) .

٢٣. **الرافعي :**

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ط١ ، مؤسسة المختار ، القاهرة ٢٠٠٣م .

٢٤. **ابن رجب الحنبلي :**

- جامع العلوم والحكم ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ٢٠٠٢م .

٢٥. **ابن رشيق :**

- العمدة ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٦٣م .

٢٦. **الرماني :**

- النكت في إعجاز القرآن ، ط٤ ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦م.

٢٧. **الزركشي :**

- البرهان في علوم القرآن ، ط٢ ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة (د.ت) .

٢٨. الزمخشري :

- الفائق في غريب الحديث ، ط١ ، تحقيق : محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥م .

٢٩. سالم بن مسفر :

- الإقناع في التربية الإسلامية ، ط١ ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ١٩٨٩م .

٣٠. سعد بن سعيد الحجري :

- المنن الربانية في شرح الأربعين النووية ، ط١ ، دار بلنسية ، الرياض ١٤٢٣هـ .

٣١. سعد مصلوح :

- في النص الأدبي .. دراسات أسلوبية إحصائية ، ط٣، عالم الكتب ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

٣٢. السيوطي :

- تدريب الراوي ، ط١ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، ١٩٥٩م .

٣٣. شفيع السيد :

- التعبير البياني .. رؤية بلاغية نقدية ،ط١ ، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠٧م .

٣٤. صبحي إبراهيم الفقي :

- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ط١ ، دار قباء ، القاهرة ٢٠٠٠م .

٣٥. صلاح عبد الفتاح والخالدي :

- الرسول المبلغ ، ط١، دار القلم ، دمشق ١٩٩٧م .

٣٦. صلاح فضل :

- إنتاج الدلالة الأدبية ، ط٥، المركز الحضاري العربي ، القاهرة ٢٠٠٢م.

٣٧. طارق الحبيب :

- كيف تحاور؟ ، مؤسسة الجريسي ، الرياض ١٤٢١هـ

٣٨. **الطبري :**

- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٣٩. **طه عبد الرحمن :**

- اللسان والميزان ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٩٨م.

٤٠. **عبد الغفار هلال :**

- لغة القرآن والحديث ، ط١ ، دار العلوم ، القاهرة ٢٠٠٧م.

٤١. **عبد القاهر الجرجاني :**

- دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة (د.ت) .
- أسرار البلاغة ، ط١ ، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٩١م .

٤٢. **عبد الهادي بن ظافر الشهري :**

- استراتيجيات الخطاب ، ط١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ٢٠٠٤م .

٤٣. **عز الدين السيد :**

- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، ط٢ ،دار اقرأ ، بيروت ١٩٨٦م .

٤٤. **العقاد :**

- عبقرية محمد ، دار نهضة مصر ، القاهرة (د.ت).

٤٥. **ابن علان :**

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، دار الريان للتراث ، القاهرة ١٤٠٧هـ .

٤٦. **العلوي :**

- الطراز ،ط١ ، مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت١٩٩٥م .

٤٧. **عودة خليل أبو عودة :**

- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، ط١ ،دار البشير ، عمان ١٩٩٠م.

٤٨. **عيد بلبع :**

- محاضرات في البلاغة النبوية ، ط١ ، مكتبة الرشد ٢٠٠٨م .

٤٩. **غالب الشاويش :**

- البلاغة النبوية بين النظرية والتطبيق ، ط١ ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٩م .

٥٠. **ابن قتيبة :**

- تأويل مختلف الحديث ، صححه : محمد زهري النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٦٦م

٥١. **قدامة بن جعفر :**

- نقد الشعر ، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٧٨م .

٥٢. **القرطبي :**

- الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٣م .

٥٣. **القزويني :**

- الإيضاح ، ط٢ ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة (د.ت)

٥٤. **ابن القيم :**

- زاد المعاد في هدى خير العباد ، ط٢٦ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٢م .

٥٥. **ابن كثير :**

- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، ط٢ ، تحقيق : أحمد شاكر ، مطبعة على صبيح ، القاهرة ١٩٥٢ م .

٥٦. **مجدي وهبة وكامل المهندي :**

- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٤م .

٥٧. مجيد عبد المجيد ناجي :
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ١٩٨٤م .
٥٨. محمد الأنطاكي :
- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ،ط٣ ، دار الشرق العربي ، بيروت (د.ت).
٥٩. محمد رجب البيومي :
- البيان النبوي ، دار الوفاء ، القاهرة ٢٠٠٢م .
٦٠. محمد أبو شهبة :
- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ، ط١ ، مكتبة السنة ، القاهرة ٢٠٠٦م .
٦١. محمد عبد العزيز :
- الأدب النبوي، ط١، دار المعرفة ، بيروت ١٩٩٦م .
٦٢. محمد عجاج الخطيب :
- المختصر الوجيز في علوم الحديث ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٨ م .
٦٣. محمد لطفي الصباغ :
- الحديث النبوي،ط٨ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣م .
٦٤. ابن المعتز :
- البديع ، ط٢، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، رابطة الأدب الحديث ، مكتبة النجاح ،القاهرة ١٩٥٨م .
٦٥. منال النجار :
- مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات ضمن كتاب : التداوليات – علم استعمال اللغة ، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي ، ط١، عالم الكتب الحديث ، الأردن ٢٠١١م .

٦٦. **موفق الدين بن قدامة :**

- المغني ، ط٣ ، تحقيق : عبد المحسن التركي ، وعبد الفتاح محمد الحلو ، دار عالم الكتب ، الرياض ١٩٩٧م .

٦٧. **نعمات محمد الجعفري :**

- أسئلة الرسول في الصحيحين ، ط١ ، مكتبة الرشد ، الرياض ٢٠٠٧م.

٦٨. **نهاد الموسى :**

- الصورة والضرورة في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي ، ط١ ، دار الشروق ، عمان ٢٠٠١م

٦٩. **أبو هلال العسكري :**

- كتاب الصناعتين ط١ ، تحقيق : علي محمد البجادي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢م .

٧٠. **هيفاء عربية :**

- الكناية في البلاغة العربية .. النظرية والتطبيق ، بحث ماجستير ، جامعة حلب ١٩٩١م .

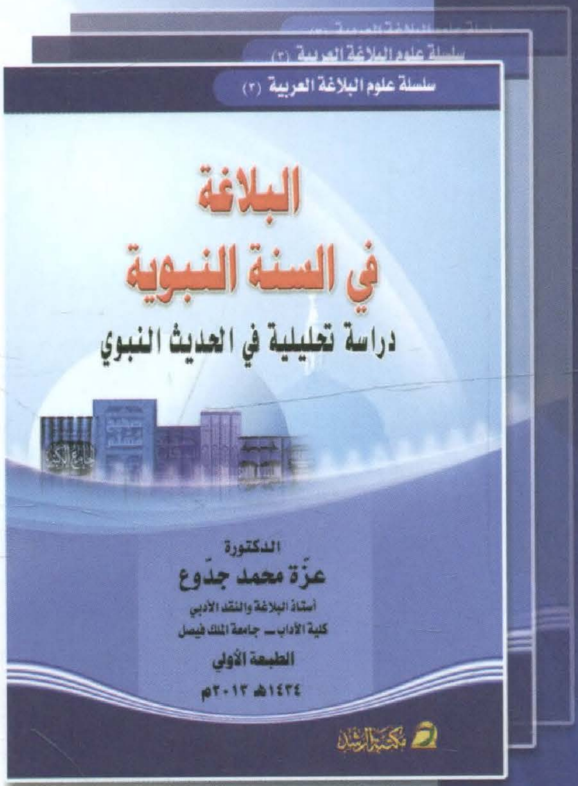

مكتبة الرشد

ألوان للطباعة
ALWAN PRINTING
ت: ٢٤٢٣١٣٠ ف: ٢٤٢٣١٢٥

ISBN-6281140 029251